دراسات في التربية والأدب والفكر الديني

الدكتور

إبراهيم حسن حسين

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دار الجديد للنشر والتوزيع

370.01
ا . ح

حسين ، إبراهيم حسن .

دراسات في التربية والأدب والفكر الديني / إبراهيم حسن حسين.-

ط1.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع .

252 ص ؛ 17.5 × 24.5سم .

تدمك : 2- 574 – 308 – 977 – 978

1. التربية - فلسفة .

2. الأدب - فلسفة . 3. الفلسفة - نظريات.

أ - العنوان .

رقم الإيداع : 11103 .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

هاتـف- فاكس : 0020472550341 محمول : 00201277554725-
00201285932553

E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

النـــاشـــر : دار الجـــديد للنشـــر والتـــوزيع

تجزءة عزوز عبد الله رقم 71 زرالدة الجزائر

هاتف : 24308278 (0) 002013

محمول 661623797 (0) 002013 & 772136377 (0) 002013

E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

2018

فهرس الكتاب

الفصل الأول : التربية الجمالية في شعر أدونيس

تمثل التجربة الإبداعية في الشعر عند أدونيس عدة جوانب جمالية استهدفت تنمية وبناء الإنسان من خلال عدة محاور أكدت ذلك .

وقد شملت هذه المحاور في شعر أدونيس الآتي:

العلاقة بين فلسفة التربية الجمالية والإبداع الأدبي والإنسان ، قيم التربية الجمالية في شعر أدونيس والتي شملت :

الجمال وقيمة الحياة ، الجمال وقيمة الوعي ، الجمال وقيمة المقاومة ، الجمال، والتجدد ، الجمال والمستقبل ، الجمال والانتماء ، الجمال وقيمة اللغة ، الجمال وقيمة التنوير ، الجمال وتجاوز المألوف ، الجمال وقيمة الوجود.

وتطرح التربية الجمالية في شعر أدونيس معارضة المؤسسات القمعية بصورة الإنسان من حيث هو ذات حرة ، ويقدم أدونيس في شعره الشكل الأمثل ، حيث يقدم صورة جدلية للإنسان ، بمعنى أن الإبداع الشعري يفك قيد الاستلاب ،وفي نفس الوقت يعكس العذاب السائد في وجود مستلب للذات ، أي يطرح لنا الكراهية والقلق بجانب حب الوجود والطمأنينة ، فالتشكيل الجمالي عنده يتم بموجب قانون الجمال وهو جدل الإثبات والسلب ، الحضور والغياب ، وتحت سلطان قانون هذا الشكل يمكن تشخيص أشد أنواع العذاب مع إمكانية استخلاص متعة منه.

وقد قدم البحث العديد من النماذج الشعرية لأدونيس تتوجه بشكل أساسي لتربية جمالية فاعلة من خلال الاحتفاظ بالعلاقة الحسية بين الإنسان والعالم والعلاقة الروحية بين الإنسان وما تدركه حواسه.

المبحث الأول : المقدمة

هناك علاقة عضوية بين الأدب كفن والجمال كعلم ، ويؤكد ذلك إقبال الناس على تذوق الأدب والتمتع بجمالياته عبر العصور ، ويؤكد هذا الإقبال الحب الفطري للجمال بمجرد الإحساس به. وتحمل اللغة على عاتقها مهمة إظهار هذا الجمال ، فهي النسق الرمزي الأكثر إثارة للدهشة والإعجاب ، والذي أبدعته البشرية، ولما كانت اللغة هي وعاء الإبداع الأدبي حيث تفصح عن القضايا التي تنبثق منها أليا بوصفها معاير للجمل . فإنها بذلك تمنحنا الخبرة الجمالية من خلال حصولنا على إشباع من رؤيتنا للروابط بين العمل الأدبي، وكذلك حصولنا على متعة من خلال رؤيتنا للكيفية التحى يقوم بها هذا العمل وذلك من خلال الشكل والأسلوب ، الذي ينشاء بفعل التكنيك الفني الذي يحتوى علاقات يتم تكوينها لإظهار البعد الجمالي داخل العمل الأدبي . وتعاظم إحساس الإنسان بالجمال كخطاب تأويل يسبق المعرفة، فإن اللغة الجمالية تبدى ما قد خفي ، فتولد لدى الإنسان القدرة على التفسير الذي يصادف نشوة إبداعية في ذاته، حيث يقدم تفسيرا ملائما وأحادي المعنى للوقائع من خلال تذوق الجمال وانفعاله الوجداني الذي يستغرقه في حضرة النص الأدبي .

وتلعب العملية الإدراكية لدى الإنسان دورا كبيرا في تناهى الإنسان مع التربية الجمالية، حيث يكون تفسير الأشياء ورؤيتها غرضاً للاهتمام الإدراكي الخاص الذي يحمل الإنسان إلى إدراك الجماليات بكل صورها المختلفة ، فلم كان الأديب يمثل العالم إنما يبتكر عالماً خاصاً مصاغاً برؤية جمالية مؤثرة بالابتكار والإبداع حيث يضع الأدب في إبداعه العملية الحسية لدى الإنسان محوراً للعمل. يمكن تشكيله بحيث يقوى على استيعاب معطيات الإبداع الجمالي، لذلك فإن الدلالة الواضحة لمثل هذه الإستراتيجية (هي أن الهدف الأقصى لا يقع في العمل نفسه أو في التفكير فيه، بل يكمن في علاقة نمط الوجود مع العالم الذي يثيره العمل أي رؤية الجمالي، كمنظم للتجربة الحياتية اليومية، وقدرته على تحقيق ذلك فعلاً)[١]

والجمال شيء يحس في كل الاحايين ، وذلك بدرجات متفاوتة ، ولكنه يستحيل وصفه بصفة دائمة وثابتة ، ومن ثم يصعب تحديده ، فالإحساس بالجمال من الأدب بصفة خاصة ، والفن بصفة عامة يختلف من شخص إلى أخر ، ولكن الشيء الوحيد الذي يتفق عليه الجميع أنه إحساس ممتع يثير البهجة والانشراح والشفقة في النفس ، ويود الإنسان أن يعاود هذا الإحساس من حين إلى آخر لأنه يساعده على تحمل متاعب الحياة ، ومواجهتها بصدر رحب [٢].

وقد نشأ علم الجمال في حضن الثقافة اليونانية القديمة ، وقد أهتم به سقراط وأفلاطون وأرسطو على اعتباره فرعاً من فروع الفلسفة ، فقد بحثوا في ماهيته ووضعوا له الحدود ، والتقسيمات ، وتشير الكتب التي اهتمت بفلسفة الفن وعلم الجمال إلى بداية هذا العلم في المحاورة التي جرت بين سقراط وتلميذه (هبياس) وذلك عندما سأل سقراط تلميذه قائلاً [٣] :

ـ ماذا عسى أن يكون الجمال ؟

وأجاب (هبياس) بأن راح يعدد له بعض الأشياء الجميلة . ومن ثم فقد لفت سقراط نظر تلميذه إلى أنه لم يكن يسأل عن " الجزئيات " التي تنطبق عليها صفة الجمال ، وإنما قصد وراء سؤاله : معرفة ذلك "المدرك" الكلى الذي نسميه (الجمال) وإنما تنحصر مهمتها في تعريف ماهية الجمال .

وقد تطور علم الجمال بعد ذلك في الثقافة الأوربية تطوراً كبيراً ، وبخاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين على أيدي الفلاسفة ، والمفكرين ، وتنوعت اتجاهاته ومدارسه حسب فلسفة كل فيلسوف ، وكان من الطبيعي أن يهتم الفلاسفة بفلسفة الفن وعلم الجمال ، ومدى تأثير ذلك على الإنسان لذلك درسوا الظاهرة الجمالية ، وكيف يتم النفاذ إلى باطن العمل الفني لمعرفه قدرته على تنمية الذوق . وتعديل السلوك .

كما أخذ علم الجمال مسارات جديدة لدى الفلاسفة المحدثين ، فبعضهم اعتبر دراسة علم الجمال مجرد دراسة تجريبية للذوق الإنساني ، والبعض الآخر يحولها إلى دراسة لسيكولوجية الإبداع الفتى والتذوق الجمالي ، والبعض مما يهتمون بشئون تربية الإنسان والتفسيرات الاجتماعية ربطوها بالنشاط الحضاري الذي يصاحب الإنسان ، وغدت دراسة تعنى بالتربية الجمالية في حد ذاتها باعتبارها نشاطاً إنسانيا يؤكد حرية الفرد وقدرته الإبداعية .

والعمل الأدبي رافد من روافد التربية التي تعلىّ من قدر الإنسان وتسمو به ، والأدب يحمل في طياته وتوجهاته القيم التربوية الخلاقة التي تبنى الإنسان وتساعده على تحمل مصاعب الحياة ، ومواجهة تقلباتها والدفع بحياته في الاتجاه الصائب . والعمل الأدبي الجيد لابد أن يشتمل على ضرب من التناغم الزى تشع من خلاله القيم : إذ يتم التوافق في صميم الموضوع الجمالي بين رغبة الأديب في الإبداع الأدبي من جهة ، والنتيجة المحققة من جهة ، ومن ثم يمكنا الكشف عن ما في العمل الأدبي من إبداع للشكل والنوع والجمال [٤] .

وقد عنى الباحث بدراسة التربية الجمالية في شعر أدونيس ، لأن الشعر يفسر طبيعة أسمى وأقدس ما في داخلنا . وهذه الأشياء وغيرها مما يتصل بالوجود الإنساني في أخص خصائصه ، قد أفصح عنها بكل جلاء أولئك الشعراء الذين وهبوا حساسية زائدة وخيالاً خصباً، فأثروا الحياة إبداعاً وجمالاً وتربية فكانوا هداة للناس ومبشرين بغد أفضل ، وقدموا في أعمالهم كثيراً من المضامين التربوية التي لا غنى للإنسان عنها .

المشكلة :

تشير التربية الجمالية في دلالتها إلى أنها جانب ثقافي قادر على تحرير الإنسان ، لأنه يترك للأشياء ،وجوهها الفريدة ، كما أن هذا الجانب الثقافي يكشف عن حضور كيفي للأشياء ، وبذلك فهو تأكيد وبلورة لكل ما هو نوعى وخاص في مقابل الكلية . وفي ظل المتغيرات العالمية المتلاحقة ، والثورة المعرفية المتزايدة التي يتخلق عنها مجتمعات عديدة يمكن أن يطلق عليها مجتمع المعرفة ، فقد طغى على مجتمعاتنا العديد من القيم التي انتشرت على امتداده أفقيا ورأسياً أزاحت هذه القيم العديد من الرؤى الجمالية ذات الصلة بالإنسان ، وقد تمثل ذلك في طغيان الأوساط المتعددة ، وفقدان القدرة على التأمل ، فخلت حياة الإنسان من بعض قيم الجمال التي لا يمكن للإنسان أن يظل بمعزل عنها . فالجمال يخلق تناغماً تشع منه القيم ، حيث تتحد هذه القيم في سلوكيات الإنسان نحو مفردات حياته ، وطريقة التعاطي معها.

من خلال ذلك حاول الباحث استدعاء بعض قيم التربية الجمالية في شعر أدونيس ، والذي يمتلئ بهذه القيم ، ومن ثم فقد تمثل السؤال الرئيسي في الأتي :

س : ما ملامح التربية الجمالية في شعر أدونيس ؟

وتتطلب الإجابة على هذا السؤال الإجابة عن الأسئلة الآتية :

(١) ما العلاقة بين فلسفة التربية الجمالية والإبداع الأدبي والإنسان ؟

(٢) كيف يمكن الكشف عن التربية الجمالية في شعر أدونيس من خلال : الجمال وقيمة الحياة ، الجمال والمستقبل ، الجمال وقيمة الانتماء ، الجمال وقيمة اللغة ، والجمال وقيمة التنوير ، والجمال وقيمة مجاوزة المألوف ، الجمال وقيمة الوجود .

(٣) النتائج التوصيات ، المراجع .

أهمية الكتاب:

تمكن أهمية الكتاب في كونه يحاول الإمساك ببعض قيم التربية الجمالية في شعر أدونيس كونه شاعراً مبدعاً يحمل مشروعه الشعري رؤى جمالية تتصل بحياة الإنسان وسلوكياته .

التوجه المنهجي:

يتجه الدارس في هذه الدراسة إلى استخدام المنهج " السيميولوجى " حيث يتعهد هذا المنهج الأمور المتعلقة بالأجناس الأدبية (الشعر ، الرواية القصة القصيرة ، ... إلخ) ويقوم هذا المنهج على مفهوم الأكواد التي يبعث بها النص إلى قارئه ، والذي تقع عليه مسئولية فك شفرة الأكواد و يمكن للكود أن يكون لفظا صريحاً ، أو إيحاء مستتراً أو إيقاعاً تنغيمياً ، أو وفقه صوتية ، أو تشبيهاً مجازياً ، أو تركيباً نحوياً ، أو علامة دلالية ، أو مكانية ، أو إشارة إلى معلومة سابقة أو واردة ، أو إحالة إلى معرفة على العهدية ، وتتضافر كل هذه الأكواد في نقل مضمون النص إلى قارئه . هذا القارئ الذي يستطيع بآلياته الممكنة في فك شفرات أكواد النص ، حيث تكون خلفيته وهدفه الدافع الأساسي من وراء قراءة هذا النص ، ومن ثم يستطيع فهم مضمون النص ممسكاً بدلالات التربية الجمالية ، والتي حملت العديد من الأكواد السابقة ، فكانت بمثابة الكشف الدقيق على مفاهيم دلالة الجمال الشعري ، الذي حمل في طياته آفاقاً متعددة لتربية جمالية أتاح المنهج السيميولوجى للباحث مهمة الوقوف على دلالات التربية الجمالية المنوط الكشف عنها .

ولا يقف الباحث عن هذا الحد في التوجه المنهجي ، إنما سوف يأخذ في الاعتبار التحليل الكيفي لمحتوى النص من خلال القراءة الجيدة المعنية بالبحث عن الدلالة العامة ، والخاصة مروراً بالبحث في البني السطحية ، والبني العميقة للنص .

المصطلحات:

(١) **النص الشعري** :

أكثر من مجرد خطاب أو قول لأنه موضوع لعديد من الممارسات السيميولوجية ، التي يعتد بها على أساس أنها ظاهرة لغوية .

(٢) **الجمال** :

علم يخرج عن كونه رمزاً يعبر عن حالات وجدانية يمد الإنسان بشحنات وجدانية من أجل العمل على استخلاص معانيها ودلالاتها .

(٣) **التربية الجمالية** :

تقوم التربية الجمالية على قيم جمالية ، ليست مسبقة يتم فرضها على الملتقى ، إنما هي بنائية تعمل على تربية ، وتنمية وجدان الإنسان ، وتأهيله لتهذيب سلوكه ، ورغباته ، وتطلعاته في كيان جديد متجدد ، فالموضوع الجمالي هو موضوع مبدع أو مخلوق من أجل الإنسان ، حيث يكون هو المعادل الموضوعي للعاطفة أو الانفعال، أو الفكرة أو الحدس ، أو الحالة النفسية ، فهو بمثابة تجسيد مادي ، وتحقيق ملموس لحالة من حالات الشعور الإنساني .

الأهداف:

نهدف إلى تأكيد قيم التربية الجمالية في حياة الإنسان والتي بدونها لا يستطيع خلق رؤى استشرافية في حياته ، حيث علم الجمال جانب ثقافي له مقدرة تحرير الإنسان ، لأنه يترك للأشياء وجوهها الفريدة ، وهو يضع مسافة بيننا وبين الأشياء ، والمشاهد والكلمات ، كما أنه يكشف عن حضور كيفي للأشياء .

الحدود :

الإبداع الشعري لأدونيس من خلال أعماله الكاملة في الشعر ، وبعض الدواوين الأخرى

أ ــ مصادر أولية : وهى دواوين أدونيس الشعرية وبعض مؤلفاته الأخرى .

ب ــ مصادر ثانوية : ما كتب عن أدونيس ، وبعض كتب الأدب والنقد ، وبعض كتب علم الجمال .

المباحث :

المبحث الأول : الإطار العام للبحث .

المبحث الثاني : العلاقة بين فلسفة التربية الجمالية والإبداع الأدبي والإنسان .

المبحث الثالث : التربية الجمالية في شعر أدونيس : الجمال وقيمة الحياة ، الجمال وقيمة الوعي ، الجمال وقيمة المقاومة ، الجمال وقيمة التجدد ، الجمال والمستقبل ، الجمال وقيمة الانتماء ، الجمال وقيمة اللغة ، الجمال وقيمة، التنوير ، الجمال وقيمة مجاوزة المألوف ، الجمال وقيمة الوجود .

النتائج ،المراجع .

أدونيس في سطور :

ولد على أحمد سعيد عام ١٩٣٠ في قرية سورية ، وفي سن الرابعة عشر قرأ قصيدة وطنية المضمون أمام الرئيس الذي كان يزو مناطق البلاد بعد استقلالها الحديث .

منح الصبي منحة ليتابع دراسته ، فدرس الأدب والفلسفة من عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٥٤ في جامعة دمشق ، ونشط في الحزب السوري القومي .

بعد أن أتخذ اسماً مستعاراً هو أدونيس بدأ يهاجم كل ما هو ثابت في السياسة والمجتمع والأدب العربي ، وكانت النتيجة الدخول إلى السجن ومن ثم المنفي الطوعي إلى لبنان في عام ١٩٥٦ .

كانت بيروت مدينة ثقافية تشكل مع القاهرة وبغداد أحد المركز الأدبية للعالم العربي

شارك أدونيس في عام ١٩٥٧ في تأسيس مجلة " شعر " التي أصبحت منارة للإبداع الشعري في الشرق الأوسط ، وشمال أفريقية ، وعرفت بكثير من الكتاب الأوربيين المعاصرين عبر الترجمة .

ظهر كتاب أدونيس الشعري الأول عام ١٩٥٠ ، منذ ذلك الوقت وإنتاجه الشعري في تصاعد مستمر ، وكان في الوقت نفسه يعيد تقيم التراث العربي ، وحصل على درجة الدكتوراه بتقديمه أطروحته (الثابت والمتحول) حللت تاريخ الثقافة العربية من منظور التحول والتغير والإتباع واصلاً إلى نتيجة تفيد أن التيارات المحافظة داخل الإسلام قمعت الإبداع بشكل كارثي ، وقد أصبحت هذه الفكرة محورية في حياته وأعماله .

يمتلك أدونيس صلة مع التراث الصوفي ،و يحتفل بما يحبه في الماضي العربي ، إلا أنه يصر على الانفتاح على جميع الثقافات ، وعلى الروح المغامرة للتغير وعلى خلق حداثة عربية متميزة .

<u>الأعمال الشعرية لأدونيس ، التي اعتمد الباحث عليها :</u>

١ ـ المطابقات والأوائل ، دار الأدب ، بيروت ١٩٨٠ .

٢ ـ قصائد أولى ضمن الأعمال الكاملة دار العودة بيروت ١٩٨٥ .

٣ ـ الأعمال الشعرية الكاملة ١٩٨٥ .

٤ ـ أبجدية ثانية دار تويفال للنشر الدار البيضاء .١٩٩٤

٥ ـ إذا قلت يا سوريا ، بيروت ١٩٥٨ .

٦ ـ دليلة ، ابن زيدون ، دمشق ١٩٥٠ .

٧ ـ الكتاب أمس ، المكان الآن دار الساقى لندن ـ بيروت .١٩٩٥

٨ ـ مفرد بصيغة الجمع دار العودة بيروت .١٩٨٥

٩ ـ الأعمال الشعرية الكاملة دار المدى دمشق ٢٠١٠ .

كتابات نثرية لأدونيس ، تم الاعتماد عليها :

١ ـ زمن الشعر : دار العودة ، بيروت ١٩٧٨لأدونيس دواوين شعرية متنوعة الأسماء شملها في أعماله الشعرية الكاملة الصادرة عام ٢٠١٠ عن دار المدى بدمشق .

المبحث الثاني : العلاقة بين فلسفة التربية الجمالية والإبداع الأدبي والإنسان

تنطوي التربية الجمالية في الفن بصفة عامة على لوحة مؤثرة وفي الأدب خاصة على عناصر الوضوح من كلمة ملهمة أو صورة أدبية خلاقة ومربية كما تنطوي أيضا في الحياة العامة على سلوك مرغوب ، ومن ثم فإن التربية الجمالية يمكن أن تكون هي الوجه المؤثر والإلهام ، لأن التربية تبدأ حين تبدأ من عنصر مؤثر لطبيعة الوجود البشرى ، حيث تكون التربية خبرة في الزمان ، والمكان ، تتأثر بما عداها من الخبرات البشرية الأخرى.

وبذلك يمكن القول بأن عالم الجمال " ليس بمتأمل تنحصر كل مهمته في الإدراك الحسي كما أنه ليس بضمان يصدر بعمله عن إلهام فني ، إنما هو باحث تتمثل وظيفته في فهم الظاهرة الجمالية ، والعمل على توضيحها في أذهاننا.[٥]

ولما كان العمل الأدبي يقوم في تكويناته وإبداعه على رؤية جمالية ، تدخل في إطار الكلية للعمل ذاته ، فإن العمل الأدبي يضم في كل مراحله رؤى جمالية تتيح له مهمة التربية التي من خلالها يتفاعل الوجدان مع العمل المبدع ، بذلك يكون علم الجمال ليس علماً معياراً يبين لنا ما ينبغي أن يكون عليه العمل المبدع ، وإنما هو علم وصفي يدرس العمل المبدع باعتباره ظاهرة بشرية تدخل في صميم النشاط الروحي للوجود البشرى ، حيث يتم التفاعل مع العمل ذاته ، وما يحتويه من معنى باطن .

ومن الصعب تحديد ما الجمال ؟ لأن الإنسان درج على أن يصف ما يرضيه وما يؤثر فيه ويعجب به بأنه جميل ، حيث يختلف مفهوم الجمال من ثقافة لأخرى ومن بيئة لأخرى ومن مدينة لأخرى ، بل الذوق الجمالي بين أبناء الحضارة الواحدة ، وتتعدد أنواع الجمال طبقاً للإبداع والألوان والأصوات والأشكال وتأثير التربية التي تهذب النفس وتعزز المشاعر وتقوم السلوك ، كما أن الأدب يخلق موجودات أشد جمالاً وتأثيراً في النفوس من موجودات العالم الواقعي وتساهم هذه الموجودات في بناء الإنسان وتوجيهه وحثه على الاستمرار في الحياة وتربية ملكاته والرقى بها .

وقد ظهر الاختلاف حول طبيعة الجمال منذ أقدم العصور ، وذلك عندما افترض أفلاطون أن الجمال مثال ونموذج خالد ، يتأمله الفنان في حين ذهب أرسطو إلى البحث في خصائص التعبير الفني الجميل لأن الأعمال الفنية هي التي تدفعنا إلى تذوق الجمال الطبيعي ، وإلى الإحساس بالحياة الإنسانية ، بل أن كثيراً من الانفعالات التي تجرى بباطن نفوسنا قد لا نلتفت إليها لولا أن فجرتها فينا الأعمال الفنية [٦]

وإذا كانت بعض الأعمال الأدبية قد صمدت لاختبار الزمن ، ودخلت في دائرة الخلود، فذلك لأنها تجسد حقائق كلية داخل بنيات جمالية شاركت الناس حياتهم على مر العصور وفي مختلف البقاع [٧]

وقد غدت دراسة الجمال تعنى بالبحث في العلاقة بين منتج الأدب وجمهوره ، وقد كان ذلك ثمرة من ثمرات اهتمام الأدباء بتضمين إبداعهم رؤى جمالية مربية باعتبارها نشاطاً إنسانياً يؤكد حرية الفرد وقدرته الإبداعية .

والأدب لا يمثل ظاهرة نوعية مستقلة ، بل هي واقعة من وقائع الحضارة أو الثقافة بمعناها العام ، وليس الأدب مجرد دراسة علمية وصفية أو موضوعية للظاهرة الجمالية، تختفي فيها شتى التأملات الفلسفية حول طبيعة الجمال ، وتنعدم فيها كل الأحكام التقويمية ، بل هي أيضا دراسة بشرية عامة تظهرنا على الوظائف التربوية والدينية والقومية والنفعية والوجدانية

أولاً : التربية الجمالية والإبداع الأدبي :

١- التربية الجمالية في الإبداع الأدبي :

يحتوى الإبداع الأدبي عدة مصطلحات تقوم عليها التربية الجمالية وهى :

التشكيل اللغوي حيث يعين ذلك المبدع على تشكيل عمله الأدبي بطريقة جمالية تنتظم فيها الصور ، وبراعته في استخدام الكلمات ، وتتابع المقاطع ، والقدرة على سبر أغوار النص ومحاورة رموزه وفكها .

في مجال الشعر يتم بناء القصيدة على طريقة اللوحة : وهى تتصل بالتشكيل اللغوي فالشاعر الذي يمتلك قدرة بناء القصيدة مثلما يبنى الفنان لوحته فإنه بذلك يضمن القصيدة توجها جماليا متعدد الفهم والجوانب .

الإشعاع الأدبي : ويستمد هذا الإشعاع قدرته التواصلية على جاذبية الشخصية الأدبية والأديب المبدع الذي يملك جاذبية الشخصية ، يتمكن بسهولة من إدراك كل أدواته التي يستطيع من خلالها خلق وعى جمالي وإدراك لقيمة هذا الوعي الجمالي في تزكية الروح واتقاد العاطفة .

فكرة الزمن : وقد تتحول من مجرد فكرة تدل على معنى محدد إلى مصطلح جمالي يسهم في تكوين البناء التربوي لدى الفرد ، حيث يتم انصهار كافة الأدوات التعبيرية والتصويرية ، ويدفع ذلك فكرة الزمن لخلق اتجاهاً جماليا مؤثراً .

وتخلص مما سبق أن للإبداع الأدبي بكل تجلياته واحتضان النقد الأدبي له يقف على أرض مشتركة مع " علم الجمال " ، ولما كان الأدب رافدا تربوياً مهماً فإنه بذلك يؤدى دوراً رائداً في بث التربية الجمالية و إشاعتها ، حتى تصير الخبرة الجمالية شأناً تربوياً خالصاً ، وذلك من خلال تذوق الأدب عامة والشعر خاصة ويتطلب ذلك امتلاك القدرة على تذوق الأدب وتحليله تحليلاً منطقياً ، فيكون بذلك تربية الممارسة والمران في نفوس الأفراد هي الطريقة لبلوغ الغاية الجمالية . فالأدب وعاء ضخم يضم قيماً تربويه أصيلة قادرة على تهيئة الأفراد لاستقبال التربية الجمالية لذة وتذوقاً وتهذيباً وسلوكاً .

٢ ــ تربية التواصل الجمالي :

تقوم وظيفة الإبداع الأدبي ، وعلاقته بالمجتمع على غرض حقيقي هو التعبير وتربية التواصل الجمالي ، فالأدب نوع من التعبير عن التجارب التي يمر بها المبدع وحياته وأحاسيسه ، وانفعالاته، وما يدور في نفسه وفي عقله من مشاعر وأفكار ، وقراءته لواقع المجتمع ، وظواهر عصره ، وملامح مفرداته ، كما أنه في الوقت ذاته وسيلة لتأدية هذه التجارب والانفعالات ، والأفكار إلى الآخرين ، بنفس القوة التي يشعر بها المبدع الذي يمر بتلك التجربة ، والإخفاق والفشل في ذلك يعنى الإخفاق والفشل في إنتاج الأدب . وليس المقصود بتربية التوصيل هو توصيل " المعلومات " كما هو الشأن في الكتب العلمية ، وإنما المقصود بتربية التوصيل الجمالي ، هو مدى صدق ذلك العمل الأدبي ، ومدى التحقق من تحقيق دوره التربوي في تأصيل الإحساس الجمالي لدى الفرد ، وقدرة ذلك العمل على تأكيد دور التربية كرسالة تحمل العديد من التوجهات قد تهدف إلى الإقناع ، وإلى قبول قضية أو رأى أو حكم والعكس . فالأدب عمل اجتماعي ثقافي إلى جانب كونه نتاجاً جمالياً ، وهذا ليس معناه إخضاع النتاج العقلي للمحكات الجمالية وحدها ، أو إغفال غيرها من المحكات الثقافية والاجتماعية والأخلاقية ، خاصة وأن أداة الأدب هي اللغة والكتابة وهما أداتان اجتماعيتان .

ومما لا شك فيه أن المبدع يأخذ في اعتباره في معظم الأحوال والأفكار والأحكام والقيم التي تسود في مجتمعه ، فضلاً عن الأحكام التي يصدرها القراء أنفسهم على ما يكتب فالتفاعل قائم بين المبدع والمتلقي من خلال التأثير الجمالي على الحواس وانفعال الوجدان به واهتزاز المشاعر له ، فالمبدع يلعب دوراً تربوياً إيجابياً يتمثل فيما يثبه من رسائل قيمية يغلفها الجمال أو تجارب إنسانية إلى المتلقيين الذين تصدر عنهم استجابات لهذه الرسائل ، تتمثل هذه الاستجابات في الأحكام التي يصدرونها على ما يكتب ، ومدى الإحساس بقيمة الجمال والتأثير به .

٣. التربية الجمالية وتأثير الشكل والمضمون:

يمثل الشكل والمضمون أساساً قوياً في عملية التربية الجمالية في الإنتاج الأدبي عامة وفي الشعر خاصة ، فالشكل هو الصورة التي تحتوى المضمون وهو الإطار الخارجي الزى ينشىء بالإحساس الجمالي ويتم الشكل من خلال تحقق الصورة الخارجية للمنتج الأدبي ، حيث يحقق ذلك انسجاماً في عناصر الوحدة ، كما يساعد تناظر الأجزاء على فاعلية هذه الانسجام الذي بدوره يحقق الغرض الجمالي ، أما المضمون فهو كل ما يشتمل عليه العمل الأدبي من فكر أو فلسفة أو أخلاق أو اجتماع أو سياسة أو تربية أو غير ذلك من الموضوعات ، والشكل والمضمون يشكلان قيمة الإحساس بالتربية الجمالية داخل العمل الأدبي حيث يكون المنتج الأدبي شكلاً مضمونا يحتوى الرسالة الفكرية التي ينشدها المبدع ومهما كانت القيمة الفكرية في العمل الأدبي فإنها تحتاج إلى قالب معين تصاغ فيه الأفكار والأحداث ، فالقصيدة الشعرية على سبيل المثال ليست مجرد كلمات ولا مجرد معان و أفكار وخيال ، ورغم أنها تحتوى ذلك إلا أنها لابد أن تخضع لإيقاع وزنى ، لذلك لابد أن يكون للعمل الأدبي وحدة عضوية شأنه شأن الكائن الحي حتى تكتمل الرؤية الجمالية وتحقق غرضها.

وتقدير الجمال في العمل الأدبي ـ أن يعتمد على جانب التنظيم أو التشكيل والمعروف باسم الصورة ، هذا بالإضافة إلى اعتماده في الأساس على المضمون الذي يظل عنصراً أساسياً في الإبداع الأدبي .

وقد انقسم النقاط في هذا الشأن إلى مدرستين :

الأولى : مدرسة الشكل ، والثانية مدرسة المضمون ، أخذت كل مدرسة تتعامل مع الإبداع الأدبي وجمالياته بمقاييسها الخاصة ، فمدرسة الشكل تنقى القيمة الفنية في المضمون ، حيث يتم حصر أحكامهم في دائرة الصياغة الأدبية ، وما يتحقق عنها من جمال . ويرى أصحاب مدرسة المضمون أن الأدب كله مضمون ، وقاموا بتحديد المضمون بما يتفق مع الأخلاق ، وبما يبثه من تأثير في النفس ، وتارة بما هو صادق من الناحية الواقعية ، وتارة بما هو جميل من الناحية الطبيعية والمادية (٨).

والمسألة مرتبطة في جذورها بفلسفة إدراك الأشياء ، هل ماهية الشيء متحققة فيه أو أن الماهية فكرة منفصلة عن الشيء ؟ أو بمعنى آخر هل المدرك الحي الذي أمامنا يحمل في ذاته حقيقة كافية أم أنه يمثل ظلاً زائلاً لحقيقة منفصلة عنه وبعيدة عن كيانه؟

غير أن أرسطو يرى أن الماهية ليست فكراً منفصلاً عن الأشياء ، والحقيقة عنده كافية في المدرك الحسي الذي ينشىء بالإحساس تجاه الجمال ، ومن ثم فإن جوهر الشيء عنده لا ينفصل عن تحققه المادي ، لذلك كان عالم الشعر عند أرسطو كامناً في المظاهر الحسية ، والذين يدعون إلى الفصل بين الشكل والمضمون ، يعزلون بذلك بين الأفكار والمهايا والمدركات الحسية ، وهذا يقلل بشكل كبير من التحقق الناتج للتربية الجمالية

ثانياً : الإنسان وفلسفة التربية الجمالية :

يختلف الإحساس بالجمال من شكل إلى آخر وقد ساعد على تنوع هذا الإحساس بالنسبة للإنسان إبداع الأدب الذي أخذ في سياقه العام تنوعاً إبداعياً كان من بينها الشعر الذي يقوم بمحاولة تصحيح نظرة الإنسان إلى الكون فالشاعر العظيم هو من يبلور وحده الكون ومعنى وجوده ، حيث يلعب الجمال فيه دوراً في قبول الإنسان واعتقاده أن الأشياء التافهة والتي تبدو غير مؤثرة في حياتنا ، تبدو عظيمة وذات قيمة وأعماق متعددة .

التربية الجمالية وطبيعة الوجود البشرى :

ظل الفلاسفة يعرضون للخبرة الجمالية على ضوء تأملاتهم الميتافيزيقية ، وتأثيراتهم العميقة التي انتقلت إليهم من التراث اليوناني ، وواجهوا المشكلة الجمالية في ضوء فهمهم لطبيعة الوجود البشرى ، ولصلة الخبرة الجمالية بما عداها من خبرات بشرية أخرى ، ومن هنا فقد ظلت فلسفات الفن في القرن العشرين متأثرة بالتيارات الفكرية التي ظهرت في هذا العصر ، مطبوعة بطابع الاتجاه لمذهب كل فيلسوف من الفلاسفة على حده . لذلك كان الأدب الإنساني الناتج والذي ارتبط بطبيعة وجود الإنسان يعتمد على درجة التعادل بين المخصص والمجرد ، وبذلك استطاع الشعر من خلال جمالياته أن يجعل المخصص ، أي الجسم المحدد الذي يخلقه مساويا للمجرد، أي الإحساس الذي يهدف إلى إثارته وقد عنى أدونيس في شعره بتلك الرؤية ، فهو مؤمن أن عليه مسئولية عظيمة خاصة به : إنها المسئولية بأن يكون شاعراً بمعنى الكلمة يمتلك لغة الشعر الفاتح الجميل الذي يحمل نشاطاً فكرياً الذي يحيل عناصر الوعي إلى موضوعات ذات وجود خارجي ، ومتى ما دخل حيز اللذة الذهبي على هذا النسيج من الأشياء التي يخلقها الوعي فإنه يخلع على العالم المرئي تلك الجاذبية الدقيقة الغريبة التي نسميها الجمال [٩]

لذلك تتفاوت وظائف طبيعتنا البشرية في مدى تقديم أكثر تعزيزاً لخدمة الجاذبية الجمالية ، فنجد لذات البصر والسمع والمخيلة والذاكرة هي أكثر اللذات قدرة على التحول إلى موضوعات . لذلك أرتبط علم الجمال بعدة مفاهيم درج علماء الجمال استخدامها مثل مفهوم (التعبير) ، مفهوم (الصورة) ، ومفهوم (الحدس) ، ومفهوم (الرمزية) ، ثم ربطوا علم الجمال بمباحث أخرى مثل (علم اللغة) ، وعلم (النفس) ، وغيرها من العلوم التي تهتم ببحوث الذكاء والعبقرية والإبداع الفني ، وكل ذلك مرتبط بشكل تفاعلي مع طبيعة الوجود البشرى ، ومن هنا يأخذ الشعر سبيله إلى التأثر والإقناع عن طريق الكلمة المؤثرة التي تشكل لذة جمالية تجعل الإحساس بالجمال مرهفاً وتضفي على التفكير قدراً كبيراً من التماسك ليظل الإنسان على وعى كامل بالوحدات والأنماط الجمالية التي يحسها حيث يضفي التعبير الشعري بوحداته وأنماطه جمالاً على موضوعات لا تثير الاهتمام في ذاتها ، وقد تزيد من جمال الموضوعات التي يتحقق فيها الجمال بشكل فعلى .

علاقة الإنسان بالجمال:

تختلف علاقة الإنسان بالجمال من إنسان لأخر ، من حيث درجة السرعة التي بها يفكر ، وسرعة التجاوب وفرز الأفكار حيث يرتبط ذلك بالاستقرار الخارجي لدى المبدع ، وخصوبة التخيل ، وعمقه واتصال خيوطه .

لقد تبين أن سلوك الإنسان له جانبان : جانب متعلق بمضمون السلوك ، وجانب متعلق بشكل السلوك ، فإن يأتي السلوك ذكياً أو غبياً ، أو كئيباً أو مبتهجاً، فهذا ما يخص مضمونه ، ولكن إيقاع هذا السلوك وسرعته ورتابته ، وانتظامه كلها ما يخص شكل السلوك ، أو ما اصطلح عليه بالجانب التعبيري من السلوك ، لذلك فإن العمل الشعري يمضى وفقاً لإيقاع ذو مقاطع شبه منتظمة ،وهذا الانتظام نابع أساساً مما يحمله الشاعر في داخله من أطر عقلية ومزاجية وجمالية واجتماعية[١٠]

ويمكن تحديد الإدراك الجمالي في علاقة الإنسان به تحديداً يميز بينه وبين الإدراك العقلي (العلم) من ناحية ، وبينه وبين الخلقي من ناحية أخرى من خلال عدة مميزات لابد من توافرها في إدراك الشيء إدراكاً جمالياً :

الإدراك الجمالي قيمة ، وليس إدراكاً لواقع معين ، والمقصود بالقيمة أنه انعطاف من الذات ، وميل وجداني نحو شيء بعينه .

الإدراك الجمالي : إحساس إيجابي ، لأنه منصب على الشيء الحسن الماثل أمام الشخص المدرك .

الإدراك الجمالي مباشر ،لأنه لا يراد به أن يكون وسيلة لمنفعة آجلة .

الإدراك الجمالي : إخراج للنشوة الذاتية إخراجاً يدمجها في عناصر الشيء وكأنها جزء من طبيعته .

وهذا ما يدفع إلى القول بأننا لا نستطيع الحكم على عمل أدبي ما سواء بالرفض أو الهجوم أو القبول ما لم ندرك كنه الإحساس الجمالي الذي يثيره هذا العمل . لذلك يخضع علم الجمال أفكارنا ومعتقداتنا الأثيرة وإحساساتنا الشائعة للاختيار الصارم المستمد من الشواهد ، لكي نحدد إن كان الواقع يؤيدها ، شأنه في ذلك شأن أي علم آخر له معاييره وقوانينه الخاصة به [١١]

الأثر التربوي للجمال على الإنسان :

تأخذ التربية الجمالية في تجلياتها ، الإدراك الواعي لسماحة العقل البشرى ، حيث يقف العقل البشرى أمام الجمال بتقبل واضح يدفعه إلى قبول التعداد ، والمحافظة على سمات الفردية ، فالإنسان أمام الجمال يأخذه العقل والوجدان إلى الفرز ، والاصطفاء من خلال تذوقه ، على هذا الأساس يكون الإنسان المتذوق على قدر كاف من الابتكار ويتم ذلك من خلال احترام ذاته ، وتكشفها ، والتعرف على إمكانياتها من حيث الرؤية البصرية والتقى السمعي ، وقد أعطت التربية الجمالية من هذا المنظور قدراً كافياً من التحقق الفعلي لذاتية الفرد ، تنمو من خلال ذاته في إطار تقويمي مكوناً اتجاهاً مقبولاً لدى الآخرين .

فالتربية الجمالية تساعد الإنسان على انتشال نفسه من الخداع ، لأن الجمال تذوق واستمتاع يدفع بالإنسان إلى الارتقاء بفكره الإبداعي وبإدراكه الأشياء إدراكاً وجدانياً وعقلياً من خلال الاستجابة النافعة حيث تكون طبيعة الجمال كائنة في الإدراك الحسي الذي يصاحبه حكم نقدي ، والإدراك الحسي الممتزج بالحكم النقدي هو إدراك للقيم (١٢).

ويؤثر الحكم النقدي في تكوين الوعي الجمالي عند الإنسان ، هذا الوعي الذي تكون على مدار سنوات عمره ، ويبدو ذلك في محاولة تلقيه النص الأدبي ، فيستأنف العقل النقدي دراسة الظواهر الفنية المرتبطة بالكلمة كأداة وسيطة في التشكيل والتعبير وصولاً إلى نوعين من القيم في بداية التلقي جمالية وأساسها النشوة ، أخلاقية وأساسها التفضيل ، وهذان النوعان لا يستندان إلى العقل بداية ، والذي يأتي دوره من خلال الاستغراق في التلقي محاولا الوصول إلى الإدراك الحسي ، لأن كل إدراك حسي هو إدراك للجمال ، يتأمل العقل إدراكا لحقيقته مضافاً إليها قيمة ألبسها العقل عليه، (فالجمال يشير إلى فعل الإدراك)(١٣)

فالإنسان يجد متعة جمالية في النشاطات الخاصة بالحواس والأداء والاستدلال ، في نفس الوقت الذي يقابل فيه الإنسان نوعاً من المتعة يحس أحياناً بنوع من الألم . فهناك الألم الجسدي ، مقابل الراحة الجسدية ، والمرارة مقابل الحلاوة ، الرائحة المنفرة مقابل الروائح الممتعة المحببة ، والقبح مقابل الجمال ، الحزن والقلق في مقابل البهجة والسكينة (١٥)

وبذلك نجد أن أحكام العقل تختلف عن الأحكام الخلقية والجمالية معاً فالأولى مدارها الوقائع ، والثانية مدارها القيم التي يضيفها الإنسان إلى تلك الواقع[١٦]

والجمال يتميز بأنه إدراك لقيمة ، لا إدراك لواقع كما هو الحال في العلم بأنه إدراك إيجابي مباشر ، لا إدراك للجانب السلبي بطريق غير مباشر هي الحال في الأخلاق ، وهو إلى جانب ذلك يتضمن إخراجا للنشوة الباطنة الذاتية إلى الشيء الخارجي ليضيفها إليها ، وكأنها جزء منه [١٧]

لذلك تتحدد المتعة الجمالية من خلال الطبيعة الخاصة بالتأمل الجمالي، الذي يتم خلاله : التعليق أو الإيقاف المؤقت ،التمايز أو الانفصال العادي بين المشاهد والعمل مصدر المتعة المواجه له ، فالمشاهد والعمل الجمالي ، يكونان شيئاً واحداً ، دون أي شعور بالانفصال بين الذات والموضوع ، لذلك فإن المتعة الجمالية متعة لا موضوع لها ، إنها تنشأ من خلال تلك الوحدة الخاصة بين الشخص المتأمل/ المتلقي ، العمل المبدع ، وهذا المتعة ليست متعة من أجل موضوع معين خارج العمل ،؟ بل هي متعة موجودة داخلة [١٨]

وقد فطر الإنسان على الميل بوصفه ما يؤثر فيه ويعجبه بأنه جميل ، وعلى هذا الأساس تتعدد أنواع الجمال سواء كانت طبيعية أو إبداعية ، ورؤية الإنسان لما لم يره غيره ، كما أن الشعر يخلق لدى الإنسان موجودات أكثر جمالاً وتأثير في النفوس من موجودات العمل الواقعي ، وهذا يدفعنا إلى التأكيد أن الأعمال الإبداعية وعلى رأسها الشعر تدفعنا إلى تذوق الجمال وإلى الإحساس بالحياة الإنسانية ، بل أن كثيراً من الانفعالات التي تجرى بباطن نفوسنا قد لا نلتفت إليها لولا أن فجرتها فينا قصيدة من الشعر.

ثالثاً : التربية الجمالية والمعرفة :

تعتمد المعرفة على سلسلة من الخطوات ، يتم حدوثها في إطار مجموعة من العمليات المتميزة ، كإدراك وترميز المعلومات ، وتخزينه في الذاكرة ، لتكوين المفاهيم ، والحكم والتفكير ،وإنتاج اللغة واستدعاء المعلومات من الذاكرة وغير ذلك من العمليات، فهذه العمليات تترك آثارها في المعلومات الواردة إليها من المتدخلات الحسية ، ومن ثم في الاستجابة النهائية [١٩] . وقد أكدت الجماليات التجريبية أن الخبرة الحسية هي المصدر الأساسي للمعرفة ، ومن فقد أصبح تحديد الخصائص الطبيعية (الفيزيقية) للجمال أحد أهم النشاطات البحثية في الجماليات التجريبية [٢٠]

وتلعب اللغة دوراً أساسياً في عملية المعرفة . كما أن الغرض الأول والأساسي للغة هي المحادثة والحوار فإن الإطار التصويري الذي نشأ وتتطور تحت تأثيرها يعرف بأنه العقل أو التعقل الإستدلالى المنطقي ، واللغة هي الأداة الوحيدة التي لدينا أو نملكها للتواصل العملي والمعرفة العلمية والفكر الفلسفي [٢١]

وهذا يؤكد ميل الفلسفة إلى البحث عن مناهج جديدة مستمدة من تحليل اللغة ، ودراسة الأدب والشعر ، لذلك فقد كان أهم سمات فلسفة الجمال في السنوات الأخيرة هي اعتمادها على تحليل الخبرات النفسية ، والاعتماد على القدرات التلقائية التي تظهر آثارها في التعبير الأدبي والفني وقد دلل على تأكيد هذا الاتجاه في أوربا ظهور فلسفة (هنري برجسون) (١٨٥٩ــ ١٩٤١)،وفلسفة (بندتوكروتشه ١٨٦٦ ــ ١٩٥٢ في صدر القرن العشرين ، فكلاهما رأى أن الفن عامة والأدب خاصة ينطوي على نوع معين من المعرفة ، هي المعرفة الحدسية ، وهى المعرفة التي تصل إلى أعماق حقيقة الإنسان ، وتكشف أبعاداً لا يمكن العقل ولا المنطق العلمي أن يفيد منها وقد تعمق هذا الاتجاه بفضل روافد فلسفية لكل من نيتشه ، وهيدجر ، وشوبنهور فقد أشادوا بقوى الإنسان غير العقلية وغير النظرية ، وأكدوا قيمة الإرادة ، إرادة الحياة وإرادة القوة ، التي تبنى على المعرفة كذلك أثر الوجدان في عملية الإبداع .

وقد تبلورت هذه الروافد في الفلسفة الفينومينولوجية ، والفلسفة الوجودية حيث تم تناول عملية الإبداع القائمة على المعرفة من خلال الارتباط بالوعي الإنساني ، لأن ذلك الوعي لا يوجد منفصلاً عن الموجودات التي يتعلق بها ، كما أن الموجودات كلها لا وجود لها إلا في وعى وشعور إنساني .

كما أكدت فلسفة كروتشه على دور الخيال الإنساني في الإبداع والتذوق الفني ذلك لأن العمل الفني وأن تجسد في مادة معينة ، قيمته وجوهره في معرفة خيالية يسميها كروتشه بالحدس هي أساس الخلق والتعبير والخبرة الفنية [٢٣]. وبذلك تصبح الاستعدادات المعرفية أساساً كافياً ليتمكن الإنسان من خلالها من الاستجابة بطريقة متميزة للإحساس الجمالي .

التربية الجمالية وضرورة المعرفة:

تبدأ قدرة الإبداع الأدبي والتذوق الجمالي عن طريق الإحساسات البصرية والسمعية ولكنها لا تقتصر على التأثير الحسي وحده ، بل تخاطب الخيال والفكر ، وبقدر ما تعلو الأعمال الإبداعية في القيمة ، بقدر ما تحيا في صدور الناس ، لأن العمل الأدبي متى وجد ، فإنه لا ينتهي ، بل يعاد إلى الوجود على مدى الأجيال والحضارات المختلفة فيتجاوز المكان والزمان اللذان وجد فيهما لكي يحقق تواصل الأجيال لتحقيق المعرفة وتنميتها .

والمعرفة على نوعين حدسية ومنطقية ، يتحصل عليها عن طريق الخيال أو عن طريق الذهن ، منتجة ، إما الصور أو التصورات (مفهومات) أحد النوعين معرفة بالأشياء المفردة ، والنوع الآخر معرفة بالعلاقات بينهما وبالذهن تنتهي إلى أن"الإنسان حيوان مفكر "، وبالخيال لا تعدو أن نتصور حيوان يتسم بالقدرة على التفكير .

والحس يقوم على الوجه المقابل للانطباع والإحساس ، ومادة الخبرة العارية ، إنه شيء أكبر من الآلية، أو الطبيعية أو السلبية ، إنه التعبير النشط عن انطباعات، فالحدس نشاط تعبيري للروح التي تتذوق الجمال وتنقسم المعرفة الإنسانية إلى علم وفن ، ومهما كانت أوجه الاختلاف والتباين بين الاثنين ، وعلى أساس أنه ليس كل حدس مفهوم ، ولكن كل مفهوم حدس ، على هذا الأساس يلتقي العلم والفن ، فنحن حينما نقرأ مؤلفاً علمياً نبدأ بمحاولة فهم الأفكار أو المفاهيم الكلية بمعنى آخر .

وبعد أن نفرغ من هذا كله ننتقل إلى الشكل لنرى إلى أي حد نجح الكاتب في توصيل الحس الجمالي ، وفي التعبير عن المفاهيم بشكل جمالي ، نبدأ في فحص التنغيم ، ودرجة الاستجابة لهذا وبخاصة في الشعر حيث تؤثر الموسيقى الشعرية في درجة استجابة المتلقي .

والمعرفة ذات اتجاه جمالي ، لأنها تحمل في طياتها بناء الإنسان ، ونظرية المعرفة ليست لذاتها كونها مجرد تفكير ، ولكن التوجه الجمالي يقودنا إلى التفكير في الفكر ، إذا أن نتاج التفكير من معرفة ، بل حتى من علم سوف يكتسب معنى هاماً في نظرنا ووجود العلم والمعرفة في الروح البشرية ،هذه الحقيقة وحدها تزيد في مغزاها الفلسفي على الحقائق الأخرى سواء حول الإنسان أو الطبيعة ، والتي يكتسبها عن طريقه دراسة العلوم الطبيعية .

ومن ثم نسلم بضرورة المعرفة ، لأننا لابد أن نعرف لوجودنا التفسير والتبرير اللازمين لحركة الفكر المتناقضتين : الواقعية والمثالية ، إذ أنهما تمثلان إصرارا على التفكير في الفكر ، ثم إنهما تمثلان تقيماً متبايناً للمعرفة وهذا من شأنه التوجه إلى الإنسان الذي يستشعر الجمال فيما يفكر ويبحث .

٢- التربية الجمالية والاستجابة الإنسانية :

يستجيب الإنسان لشكل الأشياء القائمة أمام حواسه ، كما أنه يشعر بالتناسق الممتع وهو إحساس بالجمال ، كما أن أذنه تستجيب أيضا لتذوق الشعر، القصة ، الرواية عند السماع .هذا بالإضافة إلى بصره عندما يقرأ فيغلب عليه الإحساس بالجمال عندما يكون قادراً على أن يتذوق الوحدة أو التناغم بين مجموعة من العلاقات الشكلية من بين الأشياء ، التي تدركها حواسنا ، والجمال بذلك هو وحدة العلاقات الشكلية بين الأشياء التي تدركها حواسنا ، والترابط بين النص الذي يبث رؤية الإنسان له من خلال معرفة ذاتية اكتسبها الإنسان على مدار حياته فمفهوم الجمال يتمتع بمغزى تاريخي محدد فقد ظهر هذا المغزى في اليونان القديمة " وأصبح نقطة انطلاق لفلسفة معينة في الحياة ، وقد كانت تلك الفلسفة من الفلسفات التي تطلق الصفات البشرية على الله ،فقد مجدت كل القيم الإنسانية ، ولم تر في الالهه غير بشر تضخمت أحجامهم [٢٤]

لذلك فإن العنصر الدائم في البشرية الذي يتجاوب مع عنصر الشكل ، وبخاصة في الفن هو حساسية الإنسان الجمالية ، إنها الحساسية الثابتة ، أما الشيء المتغير هو الفهم الذي يقيمه الإنسان عن طريق تجريده لانطباعاته الحسية ولحياته العقلية ، حيث يحتوى هذان العنصران عنصر متغير هو التعبير . والتأمل في القصيدة الشعرية وتعرف جمالياتها تفرض علينا الوعي بمسألة " تعظيم الوعي " أي أننا لكي نتعرف على مواطن الجمال في القصيدة الشعرية علينا أن نكون على وعى بمعتقداتنا الأساسية فالقيمة الجمالية ليست مطلقة ، بل ترتبط بشخص معين في موقف معين ، كما أنها ترتبط بظرف تاريخي وثقافي محدد ، فالبشر جميعاً يمتلكون بدرجات متفاوتة إمكانية تذوق الجمال ، وأن نمو هذه الإمكانية وتنميتها مرهون بتدريب الذوق الفتى والقدرات التقيمية عن طريق الممارسة سواء في مجال الإبداع أو مجال الاستجابة ، فتدريب الذوق لا يقتصر على الأعمال الإبداعية فقط ، بل يمتد إلى كل مجالات العمل الإنساني المبدع الخلاق ،كما أن إمكانية تذوق الجمال ، وإبداعه تأخذ أصولاً بيولوجية من خلال بيئة تساعده على النمو والازدهار مثل أي إمكانية أخرى .

ويرجع هذا إلى أن النقد الحديث ينظر إلى العمل الأدبي نظرته إلى الجسم الحي ، الذي يعتمد في وجوده على العلاقات العضوية بين مختلف جزئياته مثل الشرايين والأوعية والأنسجة والأعصاب ، والخلايا ، وغيرها من الأجهزة والأعضاء التي تدخل الكائن عالم الحياة العضوية ، فالعمل الأدبي الناضج يعتمد على التفاعلات الحيوية التي تجرى بين خلاياه وشرايينه وعروقه ، بحيث يتحتم أن يكون نمو العمل الأدبي ، وتطوره مثل نمو الجسم الحي دون افتعال أو تصنع[٢٥] . وهذا بالطبع سوف يضفي على العمل الأدبي تناسقاً وتناغماً يوحى بالمتعة والجمال.

وتدخل العوامل البيولوجية في التذوق الجمالي ، فوجود درجة من الثبات النسبي من الناحية البيولوجية ، يصبح مركزاً وأساساً للقيمة في العمل الأدبي وذلك من خلال الدوافع ، فعلم الجمال يشبه بمعنى من المعاني علم الأخلاق ، فهو علم لا يخضع للقرائن والبراهين القاطعة بصورة تامة ، كما لا يمكن حصره وتحديده في مجموعة من القواعد والقوانين ، وذلك يدفعنا إلى صدق الاستجابة ، وصحتها في مرحلة ما قبل التفكير ، وهى بالضرورة استجابة لا عقلانية . وأن نسلم بأن أحكام القيمة لا يمكن شرحها وتبريرها بصورة عقلانية تامة .فقوة الجذب في التجربة الإبداعية ، هي أهم عنصر فيها ، فالغموض الذي يكتنف تجربة الإنسان وسلوكه على سبيل المثال لا يتبع اشتمالها على عناصر قليلة ، بل من تعدد عناصرها ، وتنوعها ، ومن التعدد والتنوع ، والعوامل التي تشكلهما ، وتحدد مسارهما بصورة محتومة . فالتجربة الإنسانية في الإبداع لا يمكن تبسيطها أو تلخيصها ، وهذا ما يقوى ويساعد على عملية التنمية الجمالية لدى الإنسان ، لذلك فإن استجابة الإنسان للقيم الجمالية تدفعها قيمة هي مجموعة من الاستجابات المتضافرة .

كما تساعد العوامل الأيديولوجية في خلق الاستجابة الجمالية ، فأي شكل جمالي أو نص إبداعي لا يخلو من أبعاد أيديولوجية ، إن أي إدراك فوري لنص إبداعي لا يخلو من تضمينات أيديولوجية تغيره من داخله ، فالإدراك الجمالي يتضمن بعداً إيديولوجيا فيتم إعطاء الإدراك الجمالي أشكالاً وأبنية تتصل هي ذاتها بأنماط الإدراك السائدة .

ويشكل عنصر التعليم جانباً أساسياً في عملية الإحساس بالجمال ، هو أكثر ما يكون حاضراً في عملية التواصل والأخذ والعطاء ، هذا بالإضافة للأنظمة الرمزية السائدة في المجتمع . ويساعد التعليم على جعل الأحكام الجمالية أحكاماً إيجابية ، لأنها تنطوي على إدراك ما هو خير

فالحكم في حالة إدراك الجمال ينبع بالضرورة من ذات الموضوع ، ويقوم على طبيعة التجربة المباشرة : فكل ما هو قيم حقيقية ، لابد أن تكون قيمته في ذاته ، فالشيء النافع خير لما يترتب عليه من نتائج حسنة ، تؤدى إلى الخير ، إلا أن هذه النتائج لا يمكن أن تظل طوال الوقت مجرد وسائل نافعة أو حسنة ، وإنما لابد أن تصل في نهاية الأمر إلى الخير الذي هو خير في ذاته ولذاته (٢٦).

ويعرف الخير من خلال المعرفة ، لذلك فإن الخبرة الجمالية تنطوي على بعد معرفي ، ليس بمعنى توصيل أفكار أو تصورات ، بل المعنى الذي نفهم منه المعرفة بوصفها ضرباً من التنظيم أو الصياغة لمعطيات الشعور في صورة كلية .فالمعرفة في هذه الحالة تكون معرفة بالشعور نفسه، ويكون الجانب الوجداني للعالم هو موضوع هذه المعرفة وبذلك يتحول الشعور من خلال المعرفة الجمالية (بمعنى المهارة ، والصياغة الفنية) إلى قيمة جمالية ، يتم فيها اكتساب المبادئ الفاضلة من الخير والحق والعدل والصدق وهذه الفضائل حساسية خلقية وليدة التدريب الخلقي الواعي ، ولأنها أشد فاعلية في إيجاد الخير في المجتمع من الفضائل الأخرى التي تتسم بالجهد ، فهي أكثر منها ثباتاً وأسهل انتشاراً ، إنها جوهر النبل والخير ، وهى العنصر الجمالي الذي يتطلبه الخير الخلقي (٢٧).

لذلك فإن النص الأدبي الناتج وبخاصة القصيدة الشعرية تعتمد على معرفة الشاعر الواعية تماماً بالوسائل الضرورية لتحقيق غاية جمالية معلومة تتأصل من خلال أداته المعرفية كي تحقق استجابة إنسانية قادرة على تأكيد المتعة الجمالية التي تتمثل أساساً في التوصيل الذي لا يقتصر على إيصال بعض المعاني ، لكنه يحرك الخيال عند المتذوق بحيث يدخله في تجربة سيكولوجية تعيد تنظيم إحساساته في شكل جمالي لم يسبق له التمتع به.

٣ - التربية الجمالية والوجدان الشعري والرموز:

بدأت بذور وجذور علم الجمال في تراثنا العربي في مسألة الرموز الفنية عند فلاسفة المتصوفين ، وبخاصة عند " محيى الدين بن عربي " في فتوحاته المكية، وقد اهتدى ابن عربي إلى نظام رمزي كامل ،طبق على الفكر واللغة ، ووصل من خلاله إلى كشوف فكرية وفنية كبيرة ، فقد كان يسعى للوصول إلى علم الباطن ، ليكون طريقة إلى الروح الأعظم وسر الأسرار ، الذي كان الهدف من مكابداته الصوفية وأشواقه الروحية

والرمز أحد رموز التجربة الشعرية النابعة من وجدان الشاعر وقد ارتبط هذا الوجدان ارتباطاً وثيقاً بعملية الإبداع ، ومن ثم تثرى التجربة الجمالية (رمزاً ، وإبداعاً) ، فالوجدان الشعري يرتبط بالإحساس المرهف والشعور الجاد بعمقه ويمكن أن يتم تميز الوجدان الشعري الذي يتم العملية الجمالية بعدة سمات هي في الأصل سمات جمالية تنطق من خلال الصورة الشعرية ، وما تحمله من تفجر ، وشحنات وصور ورموز وهذه السمات هي :

١ ـ صفاء النفس وتوق العاطفة والروح الإنساني الذي يحتضن الوجود بما يحتوى من كائنات ومفردات في الكون .

٢ ـ صدق الموهبة وزيادة ثقافتها ، والتمكن من الأداة الفنية مضافاً إلى ذلك التأمل الدائم في مرائي الوجود والطبيعة ، وقراءة الوجود من حولنا .

ويستدعى ذلك إلى التعامل مع العمل الشعري ، دون التقيد بصورة سابقة أو بنمط فكرى معين ، أو مذهب سياسي أو اقتصادي ، أو عقيدة من العقائد ، لأننا نتعامل مع النص الشعري برؤية جمالية ، تتطلب الدخول إلى القصيدة الشعرية بتجرد من الأفكار السابقة ، حيث يتم التعامل مع القصيدة بالمقاييس الجمالية ، وهذا لا يعنى التنكر للظروف السياسية والاقتصادية والنفسية للشاعر ، فلا شك أن هذه الظروف تؤثر تأثيراً عميقاً بصورة أو بأخرى على الأعمال الشعرية ، تشكل طابعها العام وملامحها الأساسية وتميز تقاليدها الجمالية في عصر عن عصر آخر.

ولكن هذا التأثير لا يكون بصورة مباشرة ، فقد يكون بذرة صغيرة تنمو داخل التجربة الشعرية ، وتحول مسارها وجهات متعددة، وقد يكون هذا التحول ملائما لطبيعة هذه الظروف ، وقد يكون على النقيض منها ، وقد يكون مزيجاً مركباً من هذين النقيضين . المهم أن الشعر عندما يصيغ تجربته الشعرية، لا يصوغها من جزئيات العالم الخارجي بطريقة مباشرة ولكنها تتحول بجزئيتها ، وعناصرها داخل جهاز إبداعه الشعري صورة جمالية ، هذه التحولات المركبة المعقدة ، ثم يزداد عن تعقيدها بما يحيط بها من عناصر الإبداع الأخرى غير المنظورة ، والتي ترجع إلى طاقة الشاعر وموهبته . بذلك فإن التعامل مع النص الشعري لكشف رموزه ومحاورته ، وتذوقه بهدف الوصول ، إلى كيفية إتمام عملية التربية الجمالية والكشف عنها ، يتطلب طرح الأفكار السابقة ، والدخول مباشرة إلى الكشف عما في القصيدة من توجه تربوي جمالي حيث يعطينا وجدان الشاعر آلية الوصول إلى كل القيم الفكرية والجمالية ، وقد تكون هده القيم من عالم السياسة أو عالم الاجتماع ، أومن طبيعة النفس البشرية

ولذلك سوف يتم التعامل مع شعر أدونيس من خلال تلك الرؤية ،لأن الوجدان الشعري يجمع في إطار واحد بين كل جوهر متعددات ، ولكنها تتفاعل وتتوحد ، وتتحول إلى معيار واحد ، هو الوجدان الشعري الذي يتيح عملية الجمال.

ويمتلك أدونيس القدرة على رسم قصيدته كلوحة جمالية تقتحم وجدان المتلقي ، فأدواته التي يبنى بها قصيدته : هي الحروف والألفاظ ، والمقاطع ، والشاعر الذي يمتلك هذه القدرة يستطيع أن يشكل قصيدته في إطار الجمال مخاطبا العقل والوجدان منتمياً للذات البشرية من خلال تتابع الحروف ، وانتقاء الألفاظ والمقاطع يستطيع أن يحدث ظلالاً وفراغات ، ومساحات جمالية ، مفجرا فيها ضوء الدهشة والإعجاب والاستمتاع باللذة التي تستحوذ على مشاعره . فأدونيس له قدرة ذلك بالإضافة إلى أنه يستحوذ من خلال أدواته على مساحة القصيدة فيدرك مفهوم توازنها والتباين والتدرج والإيقاع ، التماثل في الإطار العام الذي يشكل فيه القصيدة ، بذلك تتحول هذه القصيدة إلى لوحة جمالية قادرة على النفاذ إلى مشاعر الفرد ، مقتحمة للوجدان منمية القدرة على التذوق .

المبحث الثالث : قيم التربية الجمالية في شعر أدونيس

أولاً : الجمال وقيمة الحياة:

ينتج النص الشعري ظواهر شعورية ، وهو أمر ضروري في عملية الإنتاج الشعري ، لذلك كان على كل استطيقا جادة أن تأخذ في الحسبان جذور المشاعر والإدراكات الحسية تبدو مزودة بشحنات وجدانية وتميل إلى أن تتأسس وفقاً لعلاقات الشعور ، والخبرة الشعرية تكون مكونة تفاعلات الشعور ، لذلك فأدونيس في شعره لا يغفل هذا الجانب لأن الشعور يؤدى دوراً مهماً في العملية الجمالية . وهذا لا يمنع التواصل مع العنصر المعرفي .

كما أن في الدراسات التأويلية أن المعنى ليس صورة للحس المباشر وإن تفاوت مستوى الحضور لأحدهما في اللغات الاصطلاحية ، أو الاصطناعية فليست اللغة إظهاراً للمحسوس بواسطة التجريبي وإنما هي الظهور بذاتها وفي ذاتها، إن اللغة الاصطناعية انزياحاً عن لغة الاستعمال ، فإن لغة الشعر هي الصدى المتقادم يحمل آثار المعنى المبدئي ، قبل أن يستمد وهم الحقيقة بالحقيقة ، والعقل الأول بالعقل الأول [٢٨]

فما يدعم وهم انزياح لغة الشعر عن لغة الاستعمال ، وهو التداخل بين اللغة والشعور فالشعور قوة كامنة في الذات ، ترفع اللغة إلى الشعور مما يعطى الذهن اللغوي ، والخيال الشعري على وجه الخصوص صورة جمالية ، تحمل اقتداراً على تركيب الجمل وتوليد المعنى أو المعاني تاركة خلفها البعد الواحد في استقراء المعنى الشعري مما يؤدى إلى انطلاق الأفق المعرفي ليكون ذلك بعداً جمالياً متعدد المعاني لوجود النص الذي يفتح آفاقاً تتعدد منها :

١ ــ الدلالة الشعرية كباعث جمالي كوجود يظهر في بداية التعامل مع علاقات الدوال بالمعنى .

٢ ــ الدلالة الشعرية كباعث جمالي : " عدم " كونها مسكونة باللامعقول الذي يظهر بعضه ، ويختفي الأخر .

٣ ــ الدلالة الشعرية كباعث جمالي: " موجود " كونها ترتبط بضمير ينكشف ويحتجب في اللحظة ذاتها .

١ ـ التأمل الجمالي في عالم الحياة اليومية :

الدال الشعري باعث الجمال " موجود " بدءاً بالانكشاف ، أي بما يظهر بما يعبر عنه في اللحظة ذاتها ، وهو عدم لأنه يكسب النص الشعري طابع الانفتاح الدائم على زمن أو أزمنة قادمة ، وهو مشروط بالوجود الأول ، وهو موجود لأنه مرتبط بتواصله مع الوجود والعدم الشعريان ، الظهور والاحتجاب تلك هي الدلالة الشعرية باعثة الجمال عند أدونيس ، وجود ، عدم ، موجود ، وبذلك يمكن تجاوز العادة ، أو استقدام بعضاً من الوهج الجمالي للغة الأولى ، المعنى المبدئي الذي يحيلنا فيما بعد إلى استغراق جمالي لعمل شعري يفيض بالسحر في تأمل جمالي منفتح على ذاته في صلة غير منقطعة مع عالم الحياة اليومية يقول أدونيس . (٢٩)

كيف أعطيك شكلاً

أيهذا الصديق الذي لا يزال يعاند ؟ سميتك الشيء قلت :

امتلكت. لكنك الآن تنفر ، ، واسمك ينفر

ماذا أسميك ؟

هذا مكانك

غيرت نورك أم أنني

لست نفسي ؟ أنا أنت ؟

لكن ضوءك مازال يستطع ــ كاد الحريق

أن يجوس عروقي ملتهماً كلماتي ــ مهلاً

أين أنى ، وكيف أسميك ، أعطيك شكلاً

أيهذا الصديق .

فقد ارتكزت النزعة الجمالية في الأبيات السابقة على دلالة الثالوث ، الوجود، العدم ، الموجود ، فهي الوجود يبدأ بالتسمية (الشيء) ، وهى العدم حيثما يصطدم فعل التسمية بالاستحالة التي هي الموجود (أنا ــ القصيدة المتكلم الشاهد على المساءلة والوجود والعدم في اللحظة ذاتها .

٢ - الشعر يخلق موجودات جميلة:

يخلق النص الشعري موجودات أشد جمالاً وتأثيراً في النفوس من موجودات العالم الواقعي ، تدفعنا هذه الموجودات إلى تذوق الجمال وإلى الإحساس بالحياة الإنسانية يقول [٣٠]

أحبك حتى كأن القلوب مرايا لقلبي

وحتى كأن الحياة ابتكار لحبي

وتتسم النزعة الجمالية هنا بتعدد الرؤية من خلال مرايا منبثقة من القلب في تضاعف وتكرار في القلوب الأخرى ، حيث تغدو الحياة إحدى ابتكارات حبه أو صورة منعكسة عن وجده .

٣ ـ تربية التحول إلى الجميل :

تتحول الأشياء عند أدونيس إلى شيء جميل متوحد يتذوقه الإنسان في لوحة في القصيدة حيث يصير هو والمرآة اثنين في واحد من خلال هذا التماهى يقول: [٣١]

سرت أنا المرآة

عكست كل شيء

غيرت في نارك طقس الماء والنبات

هذا التوحد بمثابة نزع نقاب الألفة عن العالم ، حيث يقدم أدونيس الجمال الناعس الطرف الذي هو روح وصورة ، وسواء كان ينشر ستاره الرمزي أم يزيح النقاب الأسود للحياة عند النظر إلى الموجودات فهو يخلق وجوداً داخل وجودنا ، ويضطرنا إلى أن نشعر بما ندرك .

ثانياً : الجمال وقيمة الوغى :

١ ــ الجمال وقصدية الوعي :

وأدونيس لا يكتب للفاعلية ،إنما يكتب عن قصد للوعي ، هذا الوعي الذي يبرز الجمال ويوضحه من خلال لغته وأسلوبه، فهما قوتان عنده (أما الكتابة ففعل تضامن تاريخي اللغة والأسلوب شيئان : أما الكتابة فوظيفة ، إنها العلاقة بين الإبداع والمجتمع ، أنها اللغة الأدبية التي تحولت بفعل توجهها إلى المجتمع إنها الشكل الذي يرتبط بأزمات التاريخ الكبرى [٣٢]

لذلك يأخذ التوجه الجمالي عند أدونيس لغة التنامي بين الأفعال والاتصال المترتب عليها حيث يتم توصيف الأشياء ، فالذات هي الغد الأتي ، والاعتراف بالتفرد سيظل قائما ، حيث يصبح الفرد أمة يقود خلفه من يستطيع .

وفي ذلك فإننا نجد مركز التنظيم الجمالي يقوم :

فعل الحركة (المشي) سائراً نحو مستوى العلاقة بين الأفعال والتفاعل بين الأفراد في الخبرة الواقعية ، وهذه الخبرة هي :العملية الإدراكية الجوهرية التي يتحقق فيها التذوق الجمالي ، فيتجاوز المتذوق كل صور التمايز والفروق في الزمان والمكان والسياق حيث يقول : [٣٣]

أمشى إلى ذاتي

إلى الغد الآتي

أمشى وتمشى خلفي الأنجم

عين الأرض تاهت فغيري الأشياء

٢- الجمال وخلق الوعي:

الإنسان الذي يفتقد الوعي يكون مغيباً ، ويصفه أدونيس في هيئة إنسان يقوم بحركاته الاعتيادية من دون أن يكون مالكاً فعلاً لها ، أو موجها لها ، كما لو أن جسده تحركه قوى أخرى غير قواه المغيبة ، فأدونيس يكشف بوضوح على حقيقة هذا الإنسان المغيب من خلال الاستفهام الذي يتبعه بضامن جمال (فيا خالق الكون أبدع سواه ، فيكون الجمال هو الضامن لإمكانية توافق النفس مع الطبيعة يقول [٣٥] :

يسير وليست له قدماه

ويصغى وليست له أذناه

تغرب عن حاله ... فالزمان سديم على وجهه

واشتباه

لمن يا خليقة تلك الحياة ، وتلك الشفاه ؟

أليس لها صورة وشكل ... أليس لها طينة وإله ؟

تحجر إنساننا وتشيا .. فيا خالق الكون أبدع سواه

٣ ــ الجمال وتناوب الوعي بين الأنا والنحن :

يطرح أدونيس الذات الكاتبة نفسها " رمزاً" مفتوحاً على فضاء الإنساني ، أي رمزاً للذات الإنسانية في معناه المطلق ، حيث يتكرر تناوب الوعي بين الأنا والنحن ، بين الوعي الفردي والجماعي على وجه ضمني حنياً ، وعبر توظيف الضمائر حنياً آخر ، مما يؤكد الطابع الضمني لدلالة التجربة الإنسانية في معناها المطلق ، وليس في معناها الشخصي للذات الكاتبة ، فاللج الذي يقترح الشاعر اقتحامه في الأبيات التالية ، والاسترسال في خوضه ، هو لج الفكر والمعرفة الذي ينبغي إلى أن يكون غاية الإنسان ووسيلته في آن ، هذا بالإضافة إلى أن إعلان الذات القائلة بضمير المتكلم " أنا الوقت تخلع عنها صفة المحدودية ، وتمنحها صفة الإطلاق ، أي الذات الإنسانية عبر امتداد الزمن فيقول. [٣٦]

وأنا الوقت

انتظرت السمش في مخدع

جواب ، أنا الصارخ : هذا الكون موج

وأنا البحر ، واللج الذي اقتحم الآن

وأسترسل في أحشائه السكري رهان

فنلاحظ علو المخيلة فوق المكان ، فتجاوز المخيلة الزمن ، حيث ينهض الرمز بالشعر في صورة جمالية مشوقة باعثة على الحركة والتواصل ، وينهض الشعر بالفكر ، وتشحن القصيدة وعى القارئ بالتمتع والمقاومة ، تجاه تناقضات العالم ، ذلك ما يسوغ لزمن النص أو يبعث الحياة في الزمن الموضوعي الفارق في الركود الميت ، وما يسوغ للشعر أن يعيد للمكان حركة الجوهر التي فقدها .

ثالثاً : الجمال وقيمة المقاومة :

١ - الجمال لقهر زمن الموت :

المتلقي في ممارسة عملية الإدراك يجب أن تكون لديه القدرة على أن يكون مبدعاً من نوع ما ، ويختص بالتجربة الحياتية اليومية ليستفيد مما تقدمه ، كما يمكن القول إنه في الحياة اليومية يختفي الخط بين الجمالي والعمل الأدبي (النص) إذ يقدم النص في هذا المعنى من خلال وسائل جمالية ،وسائل للتفاعل الجمالي من السياقات الاجتماعية المختلفة والمتفاوتة ، هذا الدور المتغير للمتلقي في عملية التلقي هو تعبير عن دور النص في التأثير . فأدونيس يعتمد على رؤيا شعرية متجددة من أجل الكشف عن عالم بحاجة إلى الكشف ، فهو يقود ثورة التحول باسم الشعر، وباسم التغيير من أجل مستقبل خصب جميل ، ومضيء ، وهذه الثورة التحويلية ، ما هي إلا محاولة لقهر زمن الموت الذي لا يزال يقهر الإنسان ويحرمه متعة الحياة وجمال ما فيها ، يقول [٣٧] :

اللحظات موج الوقت

وكل جسد شاطئ

الزمن ريح

تهب من جهة الموت

فمعاناة الشاعر أمام زمن الموت الخالي من الجمال ، دفعته إلى البحث عن زمن جديد ، لا تشيخ فيه الكلمات ولا تشيخ فيه الكائنات ولا تموت ، حيث تلبس الأشياء ثوباً لا يبلى ، وحيث تتوالى فصول الحب والنماء لتنشر الجمال في كل الأنحاء ، هو زمن التحول ، زمن الانفلات من ضربات الحزن ، فيصير الفرح سيد اللحظات الجميلة ويصير الحب سلطان الزمان الذي لا يغيب.

٢ ــ الجمال لقهر الوحدة :

يتجه سحر المعنى عند أدونيس مصاحباً الأفق الشعري إلى أفق جمالي يحسه الشاعر مجموعة من المتناقضات في الشكل ، لكنها تتوافق في هدفها الأخير.

العزلة على سبيل المثال تستدعى المشاركة ، وهى عند أدونيس مشاركة خيالية مع أصدقائه الشعراء ، أو مع أنوثة هي بنت الوهم أي (الصبوة النرجسية) حتى لكأن المشاركة عديله العزلة الحقيقية ، لأنها لا تحرص على الشوق ، أما العزلة الشعرية فترتبط بالمشاركة مع الآخرين ، تأسيساً على جدلية المستنفد والبعيد الزاخر بالإمكانات فيقول [٣٨]

كنت أنام وحيداً

خوفاً من أن تهجرني الوحدة

٣ - الجمال وجدلية الموت - القريب من المعرفة والحب البعيد :

يؤمن أدونيس بجدلية الموت ــ القريب من المعرفة والحب البعيد عنها ، إذ الموت حالة نفسية ، وليست حقيقة بيولوجية ، أما الحب فلأنه التصاق جسدي يتحول إلى حب بعيد عن معنى الهوة التي تمنع الاتحاد بين الحبيبين يقول:

الموت قريب

لأنه فكرة لا جسد

والحب بعيد

لأنه جسد لا فكرة

ولأدونيس معرفة أشبه بالسحر ، فالجمال الأصيل عنده هو ما نتج عن معرفة بالحق وأرشد إلى الخير ، والموت حق (وبذلك فإن معرفة الحق لا يمكن إلا أن تكون السبيل إلى تحقيق الخير) [٣٩]

رابعاً : الجمال والتجدد:

١ - الجمال والحلم التحريضي :

ومن متناقضات أدونيس المتصالحة ، اعتبار الحلم لا ينتهي ، ولا يستقر مع في ذلك من مشقة . على أن عظمة الحلم تكمن في لا نهائيته ، في حركته لا في سكونه فهو محرض الحياة، وطبيعي لا ينتهي، وإلا انتهت الحياة ، وهو باستخدامه متناقضات اللغة ، لا يقف عند حد الإقناع العقلي ، وإنما يصل إلى إثارة العواطف بما تقدمه للحواس من تذوق جمالي ، فالحلم شاطئ لا ينتهي في انتظار سفينة تأبى الرسو ، ومع ذلك يظل الحلم قائما سرمدياً يقول (٤٠)

الحلم شاطئ

لسفينة لا ترسى

مع ذلك انتمى للحلم

هذا الانتظار الحالم تجدد دائم في انتظار الآتي الأجمل في المستقبل القريب .

٢ - الجمال والماضي الحي المتجدد:

يتخذ التعبير الجمالي عند أدونيس شكلاً تقابلياً بين ما كان عليه الزمن الأول الجميل وما هو عليه الحاضر من مهانة ، على أن المستقبل أو الغد وتحيرها إلى ما كان ، هكذا يصبح الزمان القديم عنصراً جمالياً كائناً حيوياً ، له عروق وجذور ومودعة فيه منابع خير وأساطير يقول (٤١)

في عروق الزمان منبع خير

عب ألوان كبره من علاها

وعلى جبه الأساطير ثمار

لملمته أكفه من رباها

ونأخذ النزعة الجمالية لديه حداً عالياً ، إذ يكفي فعل التسمية نفسه كي يتم تواجد الأشياء ، وتحقق النشوة الجمالية يقول [٤٢]

إذا قلت يا سوريا

لفني الجمال

ولف مع الأعصرا

وأفرغت هذا الوجود بطلاً

لفني ، وهذا المدى منظراً

٣ - الجمال واكتشاف لحظة الخلق المتجدد :

لما كانت غاية الشعر الدخول إلى الأعماق ، ومحاورة الروح ، لنستعيد ذكريات وانفعالات مرتبطة بنا ، نأخذ أشكالاً جمالية في الذاكرة ، أوفي التصور ، أوفي التذوق ، فالكتابة تمتلك قدرة التحول ، والتحويل السحرية لأنها تدفع بالجدل بين عالم الظواهر وعالم الأعماق إلى أقصاه كي يتأصل الوصل ، فتلتقي الذات بالطبيعة في طهرها ، وصفائها ، لهذا يفجر عالم الظواهر ، وينفذ إلى بواطنه، كما يلغى هذا الطقس الانقلابي الزوج : حس / غيب ، ظاهر / باطن /معلوم / مجهول.. لقد تم اكتشاف لحظة الخلق المتجدد ، وقدسية النور الأزلي ومن ثم أصبح الموت عتبة الحياة العذرية ، والفناء باب البقاء الأسمى في (الجنة البديلة) ، وهذا الحال يوقظ في النفس انطباعات جميلة لتبدأ رغبة الاستمتاع الحسي بروعة الجمال يقول :

ذاهب ..

وما أعقبها من لحظات انتشاء واستمتاع:

أتفياً ...

تلاها ابتهاج الوصل واللقاء

وانتهاء بالغناء والتوحد الكائنات

ألبس

هذا التدرج التصاعدي في حركات الطوق الشعرية ، تحاكي بشكل جلي المقامات الكشفية في مسار المعرفة القلبية ، والذوقية ، لذلك نطالع انجذابا نحو الكمال ، يهدف إلى التحكم في حركة الزمن ، ودورته التعاقبية الليل والنهار ، أملاً في قلب صفاتهما ضوء النهار / ظلمة الليل ، وصولاً لنور اليقين.

خامساً : الجمال والمستقبل :

١ - الجمال والتجدد باتجاه المستقبل :

يقوم التذوق الجمالي عند أدونيس على حركة إنسانية متطورة متجهة نحو المستقبل النافع ، تأخذ من الماضي ما هو حي ، وتسقط كل ميت فيه ، حيث يربط الحي في التراث بالمستقبل من خلال حركة الانبثاق والارتداد في لحظة شعورية واحدة ، وهذا ما يجعله ينجلي عن شيء رديء ويتبنى شيئاً نافعاً جديداً أكثر نفعاً. فموضوعات الحياة عنده تخضع للاهتمامات الجمالية والنفعية التي تحدد معنى القيمة الثقافية الإنسانية ، فقيمة الثقافة بوجه عام ، تراثية كانت أم معاصرة ، كامنة في حاجة المجتمع لها بالتجدد والغد الأجمل الذي كلما ابتعد زاد اقترابه ، فالنهوض من السقوط أمر ضروري وحيوي ، وهو تجدد دائم مثل طائر الفنيق الذي يتوالد من رماده بعد احتراقه فنيق آخر يقول [٤٣]

سيدتي أنا اسمي التجدد

أنا اسمي الغد

الغد الذي يقترب - الغد الذي يبتعد

في مهجتي حريقة ذبيحة

فنيق سر مهجتي

وحد بي ، وباسمه عرفت شكل حاضري

وباسمه أعيش نار حاضري

٢ - الجمال وحركة الأحياء :

وتأخذ التربية الجمالية عند أدونيس حركة التجدد الدائم ، فتتم من خلال عملية الأحياء ، والتي يكون الماء عنصراً رئيسياً حيث التجدد الدائم ، ويتم ذلك وفق حركتين متناقضين ، ومتكاملتين في أن تتمثلان في : حركة نازلة تحفر في الباطن ، حركة صاعدة علائية ، وفي رحلة الصعود والهبوط ، تكتمل تفاصيل السحر الجمالي ، يرفع إطارها ما هو متحول إلى مرتبة السامي الفاتن فتكون مملكته وجه الماء أصل الحياة والتجدد والنماء ، فالماء يحول الحب إلى نماء وخصب ، ويصبح الامتلاك مقرونا بالغياب ، مادام مقام المشاهدة في تحقق ، فكانت الدهشة فتساوى القرب والبعد (٤٤)

٣ - الجمال وانبعاث الحياة الجديدة :

يكثف أدونيس لغة لاستعارة تعمداً لإظهار الدهشة الجمالية من افتراض متعدد للأعماق والأبعاد والمسافات ، هو ما يؤسس خاصين الاشتباه والالتباس ، وليس التشابه فإذا كانت الاستعارة العمودية قائمة على مبدأ المقاومة في التشبيه ، فإن الاستعارة هنا تأكيد على عنصر الجمال ، قائمة على مبدأ آخر ينزع نحو الخرق للمعقول والمعلوم إذ أظهرت نوعاً من الشبه ، فلا يعدو أن يكون مجرد وهم ، وهو ما قد يعنى أن التاريخ هو استعارة الوهم . لذلك يكون دور الشاعر هو السفر في تيه الوجود لتعرية مكر التاريخ ورؤية تحولات جوهرية بما هي انبعاث لحياة جديدة ، وتناسل لتواريخ أخرى يقول (٤٥)

ماذا تفعل يا هذا الشاعر

في هذا البلد البائر؟

أشهد فيه

تكوين بلاد أخرى

في هذا التاريخ الميت ؟

ميلاداً آخر

لتواريخ أخرى

سادساً : الجمال وقيمة الانتماء :

١ - الجمال والانتماء للبيت والأرض :

يتناول أدونيس غربة الأرض ، كونها غربة المتكلم أساساً : غربته التي تعنى شوقه إلى تحقيق عالم أثيري هو عالمه ، وتعنى استعجاله الثوري كذلك إذ يبدو كل تأخر عن انجاز الحلم تمجيداً للزمن ، ويبدو تنكب كل إنسان عن المشاركة في الحلم تعطيلاً لقواه الإنسانية في الغربة ، تعنى وحدة المتكلم ، ووحشته بعيداً عن البيت الذي يبحث عنه يقول [٤٥]

في أمتي في أرضى الحيرى

في هذه العالم المطفأة

كأنني من ألف عام أدور

أحيا وحيداً تحت سقف العصور

أستنطق الغيرا

أبحث عن بيت وعن مدفأة

وأدونيس بناء على إستراتيجية التيه السابقة يخطو باتجاه الجمالي ، باختراق نواة التاريخ ، ليكون شاهداً على تكوين الأشياء وحدوث الولادات ، ولولا التيه لما كان هناك تاريخ ، ومعنى ذلك أن الوجود يتيه بالموجود ولا يعرض الموجود ألا في التيه .

٢ - جماليات الانتماء :

وتأخذ جماليات الانتماء في شعر أدونيس طابعاً عربياً خالصاً ، فالعالم العربي يعيش عصبية وتمزقات ، دعاوى فارغة تسطر التاريخ ، وتجعله نقياً طاهراً خالصاً من الإثم ، وبدلاً من قذف الاتهامات واللعنات ، كأن اللعنة تكفي لتمويه الحقيقة وحجبها ، والتخلص مما تفرضه ، وكأنها تخلع عن كواهلنا العبء المرهق (مأساوية التاريخ) : عبء مواجهة الحقيقة ،وإدراك التمزقات ، والتناقضات والنفي الداخلي لشرائح كاملة ، مما ينتمون بعمق إلى ثقافة الفهم والتنوير ، بإقصائهم وحصرهم في خانة (الأعداء الحاقدين ، الناقمين) والتوهم بذلك بأننا نطهر التاريخ من شوائب تعلق به ، وتحتفظ له بوحدانيته ، وصفائه ، وأمجاده المستوهمات

وفي ذلك كله يؤكد أودنيس انتماءه إلى هذه الثقافة المحاصرة ، هذا الانتماء العميق حيث يمدنا ببعض الانفعالات من أجل العمل على تذوقها والاستمتاع بها فيمدنا ببعض الشحنات الوجدانية ، وذلك وصولاً إلى استخلاص معانيها ودلالاتها فيقول [٤٦]

آينى أنني منهم ـ بشر مثلهم

ولكنني

أستضئ بما يتخطى الضياء

آيتى أنهم

يقرأون الحروف ، وأقرأ ما في الخفاء

٣ -الجمال والتخيل (علاقة الكائنات والأشياء) :

تتسم التربية الجمالية عند أدونيس بنظرة تسعى باستمرار إلى كشف علاقات جديدة بين الكائنات والأشياء ، تجمعها ملامح انتمائية تتصاعد في حسها الجمالي لأن مدار التربية الجمالية هي مسألة المعنى ، الذي يتسم بالفيض الجمالي الذي من شأن العالم أن يحمله ، فهو قائم في نشاط الذات التي تبنيه من خلال أسئلتها ومقارباتها المتتالية فأدونيس يجمع أفكاراً ومفاهيم متباعدة أو متقابلة في العادة ، قائمة على مبدأ التناقض ، ويبين هذا الطابع أن الإحساس الجمالي في النص يكون له شكل المعرفة المتشظية شبيهة بما في النص العلمي أو الفلسفي إلا أنها هنا تجمع سياقاً يتجاوز مستوى التجربة الحسية إلى خلق وجود مشترك للألفاظ المتضادة هي شرط التناول المعرفي ، وهى بذلك عندما يتم تذوق الجمال ، فإنها تأخذ شكل نهج استنباطي من خلال التحديد الدقيق للنتائج المنطقية .

وتزداد فاعلية الجمال في شعر أدونيس ، لاتسامه بسمات عملية تخيلية من النمط الذي أسماه عبد القاهر الجرجاني (التعليل التخيلي) وهو يقوم على مواهمة وخداع النفس لأنه يسعى إلى تسويغ مقولة لا تبدو منطقية بالمقايسة إلى معطى من المعطيات الطبيعية ، تقبله النفس فتؤدى المقايسة إلى نمط من البرهنة على سلامة المقولة ، بذلك أصبح هذا النمط من التخيل سمة جمالية ، وفيه قدر من البراعة والشفافية ، والتكرار ليس تكرار فعليا ، بل يتضمن تنويعاً ومغايرة مرهفين برسم جمالي شائق حيث يقول [٤٧]

علمته المحيطات إيقاع أمواجها

علمته الصحارى رسوم الرمال وأشكالها

لم يحسوا بأسرارها وأسراره

لم يحسوا الفروقات في نبضه – وقالوا

تتكرر ألفاظه ، مثلما تتكرر أيامه.

ضحكت وردة تتقلب في العطر أوراقها

سابعاً : الجمال وقيمة اللغة :

١ - الجمال وكينونة اللغة :

نأخذ اللغة عند أدونيس شكلا جمالياً مخترقا المألوف عنده لا ترضى كما يفعل الآخرون أن يكون مجرد صور بلاغية أو علامات بيانية أو إسقاطات لاواعية على الحوادث والأماكن والأشخاص بل تنشد أن تتحول إلى كينونات ذاتية مبدعة للجمال ، تشد الوجود والتاريخ والإنسان إليها ، من خلال امتداداتها اللفظية ، ودلالاتها السيميائية ، ورموزها الكثيرة ، وطبقاتها ، وسطوحها المستترة في النص ، عبر هذت اللغة نلاحظ أن الأشياء والزمان والمكان تتحاكى بطريقة بصرية شخصية فيها الكثير من الجمال والحميمة والدفء يقول [٤٨]

هذه الليلة لن أرجع للبيت ، كما اعتدت

سأبقى ساهراً

اسمر مع قافلة الأنجم

أمشى سادراً بين الشجر

وأرى كيف ينام الليل محمولاً على ضوء القمر

٢ - الجمال ولغة الصمت :

يقدم أدونيس في شعره ، معاني رفيعة المستوى دون أن تحكى ، يقول لنا الحكاية بلغة نوعية جمالية تلفها لغة الصمت لنخلق بذلك موضوعاً جمالياً ، فالموضوع الجمالي موضوع مبدع أو مخلوق ، والإبداع الذي يبدعه الشاعر في نظره هو المقابل ، أو المعادل الموضوعي للعاطفة أو الانفعال أو صمت الفكرة ، أو الحدس فيصبح بذلك تجسيد ماديا ، وتحقيقاً ملموساً لحالة من خلال الصمت التي تشملها حالات الشعور النفسي المتعددة ، يقول [٤٩]

اتركوه لتهيامه

يقرأ الغيب في وردة

ويقول الكلام الذي ليس من كلام

٣ - الجمال ولغة الرمز :

يمتلك الرمز عند أودونيس طاقة حركية عالية تؤهله لذرع حقول المعنى الجمالي المنتشرة ما بين المحاور والأطراف مع بقائه محافظاً على وحدته وتماسكه في آن ، بل أنه قد يعزز دلالة ضدية تعصف بسياق القصيدة خارج ما يعلن عنه النص ، فأدونيس في تربيته الجمالية في شعره يؤكد الماء أصل الحياة : مطراً ، غيما، سحابة بوصفه رمز الحياة الكونية ، فالماء رمز النمو والتواصل الخلاق يقول:[٥٠]

سفن الحلم تجرى على متن هذا الهواء

حاملات الأغاني لري الفضاء

فحلم الشاعر هنل أشبه بسحائب كمثل سفن تجرى لري الفضاء ، بل تلبس هذه السحائب بحالة النهر . فالنهر يجرى يتحرك ، يغير مجراه ، يجهل من أين يأتي ، إلى أين يجرى ، وحلم الشاعر يجرى يمخر الهواء لري الفضاء .

ولغة الرمز عند أدونيس تؤسس لحركة جمالية مكثفة داخل النص ، والتي تؤهله لمد العلاقات إلى العناصر المتهافتة في الواقع المعيش ، لا يقوم بعملية الهدم لبناء النتائج أو الحكمة أو الحلول ، بل يكتفي عمله بالتشويش على الوعي الجماعي السائد ، وما يلازم هذا الوعي من قصور ، أو غفلة عن جديد التطور الحضاري للمسيرة الإنسانية

فالبحر في جوهره بوصفه واحد من أهم العناصر المكونة للوجود كونه منبعاً للإبداع والجمال ، يستمد استمراريته من حركة الموج لا من سكون الشواطئ فإذا أفرغ ماؤه من حركة الموج ، فقد حركة الجوهر ، فقد ديمومته وقدرته على الدفق الأبدي للحياة فالموجة ترتفع وتعلو كي تنظر إلي الكون من عل وتدعوه في الوقت ذاته كي ينظر إليها.

وفطرة البحر في انتماء حضوره للحركة لا السكون ، تصبح ذاتها فطرة الشعر الذي يشع جمالاً ، وانطلاقا من صدور قيمة النتاج الشعري عما يتضمنه من خصوصية جمالية ومعرفية ، وفنية في آن ، فإن الإبداع والجمال والمعرفة يحققون الاستمرارية بتجاوز الزمن والعرض بما يحققونه من التحرك نحو التجدد الذي يمليه التوجه الجمالي والتطور المعرفي والإبداعي عبر الزمن يقول [٥٢]

الكتابة هي لحبرك موج الترحل

واهمس لشطانه

أن تظل بلا مرفأ

ثامنا : الجمال وقيمة التنوير :

١ - الجمال و الإيديولوجية :

تصل الرؤية الجمالية في شعر أدونيس إلى الإنسان المؤدلج ، فمثلاً إرادة السيطرة تكون باسم فكرة ما ، دينية أو علمانية ، لا فرق ، الكلمات وسحرها الجمالي تكون رمزا للفكر ، بغض النظر عن محتواه المحدد ، والكلام من الأشياء ، على كل ما في عالم الجماد ، وعالم الأحياء ، عالم الطبيعة ،وعالم الإنسان ، فنجد الشكل المقابل للإدراك لأنه لا يوجد قيم جمالية مسبقة ، لكن أدونيس يجسد هذه القيم في قصائده ، فيؤكد على ضرب من التناغم تشع من خلال هذه القيم وفي ضوء هذا التأويل يصبح الفكر بالضرورة هو فكر فرد ما أو جماعة ما.

ومن هنا فإن إرادة القوة لا تعمل من خلال الفكر بوصفه فكراً ،بل من خلال الإنسان الذي يحمل هذا الفكر ، فالإنسان الذي يعمل بمقتضى إرادة السيطرة على الطبيعة ، أو على أخيه الإنسان ، إنما يفعل ذلك باسم فكرة أو عقيدة ما ، إنه الإنسان المؤدلج يقول:(٥٣)

حقاً بعض الأفكار كمثل نبات وحشي

يأكل لكن لا يأكل إلا بشراً

٢ - الجمال واليقينية :

هذا الإنسان المؤدلج هو إنسان اليقين والثبات الذي لا يجد الالتباس أو الشك منفذاً إلى قوقعته الإيديولوجية ، إنسان الوضوح الذي ينظر للتاريخ نظرة معاكسة لنظرة الشاعر ، والتاريخ ذو معنى له ، ويسير لا محالة نحو المستقبل الموعود ، ولذلك فهو إنسان التفاؤل الذي لا يتردد عن القول (٥٤)

إنها آية

عرب طالعون من الرمل

سيبدون كسرى ، ويمتلكون الفضاء

وإذا كان هذا الإنسان ابستمولوجيا أسيروهم اليقين ، فإنه ميتافيزيقيي أسير الغائية . لذلك لا يتورع عن أن ينظر إلى نتائج عمله بمقتضى أرادة القوه ،سواء اتخذت طابع التسليط على الإنسان ،أو طابع السيطرة على الطبيعة ،على أنها جزء من نسق ضروري خطوات ضرورية في اتجاه غايات كبرى ، ومقاصد عليا في الإيديولوجية الدينية يترجم هذا النسق المزعوم إلى خطه إلهيه يقول :(٥٥)

قال الله : الأرض مهاد للإنسان

وسأجعل منها عرشا

ويكون التاج خليفة

هو ذا العرش يهيأ تحت سقيفة

والعرش في هذه الحالة بما هو رمز السلطة ،يصبح المعادل الأرضي للسلطة الإلهية بجمال الانعكاس على المرآة يقول :[٥٦]

إنه العرش يصقل مرآته

صورته للسماء

ويزين كرسيه بشظايا الرؤوس ورقش الدماء

٣- الجمال وهدم النموذج السابق :

يحاول ادونيس أعادة هندسة المكان فكريا ، يدفع بالتوتر إلى أقصى حد ، لأن الحكمة قد تحررت من اكرهات الاصطلاحات ،فالتقت حينئذ بالجوهر الذي يتجدد مع كل ممارسه خطابية تحفر في ذاكره اللغة والذات ،والمجتمع والتاريخ ، ومن ثم فان اللغة قد غدت منتجة للمعرفة ،لأنها تكتشف لا وعيها ،فيما هي تكتشف الأشياء ،والحقائق فيما حولها ،وعندئذ يصبح التركيب حكمه ،فتتسع الإرادة ،تتتجدد صيغ العبور بآلامه ،وابتهاجاته ،وتلك حركات تأسر وتلقى بالنفس في بؤر التحولات .

حركه الحروف والألوان ،وكلها صيغ جمالية باعثة على الالتحام مع النص ، إن إغراء المغامرة ،والتوق إلى السكن في الفجوات هو مطلب التجريب الكتابي المشحون إيديولوجيا، الذي يأخذ أشكالا جميلة متعددة ،فهو يهدم نموذج سابق ويتوحد مع حركه الواقع الإشرافية يقول :

حالم يقرا كتاب الشوارع راسما وجهه بنار الإسفلت

شاعر يفضح المدنية ويرقد في سراويلها

لكن الأرض سائبة

مدن تنحني ،أشجار تتلاقى

تاسعا: الجمال لتجاوز المألوف :

١-الجمال والتأويل الشامل :

يأخذ تأمل ادونيس الكتابي من خلال رؤيته الجمالية ،ضمن مشروع التأويل الشامل الذي تنفتح عبره مجالات التعددية والنسبية والاختلاف ،وهذا سوف يدفع إلى عملتي التجاوز والتخطي للمألوف الساكن ،ويظهر ذلك من خلال انكشاف أبعاد العلاقات والدوال اللغوية ،بوصفها نسيجا من المجازات والاستعارات التي يتشكل منها كتاب العالم " فالعالم مخطوطة لعالم أخر لا تنفذ إليه قراءة كونية ، ولا يفك رموزها إلا الوجود " [٥٨] والإنسان كوجود في العالم يحمل تصورات لإثبات كينونته التاريخية ،هو المقصى إذن في التاريخ الدموي ،الذي لا يفتأ يؤسس لسلطه الفرد كخليفة ،لسلطه فرد آخر حتى يسيل الدماء"[٥٩]

عجبا للدماء التي لا تجف

وكررت هذا على المتنبي

وكان يردد مازلت طفلا

عجبا للزمان الذي يتجرع أمواج هذى الدماء

ولا ري في جوفه

٢-الجمال والعودة إلى الذات :

الكلام بلغة المفارقات أو التناقضات يعنى الذهاب بالسلب إلى منتهاه أن التناقص هو سلب سالب لذاته ، لذلك يصبح التناقض رمزا للجمال فالجمال عند ادونيس يتخطى العالم المقزم في قمم النظام المعرفي للثقافة السائدة وذلك للإيغال في سيروه متواصلة للتخطي الذاتي.

كما إن العودة إلى الذات تعنى تجاوز ما اسقط على العالم والأشياء من معانيه في صور ماهيات ثابتة جراء عمل إرادة القوه ،واستبدال إرادة الخلق بإرادة القوة.مسؤولية خلق معان جمالية جديدة ،فأدونيس لا تقيده قيود عالمه الداخلي الخاص إنه الآن المشرع لذاته

ولعالم الأشياء لكنه في استبداله إرادة الخلق بإرادة القوة ، يجد أن معانيه المسقطة على الأشياء في شكلها الجمالي ، أشبه بالكتابة على رمال متحركة ،لان الحصيلة الأساسية من ثقافة عالمه السلطوية القائمة على إرادة القوة هي تطهيره المعاني من كل أثار يشوه جمالها ،كما أن التعالي ينتهي به إلى ذاته ،هو إذن تجاوز للحقيقة المؤنسة ، هو في آن عودة للحقيقة الأصلية ،لكن العودة لابد أن تنتهي به إلى آنسنه الحقيقة مجددا ،إنما أنسنتها في هذه الحالة ،وفق معايير إرادة الخلق لا إرادة القوه هنا تترجم الحقيقة إلى لغة لا تفقد أبدا أصولها المجازية ،وهكذا تصبح عودته إلى ذاته بداية تجاوزه المستمر لذاته يقول"[٦٠] "

الكلام يتفجر منى –انا شكه

وأنا نفيه

كل ما قلته لم اقله

فلماذا يقال :أضل سواي ،وأهدى سواى

وآنا ساكن هواي ،ولا بيت إلا خطاي

٣- الجمال ووحدة النقيض :

ورؤية أدونيس الجمالية لوحدة النقيض في الوجود "تتطابق مع رؤية هيدجر لمفهوم الحركة والسكون " [٦١]" في وحدة الوجود أيضا ،فالسكون ليس في معناه الدقيق ليس غيابا للحركة ،بل يمثل تجمع الحركة ،حيث أن هذا التجمع ينتج الحركة ، ويحتفظ بها في حاله كمون أي أن الحركة تبنى في السكون [٦٢] لذا فإن كل ظهور للغيم في حالة السكون ، هو ظهور السكون في حالة تجمع الحركة والاحتفاظ بها في حالة كمون وهذا طرح جمالي يجمع وحدتي النقيض الحركة والسكون يقول " [٦٣] :

لا غيوم ترن خلا خيلها

لحقول اكتست بزفير نباتاتها

والغصون انقباض

هل يجى المطر ؟

عاشرا: الجمال وقيمة الوجود :

١-الجمال وتعدد معاني الوجود :

يقيم الشاعر حوارا جماليا بينه وبين نفسه والأشياء ،وحوار أخر غير مرئي أو مسموع ،هو حوار هذه الأشياء والنجوم ،والشجر ،الليل ، القمر ،الضوء ،مع بعضها البعض ، حيث تجسدت داخل بنيات جمالية شاركت الشاعر حياته ينقل إلينا أدونيس بهذا الحوار معاني الوجود يقول "(٦٣):

دوار الشمس جنون ظلام ،وجنون ضياء

أنى مال جبين الشمس ،تراه يميل

يترصده السحر ، الطفل ويربض فيه

ويجئ شروق بين يديه

ويروح أصيل كل صباح فيه حي

كل مساء فيه قتيل

دوار الشمس نقائض علم ،كم أشبهه

لكن حياتي مثل كلامي تأويل .

٢-الجمال وكسر العادة:

والجمال في شعر أدونيس هو الخرق وعصيان العادة ،فكسر العادة تبشير بضرورة الفعل ،فالسباحة تفقد الجسم المرن،ومراسه ،وتوهنه ،في نهاية المطاف ،وتدمر طاقات الصراع والإبداع والحيوية فيه ،غير أن القادرين على العمل بهذه المعرفة الأكيدة ،قلة نادرة في تاريخ الثقافات بذلك يربط أدونيس بين العصيان والعادة والجمال فيقول " (٦٤):

أن كان هناك جمال

فهو الخرق - أفيئوا ،واعصوا

لا تعصوا إلا العادة .

٣-الجمال والسعادة :

وتجربة السعادة عند أدونيس تشبه الطريق، فهي عبور لا مستقر ثابت ، ولذلك لا تنتهي، والسعادة لذلك لا تستنفد، أي تجدد دائماً وإلا انتهت بالملل ، فالشاعر يؤكد الحركية والتحولية، لا الثباتية في الوضع البشرى في وجوده، لذلك يرسم لوحة جمالية متحركة حيث يقول [٦٥]

الطريق　　　رمز　　　السعادة

ذلك　　　أنها　　　عبور　　　دائم

>

ومن خلال ما سبق نجد أن التربية الجمالية عند أدونيس ، تنمو نحو أشكال غير تقليدية ، فهو يقوم بخلق قيم جمالية من علاقات متناقضة، تحمل في طياتها جوهر بعض الحقائق كالموت مثلاً ، وبعد القيم كالسعادة مع التخيل الحمى ، فنلحظ في تشكيلاته الشعرية خروجاً عن المألوف ، والخروج عن مألوف الجماعة في مجال التذوق الجمالي هو نوع من أنواع الأصل والأساس ، فالتأثر بالجمال الحسي هو صدق يحيل إلى وجود تفاعل جمالي من خلال التنوع واتساع الأفق بالحلم ، حيث تتطور القدرة على التميز ، وكل ذلك تستطيع أن تقوم به التربية الجمالية .

وإذا لم تقم التربية بذلك ، وظل المتلقي بليد الخيال على الرغم من مواهبه الحسية فعلى الأقل سيتمكن من تذوق عنصر مباشر شامل من عناصر التأثير [٦٦].

والإثارة الانفعالية التي تخلق المتناقضات تثير العديد من الاتجاهات الجمالية، والمعاني المستمدة من خلال خبرة سابقة . فجمال المادة هو الأساس الذي يقوم عليه الجمال الأسمى سواء أكان ذلك في الموضوع الذي لا بد لشكله ومعناه أن يتجسما في شيء محسوس ، أم في ذهن المشاهد ، بحيث تظهر الأفكار الحسية أولاً ومن ثم فهي أول عناصر اللذة [٦٧].

ولذلك استطاع أدونيس بوعي أن يقدم رؤية جمالية قادرة على انتقال الإنسان إلى أفاق أرحب في حياته لأنه يتصدى لمشكلات القيمة التي تشع من التناغم الشعري واللغوي حتى يشعر المتذوق بالراحة النفسية تسرى داخله بسبب التناغم الذي يحدث بين صراعاته وتناقضاته الداخلية .

النتائج :

أكد البحث أن التربية الجمالية ضرورة مهمة لاستمرار حياة الإنسان لأنها تأكيد لكل ما هو نوعى وخاص في مقابل الكلية التي تريد أن تهمين وتتسلط على كل شي.

تساهم التربية الجمالية في تهذيب ذوق الإنسان ، وتدفعه إلى التحرر من عبودية الاحتياجات ، لأن الجمال يؤكد التفرد والاختلاف بعيداً عن التماثل كنظام للقمع.

خلص البحث إلى أن التربية الجمالية لا تكف عن النمو والتحقق، حيث تتوالد عنها سياقات متجاورة، ومتفاعلة كأنظمة سياسية واجتماعية، وأحداث مصيرية، كذلك تطلعات فكرية وروحية.

تأكدت أهمية التربية الجمالية في جعلها الإنسان يدرك ما يدور حوله نتيجة وعيه الذي يقوم بإزاحة الآلة الساحقة التي تصنعها أجهزة الإعلام لتزييف وعيه، وذلك بخلق حقائق مزيفة بعيدة عن الحقيقة،حيث يعتبر ذلك من ركائز القبح في حياة الإنسان

أشار البحث إلى أهمية وجود استمرار الجمال في حياة الإنسان نتيجة للإلغاء التكنولوجي للفرد،وإلغاء الدور الاجتماعي للأسرة،حيث صار التنظيم الاجتماعي يقود الفرد لممارسة القمع.

الهوامش

١- ديفيد إنغليز ، وجون حغسون :سوسيولوجيا الفن ،ترجمة ليلى الموسوى عالم المعرفة ع٣٤١ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت يوليو ٢٠٠٧ص١٢٤

٢- نبيل راغب:التفسير العلمي للأدب ،الشركة المصرية العالمية للنشر ،لونجمان القاهرة ١٩٩٧ص٣٠٤

٣- زكريا إبراهيم :فلسفة الفن في الفكر المعاصر ،مكتبة مصر ،القاهرة ١٩٦٦ص.٦

٤- نبيل راغب:مرجع سابق ص٣١٢

٥- زكريا إبراهيم:فلسفة الفن في الفكر المعاصر ،مكتبة مصر ،القاهرة١٩٦٦ص.٦

٦- أميرة مطر:فلسفة الجمال دار المعارف القاهرة ١٩٧٩ص٧

٧- نبيل راغب:مرجع سابق ص٣١١

٨- نبدته كروتشة :المجمل في فلسفة الفن ،ترجمة سامي الدروبى دار المعارف،القاهرة،د.ت ص٥١

٩- جورج سانتيانا:الإحساس بالجمال ،ترجمة محمد مصطفي بدوى ،الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠١ص٩٧

١٠- مصري عبد الحميد حنورة:الخلق الفني دار المعارف القاهرة د . ت ص٤٦

١١- نبيل راغب : مرجع سابق ص ٣٠٦

١٢- زكى نجيب محمود : من مقدمة الإحساس بالجمال سابق ص ٢٥

١٣- شاكر عبد الحميد : التفضيل الجمالي ،عالم المعرفة ، ع ٢٦٧ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت مارس ٢٠٠١ ص ١٨

١٤- السابق نفسه : ص١٨

١٥- السابق نفسه : ص٣٦

١٦- زكى نجيب محمود : مرجع سابق ص ٢٧

١٧- السابق نفسه : ص٢٨

١٨- شاكر عبد الحميد:مرجع سابق ص ٤١

١٩- روبرت سولسو :علم النفس المعرفي ،ترجمة محمد نجيب أحمد وآخرون ، دار الفكر الحديث ،الكويت ١٩٩٦ ص٨٢

٢٠-- شاكر عبد الحميد: مرجع سابق ص ١٧٨

٢١-السيدة جابر خلاف : الوجدان في فلسفة سوزان لانجر ،الهيئة العامة لقصور الثقافة كتابات نقدية ع ١٠٤ يوليو ٢٠٠٠ ص ١٢٠

٢٢ – السابق نفسه : ص ١٢١

٢٣- أميرة مطر : فلسفة الجمال مرجع سابق ص٤٣

٢٤- هربرت ريد : معنى الفن ، ترجمة سامي خشبة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨ ص١٢

٢٥- نبيل راغب : مرجع سابق ص١٤٢

٢٦- جورج سانتيانا : مرجع سابق ص٦٨

٢٧- السابق نفسه : ص٧١

٢٨- مصطفي الكيلانى : سؤال المعنى والمعنى الشعري : فصول م ١٦ ع ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠١ ص.٦٨

٢٩- أدونيس : ديوان المطابقات والأوائل ، دار الآداب بيروت ١٩٨٠ ص.٢٦

٣٠- أدونيس : قصائد أولى الأعمال الكاملة ، دار المدى دمشق ٢٠١٠ ١٩٨٥ص.٤٨

٣١- أدونيس : المرجع السابق ص.٤٣٩

٣٢- إيما نويل فريس ، برنارموراليس : قضايا أدبية عامة ، ترجمة لطيف زيتوني ، عالم المعرفة ع ٣٠٠ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت فبراير ٢٠٠٤ ص٣٣.

٣٣- أدونيس : الأعمال الكاملة سابق ص.٤٤

٣٤- نفسه :ص.٤٧

٣٥- أدونيس : إذا قلت يا سوريا بيروت ١٩٥٨ ص١٢٣ ، ص.١٢٤

٣٦- ادونيس : الأعمال الكاملة سابق ص.١١١

٣٧- أبجدية ثانية دار تويفال ١٩٩٤ ص.١٦

٣٨- أدونيس : الأعمال الكاملة سابق ص.٥٩

٣٩- أميرة مطر : فلسفة الجمال أعلامها ومذاهبها الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠٢ص.١٩

٤٠- أدونيس : الأعمال الكاملة سابق ص.٦٠

٤١- أدونيس : دليلة ، ابن زيدون ، دمشق ١٩٥٠ص٦ .

٤٢- أدونيس إذا قلت يا سوريا ، بيروت ١٩٥٨ ص .٢٧

٤٣- أدونيس : الأعمال الكاملة سابق ص ١٦٨ .

٤٤- أدونيس : نفسه ص٥٠٠ .

٤٥- أدونيس : إذا قلت يا سوريا سابق ص .١١٧

٤٦-الكتاب أمس المكان الآن ، دار الساقي لندن ١٩٩٥ص .٢٥١

٤٧- أدونيس : السابق نفسه ص.٣٠٤

٤٨- السابق نفسه : ص.٣١٦

٤٩- نفسه ص.١٠٠

٥٠- أدونيس : الأعمال الكاملة سابق ص.٢٨٣

٥١- أدونيس : مفرد بصيغة الجمع ، ج٢ دار العودة بيروت ١٩٨٥ ص ٦٦٣ .

٥٢- أدونيس : الأعمال الكاملة سابق ص.١٠٨

٥٣- أدونيس : الكتاب أمس ، المكان الآن سابق ص.١٢

٥٤- نفسه : ص.٢١

٥٥- نفسه : ص.١٠

٥٦- نفسه : ص.١١

٥٧- أدونيس : : الأعمال الكاملة سابق ص ٥٧٦- ص .٥٧٧

٥٨- جاك دريدا: الكتابة والاختلاف ، ترجمة كاظم هلال ، دار تويفال للنشر ١٩٨٨ ص.١١٧

٥٩- أدونيس : الكتاب أمس .. مرجع سابق ص٣٥

٦٠- نفسه : ص١٤٥

٦١- جاستون باشلار : شاعرية أحلام اليقظة ، ترجمة جورج سعد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ١٩٩١ ص ١٦٠

٦٢- هيجل : علم ظهور العقل : ترجمة مصطفي صغوان ، دار الطليعة ، للطباعة والنشر بيروت ١٩٨١ ص.٣٥

٦٣- أدونيس : : الأعمال الكاملة سابق ص .٢١١

٦٤- أدونيس : الكتاب أمس .. سابق ص.١٥٤

٦٥- ادونيس : الأعمال الكاملة سابق ص .٦٠

٦٦- جورج سانيتانا : مرجع سابق ص.١٣٠

٦٧- نفسه : ص ١٣٠.

الفصل الثاني : المعلم و تمثلات الآنا لمنجزات الآخر عبر التاريخ

مقدمة مفاهيمية :

واجه العالم مع نهاية العقدين الآخرين من القرن العشرين تدفق إعلامي جديد لم يسبق له مثيل ، بدأت طلائع هذا التدفق في البث التليفزيوني المباشر الذي مثل زحفا فكريا من جانب الدول تمتلك الأقمار الصناعية ، وقد حمل هذا الزحف استهدافا انعكس بشكل مباشر علي الذاتية الثقافية للمجتمعات المحلية.

ومع التطور التكنولوجي المستمر للأقمار الصناعية وسرعة القدرة علي الوصول لكل المجتمعات علي سطح الأرض ، وذلك بفعل الثورة الإعلامية الهائلة ووسائل الاتصال التي حققت في وقت قصير ما لم تحققه البشرية في تاريخها من ثورة معلوماتية و شبكة عنكبوتيه اختصرت المسافات و استباحت الحدود في عصر السماوات المفتوحة والتي لم تعط للمجتمعات فرصة التوقف للنظر إلي الخلف. فقد صارت المجتمعات في موقف يتطلب منها القدرة علي التواجد والمشاركة والتجاوز حتى لا تذوب و تضمحل أمام ما يحدث حولها في العالم.

و تؤثر هذه المنجزات العلمية علي طبيعة عمل وأداء المعلم المصري ، فلا يمكن أن يكون خارج الزمان ، المكان لما يحدث حوله ، فهذه المنجزات العلمية قد صارت في قلب حياة المجتمعات و بدونها تصبح المجتمعات في غياب متعمد عن واقع فرض نفسه وبقوة شديدة.

و المعلم بوصفه منجزا لتحقق تربوي في ظل مواجهة مؤثرات خارجية والتي عرفت بالعولمة وما فرضته دول ديمقراطية السوق بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ، وحلفائها من الثمانية الكبار في الدول الرأسمالية وما تمخضت عن ذلك من فرض الهيمنة علي مصائر الشعوب تحت مقولة نشر الديمقراطية ، وحيث تفرض تلك الهيمنة تناقضا واضحا مع حرية الشعوب وحقوقها ، وذلك باتجاهها نحو تشكيل العالم في قالب ثقافة السوق الرأسمالية المتوحشة ، وتأكيد هذا النمط الذي يجعل من التعليم سلعة وليس حقا من حقوق الإنسان في إطار سيادة دولته ليكون الإنسان فاعلا في تولي أمور حياته ، ولا ينوب عنه أحد في ذلك.

وفي ظل الاستقطاب الدولي أحادي القطب الذي تمثله الولايات المتحدة الأمريكية و المدافعة عن الوجود الإسرائيلي بكل قوتها التي تهدد أمننا القومي ، فإن ذلك يفرض علي المجتمع المصري تحدياً مهماً في إطار تحديد وفرض أدوار جديدة للمعلم و ذلك بوصف التعليم أمنا قوميا.

ويتبلور هذا التحدي في الهدر التعليمي والذي يتمثل في خروج ألاف الطلاب إلي ممارسة الحياة دون سلاح وخبرات وذلك بسبب عدم قدرتهم علي مواصلة تعليمهم يضاف إلي ذلك الكثير من التحديات المهمة مثل تعثر مسيرة التنمية البشرية ، وبعض المشكلات البيئية فضلا عن تدني حقوق المواطن المصري في الحياة الحرة الكريمة الذي خرج في ثورة عارمة لإسقاط نظام فاسد ومستبد في الخامس والعشرين من يناير مطالبا بالعيش والحرية و العدالة الاجتماعية وتلك أبسط الحقوق ، إلا أن آماله قد تعثرت في إطار مشروع ثيوقراطي قام أصحابه باختطاف الدولة المصرية والقضاء علي أحلام الشعب المصري في تحقيق حريته وصيانة كرامته ، إلا أن الثورة ما زالت مستمرة وقائمة لأنها ثورة شعب يؤمن بالحرية وتحقيق وجوده الفعلي.

ومن هنا فالمعلم منوط به قيادة التنوير لأجيال صاعدة تحتاج إلي ذلك قبل أن تغوص في عتمات الجهل والإتباع وإلغاء العقل من قبل جماعة مستبدة تفرض مشروعها العنصري ويتطلب ذلك إعداد المعلم إعداداً عصرياً يقوم علي الإبداع والابتكار مقاومة لنمطية التلقي والإتباع الممل الأجوف ، ومقاومة لتزيف الوعي وتجريف الذاكرة وتبوير العقل وهذا ما سوف يتم عرضه تالياً.

وفي إطار الإعداد العصري للمعلم بالإضافة إلي أدواره التي أقرّها العديد من الباحثين والتي تمثلت في مجالات :

المعلم كناقل للمعلومات : وهذا يعني أن كل من له القدرة علي نقل المعلومات يستطيع أن يكون معلماً.

المعلم له قدرة تشكيل السلوك وتعديله من خلال تحقيق أهداف دروسه تجاه النمو الشامل للطالب.

المعلم ميسر للعملية التعليمية وهذا يستدعي إعداداً تربوياً أكاديمياً تؤهله للقيام بهذا الدور.

المشكلة:

والباحث يقوم بطرح رؤية جديدة لإعداد المعلم بالإضافة إلي ما سبق هذه الرؤية تعتمد في طرحها علي طبيعة التجديد والتغير المستمرين في المجتمع العالمي والمجتمع المحلي لأننا لا يمكن أن نعيش في عالم لا نشارك ونساهم في صنعه وذلك يستدعي طرح التساؤل التالي :

كيف يتم إعداد معلم متطور مبدع ومنجزات الآخر متوالية عبر التاريخ ؟

ويتعين علينا في ضوء التساؤل السابق طرح التصورات الآتية :

المعلم واستيعاب الكل التاريخي والاجتماعي .

المعلم كممارسة دالة – تدخل ضمن مجري التفاعل الاجتماعي .

المعلم بوصفه فعلاً وجودياً بالمعني الأنطولوجي .

المعلم والرؤية الجدلية التي تري الواقع عبر وسيط روجت له السلطات عبر التاريخ

المعلم و الثقافات المتداخلة في وعي الأمة التي ينتمي إليها .

المعلم والتركيب الجدلي للبنية الأبستمولوجية .

المعلم والتوحد بين ثلاثية التاريخ : الكوني ، القومي ، الشخصي .

المعلم و اللاوعي السياسي الجماعي للشعب .

التوجه المنهجي :

وعلي ضوء التصورات السابقة سيتم التوجه المنهجي باتجاه المنهج الجدلي الواقعي والمقصود بالمنهج الجدلي هنا " مفادة أن الفكر الإنساني عامة والفلسفة علي وجه الخصوص بل والمنطق علي وجه أكثر خصوصية ، لا ينقسم إلي اتجاهين فقط أحدهما مادي والآخر مثالي ، وإنما يلزمنا المنطق الجدلي نفسه بتوقع قيام منطق مؤلف ومركب من هذين الاتجاهين في الفكر الإنساني ، و هو ما يعرف في ميدان الفلسفة بالواقعية المؤمنة وهو ما يطلق عليه أصحاب النقيضين "بالطريق الثالث "[1] .

الأهداف:

ويأخذنا ذلك إلي التأكيد علي الهدف الذي يتبلور في الآتي :

تبني تصور واقعي لإعداد المعلم ليس إعداداً نمطياً تقليداً إنما إعداد يتواكب و قيمة المعرفة وإدراكه لأهمية الوعي وصولاً به إلي معلم مثقف - مدرك - ايجابي - مبدع - مبتكر و متجاوز للمألوف داخل حدود الزمان والمكان .

المصطلحات:

و سوف يقودنا ذلك إلي تعريف بعض المصطلحات منها :

١- الأنا: وتعني في هذا البحث الذات الفاعلة في مقابل الآخر .

٢- الآخر: هو الذي يعني تفتحاً للأنا .

٣- الصيرورة: حالة من التحول المتواصل التي تخضع لها الظاهرة .

٤- المعلم: يعني في هذا البحث أنه صانع قيم لها كيفيات في الظهور مرتبطة بعلاقة البشر بها ومن بينها علاقة الإنسان بالبناء الثقافي الذي يدير صراعه معه منعاً لاستلاب الإنسان المصري و منعا لاحبتاطاته .

٥- الوعي بالواقع: ليس الواقع ذاته بينما الوعي في الحقيقة هو أحد صور الواقع التي يتيحها إدراك الإنسان لتكوين صورة عن الواقع تتيح له فهمه بالطريقة التي تجعله مشاركاً في هذا الواقع .

١- المعلم واستيعاب الكل التاريخي والاجتماعي :

يشير استيعاب الكل التاريخي والاجتماعي أن تصير الذات كليةً بالمعني الهيجلي تستوعب الكل الاجتماعي الذي ينتمي إليه المعلم حيث يصير نصاً للتعلم ، والنص هنا تعبير رمزي يتجاوز الثنائيات المصطنعة بين الداخل والخارج بين الذات و الموضوع بحيث لا تجعل الأنا مشدوداً إلي الآخر ، فالإنسان الذي يتوجه إليه المعلم كيان إنساني تشكلت حياته و تتشكل عبر مفردات بيئته الثقافية في الوعي بالعالم حيث يصبح الآخر تفتحاً للأنا ، و من ثم يتم خلق علاقة ناشئة من الاختلاف والوحدة فيكون المعلم بذلك قد أعطي لمهنته معني ودلالة ، فيعبر عن نفسه كمعلم يؤدي رسالته من مكونات الأنا و الانفصال في الدلالة الجديدة لمعطيات الأنا التاريخية.

ويتطلب ذلك أن يكون المعلم مخططا جيدا للوقوف علي تحديد الخصائص والمشكلات الاجتماعية لطلابه والوقوف علي الأهداف المطلوب تحقيقها . وذلك يعني أن يكون المعلم "صاحب رؤية إستراتيجية ، وليس مجرد فكر ، لأن الرؤية الإستراتيجية تنظر للأمام لا الخلف من خلال تفهم ما تم سابقا ، لأن النظرة السليمة نحو المستقبل تكمن جذورها في تفهم ما سبق(٢) . بذلك يكون التخطيط نابعا من تفهم السابق لإبداعه وليس لاستثماره ، مع استيعاب ما يدور حوله من متغيرات عالمية حافلة بالدهشة والانجاز ، وهو في هذه الحالة يتخلص من الثنائيات فتصبح الأنا هي التي تدافع عن الهوية الثقافية والخصوصية المحلية وليس بدافع مواجهة الآخر ولكن بدافع الاستيعاب والإبداع والابتكار .

وفي ظل تحول ظاهرة العولمة إلي أيديولوجية من نوع جديد ، برزت من خلال نظرية الليبرالية الجديدة كونها تمثل الدعامة الأساسية في أيديولوجية العولمة وتجاوز التنظير البعد الاقتصادي ، ليشمل السياسة والثقافة ومنظومة القيم ، ففي المجتمع الاستهلاكي الكوني ينبغي أن تؤسس علي أنقاض القيم القديمة ، غير أن نقطة الجذب في هذا التنظير في تباين الرؤي واختلاف المقولات من مقولة "نهاية التاريخ" و"صراع الحضارات" إلي تيار "الطريق الثالث" الذي يتبناه الاشتراكيون الديمقراطيون كبحا لجماح التيار الليبرالي المتطرف .

يتم دلك مازالت التوازنات الدولية في حالة تبدل ، وبخاصة في الركائز التكنولوجية والعلمية التي تركز عليها العلمية التعليمية ، وتبدل في الأيديولوجيات والتوجهات السياسية العامة التي تحكم المجتمع . حيث تبرز هنا مشكلة رفع كفاية المعلم بما يواكب التطور العالمي ، فلا يمكن أن يلاحق المجتمع التطورات الحادثة ويبقي المعلم متخلفا عن هذا التطور، فهو الأساس المهم والأول في عملية تقدم وتطور التعليم ويقود ذلك إلي ضرورة استيعاب المعلم لمرحلة الوعي والحرية التي تمهد بقدر من الرؤية النقدية لاستيعاب الكل التاريخي والاجتماعي من خلال الفعل الحر ، فالفعل الحر يتضمن قبولنا للوجود ومشاركاتنا فيه ، وهذه المشاركة تعمل علي نفي الواقع وانتقاله إلي حالة أخري ، فالاستقلال النسبي يفرض علي الذات تجاوز الحرية السلبية المتمثلة في رفض الواقع إلي الحرية الايجابية بالمفهوم الإبداعي التي تحقق صورة جديدة للواقع .

وهذا يتم بالانفتاح علي الماضي عن طريق اكتشاف ما تنطوي عليه الذات من إمكانات ، لكي تقدم صورة للحياة في المستقبل تحقق تحررها في بناء قيمي والطريق إلى ذلك إعداد معلم لديه قدرة وإمكانات استيعاب الكل التاريخي والاجتماعي .

٢- المعلم بوصفه فعلا وجوديا بالمعني الأنطولوجي :

يمثل وجود المعلم في العملية التعليمية وجودا أساسيا لتأكيد السياسة التعليمية الحكيمة . سياسة تهدف إلي استخدام التعليم باعتباره جزءا من استرتيجية واضحة لخريطة ومشروع تنمية المجتمع تنمية ذاتية ومعتمدة علي الذات ، وإعطاء هيكل التعليم أولوية علي مشروعات الخصخصة ومساعدة رجال الأعمال ، وتدعيم تحرير التعليم واستغلاله من هيئات وجهات التمويل الدولية وما تفرضه من خطط ومشروعات تؤازال مشروع الليبرالي الجديد ، وقوته - كنظام لتكوين المواطن الحر المستنير والمشارك في عمليات التنمية - في مواجهة أزمته الطاحنة الراهنة(٣) . ويعني ذلك دحض مقولة " السوق هو الحل" التي لا يمكن توفر أسس تطوير الموارد الإنسانية في مصر ، بل تدفع المجتمع إلي زيادة الأغنياء غني وزيادة الفقراء فقرا لأن خلفية الثراء والفقر ينجم عنها حالة انقسام اجتماعي وعدم توازن مما يجعل التعليم سلعة مرتبطة بمتغيري الثراء والفقر .

على الجانب الآخر فمسألة وجود معلم وجودا حقيقيا يقتضى إبعاد الصعاب عن طريقه ، وأهم هذا الصعاب المراوحة التي تعوق الجهود المبذولة من بناء فكر نقدي لابد أن يتصف به المعلم كوجود يتجاوز و يبنى وتلك إحدى الإعاقات في طريقه، تظهر بوضوح في كون الوعي برسالته يأتي متأخرا عن انطلاقها أو عن المسار الذي تنخرط فيه.

والعلاقة بالتاريخ لها ارتباط قوى بالوجود الحقيقي للمعلم، فمع التوصل إلى عدم صلاحية النظام السياسي ،الاجتماعي والاقتصادي السائد في مصر وما يستتبع ذلك من ضرورة تجاوز النخب القديمة ومرجعيتها الاجتماعية، يكون الجهد الأكبر للمعلم الذي يحقق وجودا بتحرره من الإشكاليات التي كانت تحرك الماضي، أخطر ما في هذا التجاوز السياق التاريخي الذي ضمنّه، إنه سياق غير مسبوق، إذ اتضح للمجتمع المصري بعد عقود من الاستبداد والقمع أنه لم يعد محورا للعالم و أن نخبها الحاكمة وغير الحاكمة التي ظلت محط أماله كانت فاقدة للوعي التاريخي.

ومن بين هذه التراكمات لحقيقة وجود معلم بالمعنى الحقيقي تبرز أهمية التعليم كأساس تحقيق النمو والنهضة الحقيقية، فلا تعليم بلا معلم مسلح بالعلم والثقافة والوعي والرؤية الناقدة وقبول الأخر باتجاه العلم الذي يستطيع من خلاله تربية وتنشئة أجيال غير مقموعة مدركة لحقيقة ما يحدث في العالم من حولها ، حيث يؤكد وجود المعلم ويزيده تأكيدا الخروج من تفكير الذاكرة المغلقة إلي التفكير الإبداعي المفتوح بعيدا عن صور تقديس الذات ، ولاسيما حين يلح علي تأمل حركية الذات في مواجهة أي موضوع دون أن يكشف عن فعله الآني سياقاته.

المعلم كممارسة دالة-تدخل ضمن مجري التفاعل الاجتماعي:

المعلم قوة من قوي المجتمع المصري ، تدخل ضمن مجري التفاعل الاجتماعي ، الذي يعايشه المعلم ولأنه صاحب رسالة تنشئة وتربية وتعليم فإنه لا يستسلم لما هو قائم مكتفيا بدور التبرير ، فعليه أن يقاوم بكل الأشكال الممكنة للزحف الذي يهدف إلي هدم قيم الاستنارة وذلك من خلال رصده لأزمة المجتمع المصري الذي ينتقل من حالة إلي حالة دون أن يتاح لأفراده المشاركة في صنع قرار حياتهم اليومية ، والمعلم لابد أن تتاح له من خلال إعداده وتدريبه التسلح بجدليات السلب الذاتي فهو نفي وسلب مستمر للتوهم الواقعي كي يحاول كشف القشرة الزائفة التي يتستر الواقع المجتمعي حولها .

وقد مر المجتمع المصري بدورات مجتمعية دارت في فراغ منذ الانفتاح الاقتصادي في عام ١٩٧٤ حتى الآن ، وقد أصاب ذلك المجتمع المصري بصور عديدة من الاغتراب الاجتماعي والتفكك السياسي والثقافي والنفسي ونشأ عن ذلك صور عديدة من الانفصال والاغتراب ، فنجد انفصالا بين التصورات الخاصة ببناء المؤسسات والهيئات والنظم ، وبين المنظور التاريخي والتوظيف السياسي والاجتماعي لها ، كما نجد انفصالا بين الأنظمة المفروضة قسرا علي الواقع ومتطلبات هذا الواقع النابعة من احتياجاته الاجتماعية والتاريخية .

وقد تولد عن ذلك إحساس لدي أفراد المجتمع بفقدان السيطرة وإحساس الإنسان بأن حركة الواقع في كافة توجهاتها تسير سيرا غامضا ، وقد انعكس ذلك عن السياسة التعليمية وبالتالي علي المعلم كممارس للتربية والتنشئة بكل دلالاتها القيمية التي تتحرك في اتجاه البناء القيمي للفرد ليكون أفضل وليس العكس .

وقد حدد بعض علماء التربية أن وظيفة المعلم كممارس للمهنة تتحدد في أطر ثلاثة هي(٤):

المعلم كناقل للمعلومات ومن ثم فإن كل من له القدرة علي نقل المعلومات يمكن أن يصبح معلما .

أن المعلم مسئول عن تعليم جميع مجالات السلوك الإنساني .

المعلم كميسر لعملة التعليم ، وكفاعل نشط في البيئة المحلية والمدرسية .

وعلي ضوء الأطر الثلاثة السابقة نجد أن تدني مستوي المعرفة في ممارسات المعلم مازالت قائمة ، لأن تحلي المعلم بالمعرفة غائب عن هذه الأطر المطروحة وتلك مسألة خطيرة تنعكس علي مستويات طلابه وتبعد ممارساته عن دلالاتها الأصلية فيكون مثل الذي ينحت في الصخر .

وباتجاه الوعي الممكن لدي المعلمين من خلال المعرفة ، يمكنه اكتشاف إمكانات الأمة في مشروعها الحضاري لمواجهة حاجات المستقبل وهذا المشروع الحضاري يتمثل في طلابه الذين يمثلون عصب مستقبل الأمة كموارد بشرية في حاجة إلي الاكتشاف والمساعدة والبناء لتحقيق قدراتهم وإبداعاتهم وإبتكارتهم التي هي في المقام الأول إبداعات وتقدم ونهضة الأمة .

ويتمثل ذلك في ممارسات المعلم الدالة من خلال استمرارية التاريخ ، وعندما يدرك المعلم التاريخ في كليته علي أنه ليس شيئا آخر سوي تاريخ جهود وابنية تناولتها يد الإنسان بالتعديل المستمر فتتسع لتآلف التيارات الجديدة للحياة ، فيتم هدم القديم الذي شاخ ليتم بناؤه بأشكال جديدة وقيم تطلبتها حاجات ورغبات جديدة وهكذا هدم وبناء لاستمرار الحياة في حيوية جديدة ، دورة الولادة والأمل وهكذا .

المعلم والرؤية الجدلية التي تري الواقع عبر وسيط روجت له السلطات عبر التاريخ

تعمدت السلطات المستبدة في كل مراحل استبدادها في المجتمع المصري علي إقالة الشعب المصري من الحياة وتهميش دوره قبل ثورة ٢٥ يناير ، و قد تمثل ذلك واضحاً في اغتراب نتيجة لغياب الحرية التي تعكس أزمة التناقض بين سياسات النظام الحاكم وبين ممارسته الفعلية في الواقع ، فالحرية هي التي تصنع الديمقراطية وليس العكس وهي حق أبدي للبشر وهي منحة ربانية من الله سبحانه وتعالي .

و في ظل غياب الحرية ركزت السلطة الغاشمة علي إقرار تسلط ثقافي يبدأ من المدرسة و ينتهي بالجامعة وفي خلال تلك المراحل يقف المعلم حائراً بين أن يكون مساهماً في صنع واقع التسلط الثقافي .. أم أنه يتماهي معه ، أو ليختار طريقاً مغايراً محاولاً نقد العائق الوسيط الذي روجت له السلطات من خلال أدائه رغم أن عملية إعداده وتأهيله لم تحمل في طياتها ذلك ، فهل يمكن أن يستطيع نقد العائق الوسيط لتثوير الواقع ، لأن تثوير الواقع يأتي بنقده ، لا نقد الواقع مباشرةً .

و المعلم في العقود الماضية وخلال أدائه نجده أنه قد توحد دون رغبة منه   في حياة أشبه بحياة الموت التي ابتكرها الوهم السياسي السابق لخلق ظاهرة التماهي والتوحد بالنظام المتسلط علي الحياة المصرية بكاملها .

و قد تبدت أزمة المجتمع المصري السياسية في أنها ترسخ صورة بعينها للحياة اليومية لم يعد ممكناً تحقيقها للسواد الأعظم من الجماهير التي سارت   في ركب التعليم الذي يرسخ لهذه الصورة و تتبني الطبقة المتوسطة البيروقراطية هذه الصورة ، و تدافع عنها باعتبارها جزءاً من الدفاع عن وجودها السياسي ، وذلك من خلال برامج محددة ، و نتج عن هذا تراجع شرائح اجتماعية داخل الطبقة المتوسطة لتلتحق بجماعات أخري لم تستطع أن توجد عن طريق الصورة المكرسة للحياة اليومية[٥] ، وعبر هذا التوحد والتماهى للإنسان المصري مع تلك الصورة المكرسة يفرض علي القائمين بعد الثورة علي عملية إعداد المعلم وتأهيله بشكل معرفي جيد بعيداً عن التبسيط المخل بشروط الواقع الاجتماعي والتاريخي ، التي يعيشها الإنسان المصري وهو عزل هذا الإنسان عن تاريخه الذي يفصح عن نفسه فيما تفرضه السلطة لكي تكرس وعي الإنسان المصري في الاتجاه الذي تريده .   و هذا الطرف المتوسط بين الإنسان والواقع هو ذلك العائق الوسيط الذي يجب تأسيس وتأهيل المعلم علي نقده لاكتشاف الأسس التي تجعل واقعنا يبدو علي ما هو عليه ، فتهميش دور المعلم في النقد يلغي مكانته لأن ذلك إلغاء للذات و الوعي ودوره الفاعل .

و عدم إعداد المعلم و تأسيسه علي ذلك سوف ينفي قدرته علي البناء والتغيير للأفضل و نفي قدرته يتمثل في سلب المعرفة وسلب الحرية ، " فكل من سلب المعرفة وسلب الحرية يتبادلان التأثير والتأثر علي الفرد والمجتمع" [٦] .

وقد أدي غياب دور المعلم صاحب الرؤية الناقدة إلي سقوط سياسي بنيوي كامل و انعكس ذلك علي مخرجات العملية التعليمية فعاش التعليم غريباً في المجتمع المصري بعيدا عن أشواق ورغبات المصريين الحقيقية .

المعلم والثقافات المتداخلة في وعي الأمة التي ينتمي إليها:

تمكن الشعب المصري بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير من امتلاك ناصية ثقافة التساؤل و ذلك بديلاً عن ثقافة الاستفسار السلطوي المتواطئ ، فقد قلبت موازين الفكر والمنطق و التاريخ من وضعية ثقافية تضع الإجابات السلمية الجاهزة و الاستفسارات المطمئنة المسبقة موضع الأسئلة المصيرية الجذرية ، فالثورة تجذر ثقافة الاختلاف الخلاقة ضد ثقافة الأجوبة السائدة المُسكنة.

و قد حاولت الدول الغربية بعد رفع سلطتها عن العالم العربي بما فيهم مصر و بعد حركات التحرر الوطني بث ثقافات استعمارية كان قد زرعها قبل رحيله في مناهج التعليم فصارت تعبث بالعقول . إلا أن الغرب أفرز أشكالاً جديدة للهيمنة عن طريق خلق مفاهيم وزعها خارج حدوده مثل العولمة ، العالم ذي القطب الواحد، ثورة الاتصالات ، العالم قرية واحدة الكونية ، وكلها مفاهيم غير بريئة تكشف عن سيطرة المركز علي الأطراف في تاريخ العالم الحديث ، وتجعل المثقفين في العالم الثالث يلهثون وراءها بالشرح والتحليل والتعليق والتهميش دون أن يعلموا أ التهميش ليس الكتابة على النص، بل الإخراج من التاريخ، ودعوة إلى التقليد في الأطراف وترك الإبداع للمركز وحده (٧) . حيث يترك ذلك تأثيره علي المعلم الذي تتجسد شخصيته ف قدرته علي الوعي والفهم ممسكاً بالخطاب الثقافي الذي ينحاز إلي جانب الشعب لأن محاولة العثور علي الخطاب الثقافي للأمة من خلال تحليل النصوص الفلسفية التي قدمها الفكر المصري لن يكشف إلا عن خطاب ثقافي واحد ، لأن الفكر بطبيعته يكشف عن الوحدة الكلية و يقوم باستبعاد التعدد الذي يكشف عن التفاصيل الدقيقة للثقافة المصرية في أبعادها الجغرافية والاجتماعية ، لأنه يعتمد في بناء نسقه الفلسفي علي لغة التصورات ومن ثم لن تجد الثقافات المتداخلة والمتضمنة في إطار الثقافة الكلية الأمة ووعيها التي تعبر عن شرائح اجتماعية متعددة ويختلف حضور هذه الطبقات والكيانات الاجتماعية تبعاً لمدي قربها أو بعدها من الخطاب الثقافي السائد .

ويدفعنا ذلك إلي ضرورة إحياء الحاجة إلي المعلم التربوي المثقف لأن مهنة التعليم جوهرها وجود معلم تربوي مثقف يدرك بكل ثقة ثقافة شعبه ، لديه القدرة علي امتلاك دلالات الثقافات المتداخلة في وعي أمته التي ينتمي إليها ، و بخاصةٍ أن ثورة الخامس و العشرين من يناير قامت من الخطوط الاجتماعية الغائبة ، ولم تنفجر من الخطوط الرسمية التسلطية السائدة ، فقد قامت بها مجتمعات شعبية غارقة في محيطها الاجتماعي المنسي وشبابها المُقال من الحياة بعيداً عن المركز السلطوي ، ثقافة المحيط الهامشي المسكوت عنه الذي كان يحفر في الخفاء متنه الشعبي الجمعي الخاص من مجمل ثقافاته المتداخلة في وعيه والتي أسست لعلم اجتماع الحضور الذي كتبه نبض الشارع المصري و احتضنته الميادين في أنحاء مصر .

تلك الثقافة التي يجب أن يعيها المعلم ويدرك تماما أنها ثقافة تفكك السلطة المستبدة و تبني الواقع فالمعلم لا يمكن أن يكون هامشياً ، ولابد من إدراك وعيه الخاص لكل ما يحدث في مجتمعه ، بذلك يكون المعلم الذي أدرك ثقافة العقل الاجتماعي الجمعي قد كتب علي نفسه شروط وجوده ومقاومته ليكون وجوداً سياسياً ومعرفياً بعيداً عن الحظائر الثقافية السلطوية .

المعلم والتركيب الجدلي للبنية الأبستمولوجية :

وعي خطاب الواقع بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير الطابع الأيديولوجي لأفكار القيم السياسية والاجتماعية و الإدراكية ، ونشأت قيم معرفية أكدت وجودها علي الساحةِ المصرية .. العدالة الإجتماعية مقابل التهميش والاستبعاد الاجتماعي .. الحرية مقابل القمع والقهر .. الكرامة الإنسانية مقابل الانتهاك لكافة حقوق الإنسان ، فوقف الشارع المصري علي بنية إبستمولوجية مركبة ، وقف بعمق خصيب علي الطبيعة اللاشعورية للحياة السياسية والاجتماعية الجديدة في مصر ، و اكتشف الشعب المصري أوهام الشرعيات العامة فرأي الحضور في الغياب بمثل ما رأي الغياب في الحضور ، و رأي زيف و أوهام الفعل السياسي والإجتماعي و الأخلاقي فأدرك أنه لا يوجد حيث يفكر له السياسيون والاجتماعيون بل يوجد بصورة أفضل حيث لا يفكرون ولا يتعقلون .

هذا التركيب الجدلي للبنية الأبستمولوجية يستدعي أول ما يستدعي بناء وضوح جديد وفق تصور تخييلي معرفي يحفر في أوهام الوضوح الرمزي السياسي ليعيد بناء الوضوح الإنساني والوجودي الأصيل الذي لا يقف مقابلاً للغموض بل يمر به ليكون أكثر وضوحاً . وهذا يعنى إعداد معلم يدرك أن تجديد الوعي بمعرفة الواقع والذات واللغة والتارخ والفكر والخيال بعيدا عن نقل المعرفة السياسية والاجتماعية النظرية الكلية التي يفرضها السياسيون علي واقعنا ، فالمعلم يعيش في عالم مصري محاطا بالإجماع التواطؤي علي الوهم العام لبناء الحقيقة لصالح من يقودون مصالحهم في الواقع ، بعيد عن إخراج منتج تعليمي له القدرة الحقيقة علي صنع نهضة حقيقية من خلال معلم لا يزج بنفسه في عالم إنسائي اصطلاحي رمزي مؤسس علي الأوهام العامة ، حتى لا يكون الإجماع العام هو الإيهام العام فيتم استقاء الحقيقة مما شاع وساد ، وليس مما هو كائن بالفعل في الواقع . ذلك في ظل ما يشهده المجتمع العالمي بتأثيراته المتعددة وانتقالاته الهائلة في العقود الأخيرة

إن بنية المعرفة لا تكون معرفة إلا داخل سياقها التاريخي الخاص بها ، حيث النموذج المعرفي لطريقة الوعي والإحساس والتصور والتنبؤ والتأويل تكون الوعي واللاوعي الجمعي للثقافة لدى الجماعة اللغوية في فترة تاريخية محددة ،وتتوافق الاستراتيجيات التأويلية الثقافية في مجتمع من المجتمعات والتي يرى بها العالم ، العلم،الواقع .

وبإعداد المعلم في غياب تلك الرؤية عن وعيه يكون القائمون على ذلك قد جعلوه آلة زائفة يتم إشهارها سلاحا لتأكيد عمى البصيرة المعرفية وصولا إلى إدراك ظلامي وهامش منبوذ في منظومة استبدادية مغلقة تقصي من الوعي السياسي والاجتماعي والثقافي حالات التثوير والتحول المفاجىء والانفلات المعرفي العابر لحدود المتعارف عليه،والسائد الراسخ والمتبع .

وإذا كان من الصواب الإقدام الواعي المسئول على مناقشة قضايا العصر من منظور إنساني شامل بهدف تبين مواقع الخطى التي تقودنا إلى التوازن بين الضرورة والاختيار فإن الضرورة تعني هنا مواكبة التدفق المعرفي الهائل ،بينما يعني الاختيار التفرقة بين فاعلية المعتقد وقيمه الايجابية من ناحية ودلالة الطقس الشعبي على استمرارية حضارية لها آلياتها الخفية من ناحية ثانية وذلك في مقابل ظواهر حياتية تمارس على نطاق واسع يختلط فيها الجهل بالمتاجرة بالدين ، والمتاجرة بهموم الناس وإعطاء شرعية للخطأ من خلال وعي مزيف الهدف منه تزييف الوعي .

المعلم والتوحد بين ثلاثية التاريخ:الكوني،القومي ، الشخصي :

تقوم علاقة الإنسان بوجوده على علاقة مركبة مستقلة ومتداخلة يمكن تحديدها في عدة جوانب هي :

١-الجانب الجسدي:ويعالجه توفير الطعام والشراب والملبس والمسكن والرغبة الجنسية .

٢-الجانب العقلي :وتعالجه الفلسفة بما هي تأملات تجريدية هدفها المعرفة الكاملة.

٣-الجانب السياسي :ويتفتح في المرء بممارسته للسلطة بدرجاتها من قمة الدولة وحتى الأسرة .

٤-الجانب الإبداعي : ويتمثل في الخيال والجمال .

٥- الجانب الأسطوري : ويتعلق بعالم الغيب وسحره وقيمته لعالم الشهادة .

٦- الجانب الاجتماعي :وميدانه اللغة وتطويرها بما يحقق التواصل المستمر .

هذه الجوانب متضافرة تسهم في مقاربة الحقيقة التي لم تكن ثابتة بل هى متغيرة وترتبط بحالة التوحد بين ثلاثية التاريخ وهى الكوني ،القومي ، الشخصي ، والمعلم بنية مرسلة لفهم التاريخ ،فهو لا ينفصل عن الواقع في واقعيته المادية العملية الفعلية ليصير واقع التعميمات والتجريدات الوهمية واقع التمثلات وليس واقع الممارسات حيث يختفي الإنسان والكرامة والعزة والعقل والفعل والصدق والحقيقة ،ويقوم بدلا منها ما يبعث على الانعزال والاكتئاب والعدم ومحق الوجود.

وتوحد المعلم بين ثلاثية التاريخ يجعله يري العلم فعلا علميا ، فتضافر الجوانب السابقة يضع نظرية الواقع بكل أطرافها مكونات معرفية تري الكون دون تأطير لفهمنا تكشف بعمق وهمية غير مجد من السائد فتحررنا من الخرافات ولا شرعية القيم السياسية الكلية ، فيتحمل المعلم عناء كشف هذه الوهمية لطلابه الذين يدركون في مراحل تكوينهم أن الكون من حولهم في حاجة إلي إيضاح يغلب عليه الحس الحواري الجدلي وتغليب الكلي علي الجزئي (الذاتي ، الشخص) ، وإنماء الحس القومي ودحض التبعية والتطابق .

فالمعلم خاضع بوعي وبدون وعي لشروطه الموضوعية المادية الحضارية المحيطة به في نفس الوقت الذي لا يخضع فيه خضوعا حتميا لشروط محددة ومعدة سلفا لجعل رسالته هي رسالة نقل وإتباع، دون نقد أو إبداع أو ابتكار .

فالذات المبدعة في تفجر حيوي مادي مستمر ضمن شبكة علاقات معرفية وجمالية وثقافية متعددة ومتنوعة ومتداخلة تميل إلي الانسجام والالتحام والشمولية ، تمتد من ذاتها أولا ثم إلي واقعها الحضاري المحيط بها.

أشير إلي ما سبق ونحن تحت تأثير العولمة بما تفرضه من تحرير نقدي ومالي ومن تحطيم للقيود المفروضة علي حركة رأس المال والسلع ، وما تفرع عنها من سياسات ليبرالية مفرطة، قامت علي صياغتها برامج صندوق النقد الدولي والتكيف الهيكلي وقد أضر ذلك بالبلاد النامية ومن بينها مصر ، فقد انعكس تأثير تلك السياسات علي مجمل التعليم المصري مما جعل دور المعلم محصورا في أداء مهمة وظيفية لا دخل لها بالبناء من أجل الإبداع ، وصنع نهضة تقوم علي التعليم كأساس مهم لها ، فبدون وعي المعلم لدوره الحقيقي لم يستطع الوصول إلي عقل تواصلي يتيح التواصل مع غيره ، وهذا يعني أن مسيرة تطور وعي المعلم بذاته وتطور وعيه بالعالم وبالكون من حوله ،يدخله إلى مرحلة جديدة من الوعي

والاكتشاف والتطور ،بالصيرورة التي تعبر عن علاقة الإنسان بالكون من خلال قدراته حيث يتمكن من صياغة سلوكية لطلابه ،وصياغة لفظية يجسد الوعي بالكون والعالم في مستويات مختلفة ،ويتأسس ذلك في برنامج تربوي نشيط يعمل على التحسن الذاتي للمعلم في ظل التجدد والتطور المستمرين .

فمن حقائق الحياة الاجتماعية أن المنظومة التربوية كيان نام متجدد ، ولعل ذلك يفرض ضرورة التطور المستمر لها في سياق منظور استراتيجي واضح المعالم طويل الأمد كما يفرض أيضا أن تكون هذه المنظومة على درجة كافية من المرونة تسمح بالانتقال والحركة والتغيير فيها [٩].

على ذلك يرى الباحث أن أزمة التعليم في مصر تتمثل في أحد الأبعاد المهمة والتي تتعلق بشكل أساسي بتطور دور وأداء المعلم وذلك بتجديد رصيده المعرفي ، لمواجهة أسئلة الواقع والعلم في زمنه ،مثل هذا التجديد لا يمكن أن يعتمد على ما تجاوزه العصر.

المعلم واللاوعي السياسي الجماعي للشعب :

إن وقوف الشعب على وعي سياسي حقيقي يتطلب إيمانه بقدرته على ابتداع أشكال لا حصر لها لتغيير واقعه المتردي الذي يعيشه على مختلف الصعيد ، وهذا الوعي السياسي الجماعي لا يكتسب مصداقيته على أرض الواقع إلا إذا بني على مقولة علمية ترى أن الإنسان المصري قادر على استعادة ثقته بنفسه وعلى تجاوز الآثار السلبية لكافة الإخفاقات التي يمر بها .

ولا تتم إعادة ثقة الإنسان المصري بنفسه عبر الخطب والمواعظ ، بل بالإصلاح الجذري لبنى التعليم السائدة وعلى رأسها المعلم الذي يقود الوعي لأنها مفتاح ذلك سواء داخل المدرسة أو خارجها في المجتمع المحيط ، وبالتركيز على دور المدرسة في مراحلها الثلاثة غايةً في الأهمية لتشكيل المنظومة المعرفية وآلية الوعي لدي الفرد ليستطيع مقاومة اللاوعي السياسي الجماعي .

و اللاوعي السياسي في المجتمع المصري خلقته إنكفائية بعض التيارات التي صدمتها الحضارة الغالبة فخشيت من استعلائها ، و تحصنت بالماضي ظناً بأن هذا الإنكفاء سوف يحقق وعياً سياسياً كونه رافضاً للحضارة ، و هذا غير صحيح فالحضارة يصنعها تعليم بمعلم لديه الوعي السياسي و ليس بالإنكفاء علي الماضي المجمد دون التفكير في موقفها من التجديد والتطور من حولها .

فالتركيز علي أهمية دور المعلم في إصلاح التعليم حقيقة علمية توصل إليها العالم المتقدم في كل النظم التي سبقتها في مجال تقدم التعليم ، فهناك عاملان مرجحان في تقويم مستوي التعليم في أي بلد و هما [١٠] :

مركز المعلم ومستواه .

طول العام الدراسي .

و انعكس اللاوعي السياسي الجمعي علي المشهد السياسي عقب ثورة الخامس والعشرين من يناير عندما استبدل المجلس العسكري الذي راهن علي تيارات الإسلام السياسي وبخاصةٍ "جماعة الإخوان المسلمين" علي أنها سلطة وعي عميقة ممتدة في الواقع الشعبي والرسمي المصري استبدل سلطته بسلطتهم في فرض ترميمات دستورية بعيدة عن الواقع المصري بكل ما فيها من تيارات سياسية ووطنية ونقابات و نشاطات مدنية

كما فرض لجنةَ خاصة في فرض هذه الترميمات الدستورية بعيداً عن الشعب المصري ، ثم الإعلان الدستوري و الحشد للاستفتاء عليه بتزييف الوعي السياسي ف "نعم" تعني الجنة ، و "لا" تقود إلي النار وهي لعبة ديكتاتورية تسلطية زيفت الوعي السياسي و تم استثماره في الاتجاه الذي قسم مصر نصفين ، وهذا استباق علي الحقيقة و الفعل و التاريخ من أجل غلق أفق الواقع والتاريخ ، فقد تم استبدال أصل سابق بأصل لاحق كما تم نقل العقل الإتباعي الجامد و أُحادية الوعي و جمودية الرؤية و تقليدية الإدراك إلي جسد الواقع الثوري في حالة قصدية لاستغلال الوعي المزيف لدي الشعب المصري ، فتم جنزرة حدود الفهم وخندقت مساحة الرؤية و فرملت حركة الثورة.

و إذا عدنا للخلف قليلاً للنظر في مسألة تطوير المنظومة التعليمية علي أن تكون هي ركيزة الوعي و الفهم لخلق ذلك حيز شعبي واسع يمتد علي خريطة مصر من خلال تعليمه يستطيع هذا الحيز الواسع أن يفرز وينتقي ويحدد الصواب من الخطأ والتزييف من عدمه ،حيث يتحدد هنا دور المعلم الفاعل في رفع نسبة الوعي السياسي و ترقيته ليكون وعياً ناقداً فاهماً و مدركاً لما يحدث حوله ، معلم لديه حرية المراجعة و الفحص والاختيار .

و يري الباحث أن عملية إتمام نقلة مجتمعية مدنية حقيقية لن تتم إلا بتغيير بنية الوعي السياسي و الاجتماعي نفسه ، تتيح الانتقال من النموذج السياسي التسلطي القمعي المبني علي اللاوعي إلي النموذج المدني المؤسسي القائم علي توزيع السلطة والثروة ، و هذا لا يتحقق إلا من خلال المدرسة التي تتأكد فيها جهود المعلم بتحركيه للواقع السياسي المصري بترقية الوعي ، و بخاصةٍ أن الثورة المصرية ابتكرت سلطة المشروعية الجمعية في مقابل الشرعية النخبوية الفوقية ، و أنهت الخطاب المرجعي الواحد الذي يفترض أن هناك بُعداً سياسياً واحداً فعندما شعر الشعب المصري بذاته وكيانه المستقل أمام قوي إنسانية أُخري تتحداه و تجعل وجوده في خطر ، انطلقت طاقاته الكامنة فيه من أجل تأكيد وجوده .

النتائج والتوصيات :

في نهاية هذا التصور يمكن رصد عدد من النتائج والتصورات تتمثل في الآتي :

أن المعلم في الثقافة المعاصرة يتم النظر إليه بشكل تجريدي في عملية تطوير التعليم فيتم تفريغه من مضمون رسالته واستمرار الحفاظ على مستواه العلمي والفكري المتدني وعليه فلا بد القيام على إعداده في ضوء قيم العلم والمعرفة والفكر .

البعد عن إعادة صياغة المعلم وقولبته وفق احتياجات القوى المسيطرة لخدمة مصالحها والاهتمام بإعداد معلم لصنع نهضة وتقدم الشعب المصري .

التأكيد الفعلي على أن التعليم أمن قومي على أرض الواقع .

أن الذات الإنسانية في عالم القيم ، أو الدولة المرتبطة ببناء من القيم ، مندمجة في العالم ، و يتكثف فيها الكون ، و تصبح كوناً مصغراً ينطوي داخله العالم الأكبر حيث لا يشعر فيها الإنسان بأنه يمتلك ذاته منفصلة ، وهو لا يتخارج عنها ، بل إن نفسه هي ذاته و هذا ما يمكن أن نؤصله في إعداد و تأهيل المعلم .

التأكيد علي عدم الخلط بين ثقافة العولمة أي السمات الفكرية والحياتية والمعرفية التي تؤكد العولمة وتعمل علي سيادتها و بين عولمة الثقافة بمعني إزالة الحدود بين الثقافات و الهويات المحلية في صيغة جديدة تحمل سمات عالمية للبشر دون النظر للدين أو العرق أو اللغة أو الطبقة الثقافية علي أن يتم إفهام المعلم ذلك ليكون مدركاً لطبيعة التحولات من حوله .

دعم الثقافة الوطنية ، و التعديل من سلوكها لتتفق و الفطرة الإنسانية ، وتوسع من مجال المشاركة السياسية والاجتماعية ، و تعدل من التفكير ليكون صالحاً في عالم يقترف فيه الإنسان من حل كثير من ألغاز الكون ، وأن يفهم الدين بوصفه عقيدة ومسئولية والتزاماً ، أما إذا لم تحاول الثقافة الوطنية ذلك فإنها تحاصر نفسها في وقت أصبح فيه من غير المتاح لأي إنسان أو دولة أن يعزل نفسه عما يحدث في العالم ، و أن يكون إعداد المعلم وتأهيله علي هذا الأساس .

توصية أساسية و مركزية في هذا البحث : يتم إعادة النظر في طريقة الترقية الخاصة بالمعلمين الذين ما زالوا يعملون في مرحلة التعليم العام (قبل الجامعي) ، حيث تتم طريقة ترقيتهم بشكل تقليدي لا قيمة له

فالترقية الحالية تتم من خلال حضور دورات ترقية من معلم مساعد إلي معلم و من معلم إلي معلم أول و معلم أول إلي معلم أول أ و من معلم أول إلي معلم خبير و من معلم خبير إلي كبير معلمين .و بين كُلٍ منها سنوات بينية تتراوح حسب الترقية من ثلاث سنوات إلي سبع سنوات ، أو تتم الترقية بعمل بحث محدد مجاله فيقوم المعلم بشراء البحث من المكتبة ولا يقرأه والبعض الآخر يقوم بنقله من إحدى الكتب دون أن يدري ما فيه . كل مل سبق لا يفيد المعلم في إعادة تأهيله و إعداده وتحسين مستواه .

و يقترح الباحث طريقة جديدة للترقي الهدف منها تحسين مستوي المعلم المعرفي والعلمي والفكري و الثقافي وهي كالآتي :

تعلن وزارة التربية والتعليم عن حوالي مائة عنوان لكتب في مختلف المجالات والعلوم شاملة بالدرجة الأولي الكتب التربوية الحديثة والمستجدات العالمية .

يطلب من المتقدم للترقية من درجة إلي درجة أن يقرأ خلال المدة البينية الموضحة عشر كتب من المائة حسب ما يختار من عناوين . تتم مناقشته في هذه الكتب العشرة علي أن يقوم بشرح وجهة نظره النقدية و التعليق عليها و يكون ذلك شفهياً تكون لجنة الاختبار لجنة علمية من أساتذة الجامعات بعيداً عن موظفي التربية والتعليم .يتكرر ذلك تباعاً حتى تنتهي مدة خدمة المعلم .يمكن تطوير هذه الطريقة وتعديلها والإضافة إليها حسب ما تقتضيه الحاجة .

أما بالنسبة لعملية التدريب التي تخص الجديد في أداء المعلم وإعداده ومهنيتهُ بشكل دائم و مستمر حتى يكون متواصلاً مع كل جديد في مهنته ، فإن كل مدارس التعليم العام قد تم إنشاء وحدات للتدريب بها تم تفرغ أحد المعلمين بها تماماً لإدارة التدريب داخل المدرسة حيث يقوم بوضع خطة يقوم بها المدربون داخل المدرسة من خلال المحاضرات و المستجدات في وسائل التعليم و تخضع هذه الوحدة لوحدة رئيسية بالإدارة التعليمية والتي تخضع هي الأخرى لوحدة عامة بمديرية التربية والتعليم .

الهوامش

١- عصام الدين هلال : التربية والطريق الثالث ، دار فرحة للنشر والتوزيع ، القاهرة، ص ١٣ .

٢- عبد الرحمن توفيق : التخطيط الإستراتيجي ، مركز الخبرات المهنية للإدارة (بمبك) ، القاهرة ٢٠٠٥ ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

كمـــــــال نجيب : حق المواطن المصري في التعليم ، في عصر الليبرالية الجديدة ، ضمن كتاب الحق في التعليم رؤي و توجهات ، المركز القومي للبحوث التربوية و التنمية ،الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات ، القاهرة ، ٢٠٠٧ ، ص ٩٣ .

٤- فـايز مراد مينا : التعليم في مصر ، الواقع والمستقبل حتى عام ٢٠٢٠مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ٢٠٠١ ، ص ٢٠٤ .

٥- رمضان بسطاويسي : الإبداع و الحرية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص ٧٨.

٦- أيمن تعيلـب : الثورة و الوجود ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠١١، ص ٦٢.

٧- حسن حنفي ، صادق جلال العظم : ما العولمة ، دار الفكر بدمشق ، ٢٠٠٢ ، ص ٤٧

٨- السيد ياسين : آفاق المعرفة في عصر المعلومات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١١ ، ص ٣٥ .

٩- فؤاد أبو حطب : التعليم المصري في القرن الحادي والعشرين ، ضمن كتاب " النخبة وتعليم المستقبل" ، حوارات ورؤي تحرير :ضياء الدين زاهر، المركز العربي للتعليم و التنمية ، القاهرة ، ٢٠٠٩ ، ص ٢١٧ .

١٠- حسين كامل بهاء الدين : التعليم والمستقبل ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ١١٦ .

الفصل الثالث : الثلاثون من يونيو بين التربية وثقافة المقاومة

تعانى التربية من إشكالية إنتاج عنصر الأزمة التي يعانى منها الفكر العربي، والثقافة العربية ، بسبب الافتقار إلى فلسفة تربوية واضحة المعالم والأهداف[١] ، ومن ثم لا يتم تفعيل الواقع تربويا ، حيث لا يتم تفعيل التربية لذاتها ، مثلما يحدث للفكر ذاته ، فتفعيل الواقع فكريا ، لا يتم إلا عبر تفعيل الفكر لذاته ، وتفعيل الفكر لذاته يخرجه من أزماته وعثراته التي يمكن أن تخضعه لعوامل الزوال والاندثار. والفكر السائد في الوطن العربى ـ بشكل عام يكاد يغلب عليه الطابع الأيديولوجى الخالص ، إنه يتسم بالهشاشة النظرية ، التى لا تتيح الاحتكاك المعرفي لحقائق الواقع وضروراته ، واحتياجاته ، وحركته المستقبلية ، ولهذا فهو أقرب إلى تكريس الواقع القائم وإعادة إنتاجه[٢].

وهذا مرده إلى انعدام الوعي بالشئ ، والوعي يتشكل نتيجة لتفاعل الناس مع عالمهم ـ بما في هذا العالم من فكر ـ فإذا حكمنا على الوعي في فترة من الفترات بأنه وعى متخلف ، فإن هذا الحكم يكون على البشر أنفسهم بالتخلف ، لأنهم أخفقوا في إقامة حوار مع واقعهم بالنقد والتحليل ، والثورة عليه ، لكى يشكلوا العالم بما يناسبهم[٣]. وقد كانت ثورة الثلاثين من يونيو في مصر ثورة غير مسبوقة في تاريخ العالم لأنها كشفت عن بنية فكرية ظلت طوال عقود تخدع وتخادع المجتمع ولم تستطع الصمود أمام الفكر الشعبي الرافض للتعمية.

ولما كان الفكر العربي قد اتسم بالهشاشة ، فقد تجلى ذلك في كونه قضى مئات السنين ، يعيش ثنائيات دائمة لا يرى نفسه إلا من خلالها ثنائية الحديث والقديم ، الأصالة والمعاصرة ، الديني والعلماني ... الخ وهكذا "لم يقم الفكر النظري العربي في العقود الماضية ، وبقدر تبنيه هذه الثنائية كواقع ثابت وطبيعي إلا بإعادة إنتاجها"[٤]. وقد ظهر ذلك في مصر بعد ثورة الثلاثين من يونيو في ثنائية الديني والعلماني فقد صار الدين قناعا لإضفاء الشرعية لتمرير سياسات العمالة للغرب وضرب المشروع الوطني في مقتل وتفكيك الوطن والدين برئ من من كل ما حدث .

ومن أسباب شيوع هذا الفكر المتطرف "أن الفكر العرى المعاصر لم ينجز ـ بعد ـ النقلة الكيفية الضرورية للدخول في العصر والاشتراك في إنتاج علوم اجتماعية عالمية الآفاق وعلى مستوى التحدي التاريخي ، الأمر الذي يترتب عليه خطر جسيم ومخيف هو خطر "تهميش العرب في إنتاج المستقبل الإنساني"[٥].

وقد أدى ذلك بطبيعة الحال وبخاصة بعد تراجع الحركة الثقافية التنويرية العربية إلى تراجع الاهتمام العام بالفكر بشكل كبير ، فبعد هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ بدأت مراجعة ومحاكمة الفكر والثقافة من خلال كشف أبعاد تلك الهزيمة وما الذي قاد إليها؟ وبدأت مرحلة جديدة من مراحل التنقية والبحث. وبالتالي كان لابد من بزوغ عنصر المقاومة لإعطاء المسميات أسماءها الحقيقية ونفض الغبار المتراكم على الفكر الحر البناء باتجاه عصر وصل في تقنياته إلى أبعد مما يتصور الإنسان ، عصر لا مجال فيه للجمود ، اللاحسم ، التراجع ، الشكليات ، الهامشيات. الخ.

فقد برع الفكر العربي المعاصر في إنتاج ثنائيات متعارضة بالضرورة ، بمعنى أخر في تلك الآلية الفكرية المسيطرة على العقل العربي ، التي تصور العالم على أنه أضداد متعارضة لا تلتقي ، وإن التقت فذلك يكون نوعا من التوفيق ، أو التلفيق الذي لا يصمد طويلا ، وتبقى جذور الثنائيات المعارضة.

وفي الحالة هنا نجد أن المثقف العربي ، يجب أن يكون مع السلطة أو مع الجماهير وفق تصور إيديولوجى معين ، ولكنه لا يمكن أن يكون مع الاثنين ، يجب أن يكون مع أو ضد ، وعلى موقفه بين هذين يتحدد وضعه كمثقف هذه الآلية ، الفكر ، التي ينظر بها إلى العالم المحيط سواء داخليا أو خارجيا ، هي ما يجب إعادة النظر فيه ومحاولة تحليلها ونقدها[٦]. من خلال الوعي النقدي الذي ينتقد الفكر ذاته ، فإننا نقرأ الفكر باعتباره نصا له سياقه المجتمعي التاريخي وقد جرى عرضه في صياغة لغوية لها شروطها المعرفية والوجودية ، زمانا ومكانا ، إنه أصبح منتج اجتماعي أو نشاط اجتماعي تلاحمت فيه الذات والموضوع وله تاريخه النشوئى التكوين التطورى[٧].

ففي ظل غياب الروح النقدية تعمقت ثنائية الهوية ـ الحداثة ، وبات إنكار الذات شرطا للانخراط في الحداثة ، ورفض الحداثة شكلا لتأكيد الذات ، فمن خلال تشكيل صورة الآخر ـ الغرب تشكلت لدى العربي صورته الخاصة ، فهو يرى نفسه صغيرا وهامشيا لا عقلانيا ، ولا معنى لوجوده من جهة ، وعظيما وفذا ووريث حضارات وأمجاد لا تبلى من جهة أخرى[٨].

هيمنة بنية معرفية ثابتة:

يشير محمد عابد الجابرى في دراسته لبنية العقل العربي إلى أن هناك بنية معرفية (ابستمولوجية) ثابتة مهيمنة طوال التاريخ العربي كله ، وهى بنية ثلاثية الأطراف تتمثل فى[٩]:

سلطة اللفظ.

سلطة الأصل التي تقوم على قياس الغائب على الشاهد.

سلطة التجويز أي اللاسببية.

وهذا ما يؤكد سيادة السمة التوفيقية في الفكر العربي سواء كان قديما أو حديثا ، ويؤكد محمود أمين العالم على أن تجاوز هذه الثوابت المعرفية ، إنما يتم من داخل التراث نفسه ، ويحدد المشروع الثقافي في الأندلس مرجعية لذلك متمثلا في ظاهرية ابن حزم والشاطبي ، وعقلانية ابن رشد ، وتاريخية ابن خلدون[١٠].

فالمعوق الأساسي في بناء فكر جديد ومتجدد هي مواجهة التقليد والموروث السلبي أي للأفكار القديمة المتوارثة والراسخة في الوجدان والتي توجه سلوك الناس وتفكيرهم وقد كانت تلك أولى مشكلات ابن الهيثم ، وهو بصدد تأسيس أفكاره العلمية في "كتاب المناظير" ومشكلة الغزالي في مواجهة أفكار الفلاسفة التقليديين.

ويتطلب التغلب على ذلك الاهتمام الكبير بالعقل البشرى وإعطائه الفرصة للإبداع في حرية والبحث في كافة القضايا المعرفية ، فالاهتمام بالعقل البشرى وإمكاناته وأساليب نموه وتطويره ، وبعده عن التقليد والجمود والسكون ، يبرز لنا من دون شك ملامح المنظومة التربوية المميزة للألفية الثالثة ، فهي ألفية تراهن على تفتيح عقول المتعلمين ورعايتها ، وتلعب دورا فعالا في مجتمع ما بعد الصناعة ، ذلك يتطلب من الفرد أسلوبا عاليا من التكيف المعرفي الذي يعلى من شأن التفكير الجيد والقيم التنويرية الرشيدة ، في عصر استطاع العالم فيه أن يحقق نوعا من التزاوج بين الكمبيوتر ، والعقل البشرى على أجهزة كمبيوتر متطورة. وإذا ما دخلنا في هذه العملية من التفاعل بين التنمية الهائلة والشاملة لإمكانات العقل البشرى ، فضلا عن التطور الهائل في الهندسة الوراثية ، والتقدم المذهل في تطوير الإنسان الآلي ، والتحكم عن بعد ، والتقدم الكبير في التكنولوجيا فائقة السرعة ، فنحن في إطار منظومة جدية تشكل نقلة في قدرات الجنس البشرى[١١].

وقد نتج عن ذلك سيادة أنماط من التفكير لا صلة لها بطابع التفكير العقلاني والعلمي ، مثل التفكير الغائى[١٢] ، وصياغة الأحداث بطريقة التفكير الخرافية أو الأسطورية علاوة على إفراط البعض في الغيبيات ، والدعوة إلى نبذ التفكير في عالم الواقع واستبداله بعوالم أخرى. وهذا في مجمله يعكس الأسس التي تقوم عليها عملية تفسير الطبيعة ، والواقع والظواهر والمشكلات التي تتم فيه ، فكل طرق التفكير غير العلمية وغير العقلانية تنطلق من أسس ذاتية صرفه في تفسير الظواهر والأحداث سواء في الطبيعة أو في واقع الحياة[١٣]. يحدث هذا والعالم يتجه نحو مرحلة متقدمة جدا من العولمة الشاملة التي تؤسس لثقافة كونية تتجاوز كل الحدود الجغرافية ، ولم يعد المفكر العربي بمقدوره أن يظل أسير التقليد والجمود والثقافات الضيقة ، بعد أن تداخلت في وعيه جميع الثقافات بشكل لا مثيل له في السابق ، فقد أصبح الآن متعذرا البقاء في الماضي دون حركة جادة نحو المستقبل.

والعرب كانوا منفتحين على الآخر في لحظات قوتهم ، فالترجمة كانت سائدة ، وانفتاح ابن سينا على فلسفة أرسطو ، والفارابي على فلسفة أفلاطون خير مثال ، وكان الخطاب العربي في أوقات القوة يطالب بالانفتاح على أما في الخطاب الضعيف فإن الخطاب يتمحور حول الحفاظ على. وليس أمامنا إلا أن نعترف بأننا جزء من هذا الكوكب مع الاحتفاظ بقيمنا الأصيلة ، وتفعيل الفكر النقدي للوافد الحديث والتراثي الأصيل من أجل المحافظة على هويتنا من جهة وتجديدها وعصريتها من جهة أخرى[١٤]. فالإنسان العربي له دور فاعل على مر التاريخ ، استوجب ضرورة قيامه بهذا الدور من أجل إحداث التغيرات الفكرية والثقافية ، وهذا ما نحتاجه في عالم اليوم. فهيمنة بنية معرفية ثابتة تحول بين العربي والإبداع والتجدد الحضاري لأن البنية المعرفية الثابتة ترفض الحوار والاختلاف والتجدد والإبداع حيث تكون بمثابة الحلقة المفرغة ومن ثم كان لابد من وجود ثقافة المقاومة دحضا لتلك المماثلة والمشابهة.

تناقضات الإنسان العربي:

وتقع تناقضات الإنسان العربي ، في أنه أسير التمظهرات المتناقضة للغرب، يراه مرة غرب التنوير ، والحرية ، والحداثة ، ويراه مرة أخرى غرب الاستعمار والبطش والتدمير وهو أيضا أسير الرؤى المتناقضة للذات والهوية ، ينزع أحيانا إلى تجريح الذات وتدميرها ، ويميل أحيانا للتباهي والتعظيم ، والشعور بالغنى الحضارى[١٥].

وهذا يتطلب طرح "سلاح الاختلاف الواعي" مع الآخر الذي من شروطه إعادة نظر نقدية للعلاقة التي تربط الثقافة العربية الحديثة بأصولها الموروثة من جهة ، وبالثقافة الغربية من جهة أخرى[١٦]. في ضوء هذه النظرة النقدية الواعية تعلن الثقافة العربية عن أسئلتها الخاصة مستجيبة لما تمليه الظروف ، وما يفرضه الواقع العربي ، لا استجابة لسياقات ، وأنساق ثقافية بعيدة عن المعطيات الراهنة، سواء كانت من الماضي أم من حاضر الثقافات الأخرى.

هل الاختلاف الواعي هو آلية فاعلة بديلة عن التماهى مع الآخر الذي ينتج الاستلاب ، أو التباهي بالأنا الذي يعزل الوعي عن متغيرات الواقع المعاصر؟، إن هذا الاختلاف هو نزوع إلى تعميق الشعور الواعي بالذات وتحقيق الحوار ، والتفاعل الخصب مع الآخر بعيدا عن السجالية والروح الامتثالية[١٧].

والنظرة الناقدة للفكر ضرورة حياة ، سواء أصابت أو أخفقت ، لأنه لا ينشأ فكر من فراغ ولا يكتب له البقاء والاستمرار إن لم يعارضه فكر آخر ، لأن الفكر ينشأ مبشرا بشئ ما ومهاجما لشئ ما ، تلك طبيعته ، ومن نقد الفكر ، ومن نقد النقد من تبادل الأفكار للهجوم والدفاع تتجدد الحياة الفكرية ، وتنشأ التكوينات العقلية المتطورة ، المعقدة البنية ، وتنزوي التكوينات الساذجة في عالم النسيان ، وتصبح تاريخا نقرأه في برود[١٨].

وحركة النقد الفاعلة تكرس للتنوير ، لأن التنوير لا يتكرس إلا بواسطة حركة نقدية فاعلة ، وداعية ، تبدأ بنقد الذات ، وآليات التفكير لتصل إلى نقد النظم والمؤسسات ، ولم يكن التنوير في أوربا سوى عصر النقد الشامل لكافة أنماط الحياة ، والمجتمع ، والمعرفة ، كان عصر العقلانية ، وسيادة الفكر الحر ، وذلك ما تأسست عليه الحداثة الغربية[١٩].

وهذا ما يدفع بالطبع لتبنى تربية لتنمية الوعي النقدي يكون محورها إيقاظ الروح النائمة والمراقبة والتفكير ، ثم الانتقال من النقد إلى البناء من تشخيص الداء إلى وصف الدواء تداركا للواقع الاجتماعي المتداعي ، وغير المتماسك، مع تبنى النظرة المرنة إزاء الجماعات والمعاني.

ويقتضى ذلك حضورا لثقافة المقاومة المتركزة على الحرية ، كي تتوافر فرص النقد الواعي والتعبير ، والدعوة إلى التغيير ، وتناول القضايا بواقعية بعيدا عن أجواء التسلط ، والعنف المادي أو المعنوي ، حيث إنه إذا كان هناك من يريد الانفتاح للعقل العربي ، فإن هناك من يريد محاصرة هذا العقل ومنعه من الانفتاح وتقييده.

الموقف من الحداثة:

مفهوم الحداثة وخصائصها:

يوضح الدكتور عبد الفتاح تركي في كتابه ما بعد الحداثة خصائص مجتمع الحداثة بقوله[٢٠]:" بدأت الحداثة مع ظهور حركة التنوير في القرن السابع عشر ، حيث بدأ إعلاء شأن العقل وإخضاع حياة الإنسان إلى التفكير العقلاني واستبعاد التفكير الديني حيث تأخذ الوضعية مكانة خاصة في تطور المجتمعات نحو الحداثة ، والتي تختص بعدة خصائص مهمة تنحصر في الآتي: العقل ، وهو وحده القادر على بلوغ الإنسان الحقيقة ، كما أن الظواهر الإنسانية تخضع للتفكير العقلاني ، شأنها شأن الظواهر الطبيعية ، بالإضافة إلى فصل الإنسان بين ذاته وتفكيره ، كما تعتبر الحداثة الموضوعية والحياد أساسان مهمان لبلوغ الحقيقة كما أن تنظيم المجتمع بمختلف أبنيته ومؤسساته هو من صميم عمل العقل البشرى ويضيف الدكتور ـ عبد الفتاح تركي ـ أن النضال ضد الظلم والاستعباد والاستبداد وعدم المساواة والجهل غايات أساسية في مجتمع الحداثة ، المجتمع العقلاني ، وفي هذا المجتمع تسقط الوراثة ، وانتقال المكانة من الآباء إلى الأبناء ، ويقوم التعليم بفرز العناصر المناسبة لمختلف المناصب."

كما يرى البعض أن الحداثة هي وريثة النهضة ، وحفيدة التنوير ، تلك الموجة الحضارية التي أثرت في فكر الغرب ، ومن بعده فكر العالم بأسره ، لقد نجحت الحداثة في أن تخلص أوروبا من فكر العصور الوسطى ، وشحذت وعى الفكر الأوروبي بواقعه وحثته على أن يلتقط ويسجل ويقنن ظواهر هذا الواقع ، وأن يستحدث أدوات معرفية جديدة للوصول إلى الحقيقة ، والكشف عن الزيف ، لقد نسف فكر ديكارت جميع الدعائم التي قام عليها فكر القرون الوسطى ، ليقيم محله صرحا فلسفيا متكاملا ، أساسا مطابقة العقل بالواقع ، فكما يتطابق هذا العقل مع الأشياء ، كذلك تتطابق الأشياء معه.

لقد ورثت الحداثة عن فلسفة الإغريق احتفاءها الزائد بالعقل والعقلانية ، ونزعتها إلى رؤية الإنسان وعالمه في صورة كلية[٢١].

ومن ناحية أخرى فإن الدخول في معترك الحياة بالنظر إلى مستقبل هذه الأمة فإنه لابد أن نضع نصب أعيننا مبادئ ثلاثة تكون دعائم طرحنا الفكري والوجودي والتي يمكن إيجازها في الآتى[٢٢]:

أولا: الأخذ بصيغة الحداثة "النزعة" *Modernity* ، وليست الحداثة المذهب *Modernism* فالأخيرة مسألة خاصة بتطور الغرب قادته إلى مشكلات ما يعرف بـ ما بعد الحداثة ، *Post-Modernism* قصر العقل على الأداتية ، والاغتراب المتزايد وأن تقنع التكنولوجيا ، فالنكوص الفكري عن مجابهة الزخم الرأسمالي عابر القارات أما الأولى (النزعة) فتعبير عن روح وثابة تقتحم المجهول ، ولا تعترف بالجامد المتحجر ، ولا تتوهم اليقين في عصر اكتشف أن كل القيم ـ سواء في الطبيعة أو في الفكر إنما هي قيم نسبية تحتمل الصواب والخطأ بحسب المنظور الثقافي ، وباعتبار النسق الزمانى/المكاني ومن ثم يتعين على من يسعى للتحديث أن يقبل بالتعددية الثقافية ، وأن يتصدى للمذاهب والنزعات الشمولية بشجاعة الجندي ، ونزاهة القاضي ، وبراعة الطبيب ، فضلا عن تصديه للنقد لخطاب الحداثة الغربية التي تمذهبت كي يتجنب أعراضها السلبية السالف الإشارة إليها.

ثانيا: ليست الأصالة قرينة الأصولية ، فالأولى تعنى الجدة والأولوية والسبق والتفرد والتميز ، بينما تعنى الثانية الاحتكام إلى السلف والارتكان على ما تحقق في الماضي ، والسير على نفس الدرب القديم فالأصالة تعنى الإبداع لأنها تعنى إنتاج الأصل ، والثانية تعيد إنتاجه في ظروف غير ظروفه التي تحقق بها حيث تهتم بالإتباع وليس الإبداع.

ثالثا: الكتابة الحقيقية قيمة انطولوجية قائمة بذاتها ، علاوة على كونها محركا إبستيميا لفهم الوجود وتغييره في آن ، وآية ذلك ما أثبته العلم في عصرنا من أن اللغة ليست مجرد وعاء للفكر ، بل هي الفكر ذاته ، من حيث أنها لا تكون إلا بوجود الآخر. والكتابة الحقيقية تعرف بمستواها الرفيع وبمضامينها المثيرة للجدل والاستنفار للأسئلة الجادة حول الإشكاليات الحقيقية المطروحة على عقل الأمة.

فالحداثة في جوهرها هي التأكيد على أن الإنسان هو ما يفعله وليس ما يفعله به التاريخ ، هى الوعي بأن التاريخ مجرد تصور ذهني يفترض كائنا متعاليا "ترانسندتيالى"[٢٣] له غاية محددة سلفا. الأمر الذي يفضى إلى الإيمان بالحتمية ، وإعلان موت الإنسان منذ البداية.

تعرية تناقضات المجتمع العربي:

ولثقافة المقاومة أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، لأنها تعبر عن إرادة الحياة ، إرادة الوجود ، لأنها لا تعد فكرة وقتية بل إنها تعد فكرة راسخة وأصيلة في عقول ووجدان أبناء كل أمة من الأمم ، وثقافة المقاومة في وقتنا الحالي ضرورة حياة في حياة شعوبنا العربية ، فإسرائيل تقضى على كل مظاهر الحياة في فلسطين ، تعتدي على الأبرياء الذين يدافعون دفاعا مشروعا عن حقهم في الحياة والبقاء.

فنحن أمام حالة عجز عربي فاضح ، ويتساءل الكثيرون: هل معيار نظم الحكم العربية بين الضغوط الخارجية أمريكا وإسرائيل ، والضغوط الداخلية الشعوب والرأي العام هو المسئول عن حالة العجز العربي؟ لقد ارتبطت مصالحها بالخراج بالاعتماد شبه الكامل على القوات الأمريكية الفتى مازالت رابضة في الخليج ، وعلى المعونة الأمريكية لمصر والأردن ، وعلى التسليح الأمريكي، والاستثمار الأمريكي ، وطبقة رجال الأعمال في الداخل ، ونمط الحياة الأمريكي ، والثقافة الأمريكية عبر قنوات الفضاء ، ولما كانت نظما في مجموعها لا تستمد شرعيتها من انتخابات حرة ، ونظم ديمقراطية سليمة فإنها تجد في التأييد الأمريكي في الخارج تعويضا عما ينقصها من شرعية دستورية في الداخل[٢٤].

كما خلقت الإستراتيجية الأمريكية المعلنة لفرض تغييرات تمس بشكل خاص الصعيد السياسي والثقافي في المنطقة توترات وتوجسات في حقوق الأنظمة، وبين الأنظمة ومحيطها الإقليمي والدولي وبين الأنظمة وشعوبها بشكل خاص. لقد تحولت المنطقة العربية إلى نقطة جذب قوية للاهتمام في الحملة الدولية لمكافحة الإرهاب (على حد زعم الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا) ، فمن ناحية قدمت مسرحا للمواجهة بين المجموعات الإرهابية والأجهزة الأمريكية والحكومية العربية من جهة أخرى ، كما لجأ العديد من الحكومات العربية إلى توسيع ملاحقته للتيارات المعارضة وتصفية حساباته مع جماعات المعارضة السياسية للأنظمة القائمة في ظل موقف عالمي يتراوح بين الرضا واللامبالاة ، ومنظمات رأى عام ، وحقوق إنسان أقل تطلبا من المعتاد فيما يخص حقوق الإنسان في ظل التهيب الذي ولدته حملة التصدي للإرهاب والإرهابيين مما انعكس سلبا على الضمانات القانونية للمواطنين ، والحريات العامة ، وقاد انتهاكات كثيرة مست الأفراد والجماعات[٢٥].

وتكشف ثقافة المقاومة من خلال تسليطها الضوء على الحاضر وأحداث الماضي عن الأسباب التي من أجلها تقبل العرب الإهانات المتكررة ، مثل حصار العراق واستمراره أكثر من عشر سنوات بعد حرب الخليج الثانية بلا مبرر ، واستمرار الغارات والقصف اليومي ، وقبول العرب الحصار من دون أن يتجرأ نظام عربي على خرقه ، حتى يتحول الوطن العربي إلى عراق كبير ، تحاصر أجواؤه وبحوره ، ومحيطاته وسواحله. والغرض من ذلك كله تدمير العراق عسكريا وتشتيت القوى العربية ، وإضعاف الجبهة الشمالية بعد محاصرة إيران ، حتى يتم تصفية القضية الفلسطينية ويتم حصار ليبيا قبل أن تدان أخذا بالشبهات[٢٦].

وأخيرا ما حدث من مجازر وحشية على جنوب لبنان وضواحيها ، تقوم به آلية الكيان العسكري الإسرائيلي بمباركة وتخطيط أمريكي أمام صمت عربي لا يتجرأ حتى على شجب هذا العدوان. ثم نجد تقسيم السودان والحرب في سوريا ثم المؤمراة على مصر لتقسيمها ولكن الشعب أسقط تلك المؤامرة وامتلك زمام أمره.

وتبرز أهم الأسباب الرئيسية في تقبل العرب هذه الإهانات في إقالتهم شعوبهم من الحياة بغياب الديمقراطية والحرية والعدالة من خلال سيادة القهر والقمع وفرض الهيمنة من قبل الحكومات العربية على شعوبهم .

بناء الوعي النقدي:

تؤصل ثقافة المقاومة بناء الوعي النقدي الذي يرفض استمرار عقل الاسم الذي يؤدى إلى وعى جماعي زائف ، فيمكن أن يكون الوعي الجماعي مجرد وهم بالنسبة لوعى فترة تاريخية أخرى ، كما كان الحال مثلا في الجاهلية ، ومن ثم لا يكون الخروج عن الجماعة تطرفا دائما ، بل قد يكون مفارقة ضرورية للتغيير.

إن الجماعة لا تفرض رؤيتها للعالم على الفرد فحسب ، بل تفرض عليه الخوف من التفكير ، لأن التفكير يعنى التفرد بما يصحبه من وحدة ، ويعنى إحلال اللإرادية محل اليقين المستمد من الجماعة ، والتضحية بالانتماء في مقابل الشعور بالحرية. ولو كان الناس مغرمين بالحرية حقا ، لما كان في العالم استعمار ولا تبعية ، لهذا قد يعيش مجتمع من المجتمعات قانعا بوهم زائف ، ووظيفة النقد مهاجمة ذلك الوهم بالحفر في التربة التي نمت فيها جذوره[٢٧]. وهذا ما شاهدته مصر مؤخرا في مقاومة الشعب المصري للنظام الحاكم قبل ثورة الثلاثين من يونيه في العنف من قبل مؤيدي ذلك النظام الذي حاول تفكيك الوطن .

ولإيقاظ الوعي الذي يؤدى إلى فهم الحقيقة ، وتفعيل دور الفعل قدم "باولو فريرى" رؤيته للمقاومة من خلال الوعي في إطار كتابه "تعليم المقهورين" وتركزت أفكار الكتاب الرئيسية حول كيف يستطيع المقهورون أن يسهموا في تطوير أسلوب تعليمي يستهدف تحريرهم ، وأكد "فريرى" أن تعليم المقهورين كمقاومة ثقافية ، وممارسة إنسانية من أجل الحرية يمر بمرحلتين متمايزتين:

في المرحلة الأولى يبدأ المقهورون رؤية جديدة لمجتمع القهر ، يتعرفون خلاله على عالم القهر ، أي يستثير التعليم وعى المقهورين بحقيقة وجودهم ، وحقيقة وجود القاهرين ، ومن خلال ممارسة المقهورين للنضال يلتزمون بتغيير العالم.

وفي المرحلة الثانية ينزع المقهورون عن أنفسهم الأوهام التي خلقتها في نفوسهم ظروف القهر ، وهنا لا يصبح التعليم من أجل تحرير المقهورين فقط بل يصبح من أجل جميع الناس لتحقيق حريتهم الدائمة ، وفي كلتا المرحلتين فإن المقاومة وحدها التي تتصدى لثقافة التسلط[٢٨]. وترتكز آليات التربية التحريرية كما يطرحها "فريرى" في التعاون والوحدة من أجل التغيير والتنظيم والتآلف الثقافي.

ولا يتم ذلك إلا من خلال بناء الوعي النقدي ، لأن ذلك الوعي يخلق حالة من الحركة والتغيير تدفع باتجاه محاولة القضاء على الحالة المهيمنة وأيضا الجمود وبخاصة في الفكر التربوي ، ومن ثم تتأكد فعالية ثقافة المقاومة ، حيث تنشأ المقاومة من خلال الصراع في نظرتها للواقع الاجتماعي.

التوعية بمخاطر الثقافة المسيطرة (المستبدة):

المقاومة لا تتم ولا تستمر إلا باستكمال كل الوسائل ، نظرية ، عملية ، ثقافية حزبية ، والانفتاح على الآخرين للاستفادة من تجاربهم ، وليس من أجل الخضوع لهم وبحيث لا نتردد في إعلان المقاومة إذا شعرنا بخطر من دول أخرى تقوم بتهديدنا في مصالحنا الجوهرية وتنازعنا في حقوقنا المشروعة[٢٩].

إن أي ثقافة تفرز مثقفيها ليقودها إلى ما تعد به ، وهذا لا يدفعنا إلى الانقياد إلى عقول مخادعة باعتبار أنها تمثل ثقافتنا دون غيرها ، هذه العقول قد لا تكون الممثل الحقيقي لثقافتنا مهما كان تميزها وإنجازها ، بل أحيانا مما تكون مضادة لثقافتنا من خلال إعاقة تلقائية وعى الناس الأعمق ، وهذا يحدد في ثقافة المقاومة ما يسمى بالاستبداد الثقافي أو الثقافة المستبدة.

وقد ربط علماء الاجتماع والتاريخ والثقافة بين الثقافة الشرقية والاستبداد الشرقي وجعلوه مرتكزا على الدين ، وهو ما عبر عنه "الكواكبي" أيضا في "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" لا فرق بين الله والسلطان ، وصفات الله وصفات السلطان في الوظيفة الثقافية ، لذلك كثيرا ما أدعى السلاطين الألوهية منذ فرعون في حين ظهرت تصورات أخرى للمعارضة الشيعية ، تجعل الدرجات من الماضي إلى الحاضر ، ومن الخلف إلى الأمام في تاريخ النبوة ، فمنذ آدم أول الأنبياء، حتى محمد خ آخر الأنبياء ، وهو تصور أقدر على المقاومة ، وعلى الفعل في التاريخ الأعلى هو الأمام والأدنى هو الخلف ، "فالسابقون السابقون"[30] "فاستبقوا الخيرات"[31] ، "لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر"[32]، وهو تصور لم يعش في ثقافتنا الموروثة ، لذلك فشلت تجاربنا التنموية ، لأنها قامت على التصور الرأسي وليس على التصور الأفقى[33].

والحديث عن سلطة مستبدة تقمع الثقافة لا يمنع الحديث عن ثقافة مستبدة تساعف السلطة. فوظيفة المثقف تتحدد بعلاقته بجهاز الدولة أولا حيث يمارس هذا الجهاز دورا إداريا معرفيا يقوم بدوره في إدارة وتوجيه أجهزة الدولة ، ويقوم بإنتاج معرفي داخل أجهزة الدولة ، وبفضلها يكون المثقف في الحالتين جزءا من السلطة ، مع ذلك فإن انتماء المثقف إلى السلطة يعود إلى الطبيعة الداخلية للعمل الثقافي الذي يمنح المثقف مرتبة اجتماعية تضعه فوق من لا يعرف[34].

مع أن المثقف هو من يستوعب ثقافة ناسه بدرجة من الوعي الفائق المسئول الذي يمكنه من أن يساهم في تعميق الإيجابيات ، وتحريك جماعته لصياغة البني الأعلى فالأعلى ، التي إذا ما وصلت إلى درجة من الرقى والإنجاز والقيم الإنسانية القادرة على العطاء والانتشار سميت حضارة[35].

إلا أن علاقة المثقف بالسلطة علاقة عضوية كونها قامت على مرتبة ، لأن المرتبة كما التراتيبية بشكل عام تمثل جوهر السلطة وقوامها ، يلتقي المثقف بالسلطة في علاقة مزدوجة ، علاقة خارجية تتجلى فيها الإدارة وإنتاج المعرفة ، وعلاقة داخلية تتمثل بالمرتبة ، وإعادة إنتاج المرتبة ، تقمع السلطة الرعية باسم القانون ، ويقمع المثقف العوام باسم المعرفة مع فرق أساسي يلغى التناظر الواهي بينها ، فالمثقف لا يقنع العوام إلا اعتمادا على قوانين سلطوية تعرف النخبة وتحدد العوام[36].

وهذا يمنح العمل التربوي أهمية بالغة ، لأن أثره الخاص يفوق حتى أثر النفوذ السياسي القسري ، والصارم ، لأن العمل التربوي قادر على إدامة نموذجه التعسفي الذي يفرضه لمدة أطول مما يستطيع أن يحققه النموذج السياسي ، لأن من أهم سمات التطبع التربوي أنه يمتلك قدرة كبيرة على الانتقال ، إضافة إلى طابعه الشمولي مما يكسبه حضورا ترسيبيا في أذهان المتلقين ، بترسيخه نسقا من القوالب الإدراكية والفكرية والتقيمية والعملية بحيث يسمح للجماعة أو للطبقة التي "تزود النشاط التربوي بالصلاحية ، بإنتاج ومعاودة إنتاج لحمتها الثقافية والأخلاقية دون اللجوء إلى القمع الظاهر أو خاصة إلى العقاب الجسدي"[٣٧] دون أن ننسى أن العمل التربوي يستند إلى السلطة التربوية كشرط مسبق لمزاولته مؤديا إلى إثبات وتكريس هذه السلطة ، وشرعيتها من خلال إنتاجه للمستهلك الشرعي/ المتلقي.

التبصير بتناقضات النمط الثقافي السلطوي:

تفرض السلطة المستبدة نمطا ثقافيا سلطويا يقاوم وذلك من خلال تعبيرات ناهضة تحاول صياغة ذاتها ، وتأسيس وجودها في مقابل النمط المتشكل بوصفه سلطة كلية ذلك أن المثل الذي تنشده التعبيرات غير النمطية هو مثل حيوي له صفته التاريخية أى أنه ينفتح على الاستيعاب ، ويقبل النمو والتغيير ، وهذه القابلية تعرفه لنا بكونه حقيقة اجتماعية تنبثق من صميم الواقع وترتبط معه في علاقة جدلية تسهم بموجبها في إعادة تشكيل هذا الواقع الذي تشكلت به. وخلافا لذلك فإن المثل الأعلى الذي يقدمه النمط هو أزلي أبدى متعال على الحياة ، ومتحكم فيها ، ويأخذ هذا التحكم اتجاها نازلا من أعلى يتعامد مع الحياة إذ يختزلها في سطحها الأفقي ويلحقها به[٣٨]

إن العلاقة المتبادلة بشكل لا متكافئ بين سلطان يحتاج إلى التبرير ، ومبرر يحتاج إلى سلطان هى في أساس استمرار الشكل المؤسساتي ، المثقف ، السلطة ، والثقافة السلطوية، وإذا كانت تلك الثقافة قد مزجت قديما بين السلطان والمقدس، وقدست العارف الذي يقدس السلطان ، فإنها في شكلها الحديث واصلت سيرتها الأولى بعد أن غيرت القناع الذي يقع عليه التقديس ، فقد كان المقدس يشير إلى شخص يقول بالجهاد ويمثل ظل الله على الأرض ، فانتقل في الزمن الحديث إلى جهاز الدولة الذي يكتسح في اتساعه المجتمع ويلغيه. أصبحت الدولة هي المقدس وسقط ما عداها في خندق المروق وفي الحالتين أفرزت السلطة الكاتب المرتبة الذي يحمل في وجدانه المقدس ، لأنه يدافع عن سلطة لا خارج لها [٤٠].

ذلك مع الأخذ في الاعتبار التزام النظرية التربوية خلال تاريخها الطويل بالنظر إلى المدارس في ضوء الفصل بين السلطة والمعرفة ، والفصل بين الثقافة والسياسة ففي صورتها المحافظة والليبرالية اعتمدت على خطاب سياسي هدفه فكرة التكامل والإجماع ، ورؤية سوسيولوجية تقوم على مفهوم التوازن ، وبالتالي تم تجاهل فكرة الصراع والتناقض ، وهكذا لم تقدم النظرية التربوية التقليدية أي أساس حقيقي لفهم العلاقة بين مفاهيم الإيديولوجية والمعرفة والسلطة ، أي أن هذا المدخل قد خلا من أي محاولة للتفكير في التطور التاريخي لما تسميه المدارس "معرفة حقيقية" أو كيفية انتقائها واستخدامها ، وإضفاء المشروعية عليها[٤١]. مع الأخذ بنظر الاعتبار أن علاقات القوة تحدد نمط الفرض الذي يميز نشاطا تربويا معينا وذلك بوصفه نسقا من الوسائل الضرورية لفرض نموذج ثقافي تعسفي ، ولتمويه ما لهذا الغرض من تعسف مزدوج[٤٢]. أي من حيث أنه مزيج من تقنيات العنف الرمزي ، وتقنيات تمويه شرعية هذا العنف ولذا تكتسب المرجعيات التربوية ، أو المرسلون التربويون أهلية وصلاحية لإبلاغ ما يريدون فارضين على الآخرين تسلم رسائلهم ، لكون هؤلاء الآخرين المرسل إليهم مهيئين لاستقبال الرسالة واستبطانها[٤٣].

بذلك تسيطر السلطة الحديثة على المعرفة من أجل إنتاج معرفة تمنح السلطة شرعية وتعيد إنتاجها بوصفها سلطة شرعية ، فتبدو السلطة أثرا لاصطفاء طبيعي قائم على الموهبة والجدارة ، ويصبح الذكاء عنصرا في السلطة ومنها ، بل قاعدة لوجودها ، فالسلطة هي الذكاء ، والشعب هو الغباء ، وتلك عنصرية الذكاء وهى خاصة بالطبقة المسيطرة ، ويبرهن على تفوقها ويسوغ امتيازاتها ، ويدلل على حقها في إخضاع الطبقات الأخرى[٤٤].

والسؤال هنا يتعلق بالطريقة التي تعمل من خلالها السلطة في تأكيد شرعيتها لخدمة امتيازاتها ، وإضفاء الشرعية على كل ما تراه يصب في مصالحها ، ومن هذه الطرق المستخدمة صناعة نجمها الثقافي ، وإنتاج لغة خاصة بتمجيده ، وكما تصنع السلطة هذا النجم الثقافي ليكون نجاحه هو نجاحها ، فإنها تنتج لغة تمجد النجم الثقافي في تمجيدها للسلطة التي خلقته. وهى لغة جوهرها المسافة والاختلاف تتحدث عن اللامع ، الألمعي ، المتميز المرموق ، وهو حديث في اللحظة ذاتها عن: المبهم ، البليد ، المبتذل ، الغبي ويمكن لهذا الحديث أيضا أن يتتابع في ثنائيات شهيرة مثل: النخبة/الجماهير ، الصفوة/العامة.

وفي الحالات جميعها سواء كان ذلك في النعوت المفردة أو الثنائيات التليدة ، فإن المثقف الكبير في الزمن الحديث هو السلطة التي تنتج أجهزتها عنصرية الذكاء ، ونجوم الثقافة ، وهالة الألقاب[٤٥]. وقد ظهر ذلك بوضوح في الفضائيات المسماة دينية والدين منها براء.

والثقافة لها طبيعة جدلية ، فهي تحوى في داخلها إمكانيات قمعية وتحريرية ، وهكذا تصبح الثقافة المادة الخام التي يمكن استخدامها للسيطرة أو للتحرير. في الحالة الأولى تمثل الثقافة محاولة الجماعات المسيطرة اختراق ثقافات الجماعات الخاضعة من أجل كسب قبولها وموافقتها على النظام القائم ، وفي الحالة الثانية تشير الثقافة إلى مجموعة الممارسات والمعتقدات والموارد غير المتجانسة ، والتي يمكن أن تتكيف مع الثقافة المسيطرة أو تقاومها ، أو حتى تتعامل معها بنوع من اللامبالاة[٤٦].

تربية مقاومة التنميط:

إذا كان القسر النمطي ينتج الشخصية الامتثالية الخانعة ، فإن هذه الشخصية بخضوعها للنمط وتمسحها به تكتسب قدرا من قداسته ، وتهضم خصائصه السلطوية فتصبح هي نفسها سلطة على مبدأ "التابو" ويغدو متاحا لها من بعد أن تمارس باسمه القمع والإلغاء والنتيجة أن ذلك يحمل على خوض المقاومة ضد النمط والهيمنة من حيث هو مقاومة وصراع من أجل الحرية ، ومن أجل الارتقاء بالوجود الإنساني ، وتعميق معنى هذا الوجود ، وهو صراع شامل يهدف إلى الإطاحة بسلطة النمط عبر كل ما يمثل هذه السلطة من مفاهيم وأجهزة ومؤسسات[٤٧].

ويشكل القمع لحظة جوهرية فارقة في تطبيق النمط وفرض الهيمنة ، كما أنه أيضا يمثل تلك اللحظة في فلسفة المسافة ، وبما أن إتقان القمع يستلزم إتقان وسائل القمع ويتضح ذلك جليا في فلسفة المسافة التي تنتج فن المسافة بين حامل المعرفة وشرعية وجوده ، والمتلقي لتلك المعرفة "الجاهل" الذي لا يستطيع أن يعي معنى الأشياء لوحده ، بسبب نقصه بجانب طبيعته ، ويحتاج إلى أخر له طبيعة لا نقص فيها. وفن المسافة الذي يسوغ سيطرة العارف وتأكيد المسافة. وهنا يبرز مفهوم السر وفن فض الأسرار ، لا يتعامل العارف المستبد مع موضوع المعرفة ، بل مع السر الزى أضافه إلى الموضوع أي أن دوره خلق السر وكشفه بدون شرح الموضوع المفترض شرحه.

إن شرح الموضوع بطريقة واضحة وبسيطة وسهلة يلغى المسافة بين العارف والتلميذ ولذلك يكون على العارف أن يقفز فوق الموضوع الحقيقي واستجلاب موضوع وهمي يحجب الموضوع الحقيقي ويغيبه[٤٨].

وذلك عنصر هام من عناصر الضبط الذي تريده الطبقات المستبدة ، فهو استخدام يتمتع بقدر من الذكاء لحجب الرؤية ، وفرض نوع من التعتيم ، إلا أن ذلك لا يمنع من تعدد الاستجابات.

ففي سلوك الأزمات تتباين استجابات الأفراد ، واستجابات الأمم ، لكنها في عمومها تتراوح ما بين الإنجراف العام أمام الأحداث والتعامل معها ، على أنها قدر لا مهرب منه ، أو محاولة استغلال الأزمة ، والتقاط ما يتساقط منها من مكاسب وقتية أو الالتجاء إلى نقطة نائية في المكان والزمان كعاصم من الضياع أو المقاومة في قلب الأحداث نفسها أيا كانت النتائج تلك كلها اختيارات يحددها الوعي واللاوعي ، لأن الاختيار لا يكون من فراغ ولكن الاختيار قائم على ما تحدده الخبرات السابقة ، والموقف الحالي. أي ما يحدده التاريخ والظروف الموضوعية وما يجاوز هذا أو ذاك من قدرة ذاتية على استبصار ما في الواقع من إمكانات وعلى هذا الأساس تتباين النظرة إلى التاريخ والواقع ، ما بين نظرة إلى الماضي على أنه مقبرة للأعمال والأفكار لا جدوى من النبش فيها ، ونظرة على أنه متحف يضم كنوزا تسهم في إعادة بنائنا العقلي ، ونظرة إلى الواقع على أنه قوة علينا أن نتكيف معها بالرضوخ ، ونظرة على أنه قوة تحفز طاقتنا لإعادة صياغته من جديد[٤٩].

ولو نظرنا إلى الثقافة نظرة محللة ، بطريقة مختلفة ، فسوف تتبين إمكان المقاومة ننظر إلى الثقافة لا بكونها تعبيرا عاما عن المجتمع متسقا مع مكوناته المادية ناتجا عن تطورات تاريخية معينة بل باعتبارها خبرات حية ، تتضمن جدلا في العلاقة بين الإيديولوجيا والنسق الاجتماعي والاقتصادي من ناحية وجدلا في العلاقة بين العناصر النقدية التي تحاول التغيير ، والعناصر التربوية التي تحاول التسكين من ناحية أخرى. هنا يتبين أن العلاقات الاجتماعية ليست علاقات إتقان ، وإنما هي بالأحرى علاقات خصومة بين المؤسسات الاجتماعية في المقام الأول[٥٠].

كشف آليات الهيمنة البشرية:

أكدت مدرسة فرانكفورت انتصار حالة التشيؤ٥١ مدعية أن النظرية النقدية في حاجة إلى توسيع نطاقها والتطوير لتتمكن من تفسير الأوضاع المستحدثة ، وإحدى الأفكار التي تجمعت حولها المدرسة ، وتمسكت بها هي فكرة الهيمنة[٥٢].

والهيمنة تعنى: لو أن أحدا هيمن على فإنه قادر بشكل ما على جعلي أعمل ما يرغب هو أن أعمله ، وتشير مدرسة فرانكفورت إلى الطريقة التي يهيمن بها النسق ، أى الطريقة التي يجبر فيها النسق الناس ، ويستغلهم ، ويخدعهم من أجل ضمان تجدده واستمراره ، وقد عالج منظرو فرانكفورت ثلاثة مجالات للهيمنة[٥٣]:

الأول: يتعلق بالنظرة التي تبرر هيمنة البشر بعضهم على بعض ، وتبرر هيمنة النسق عليهم ، وهى النظرة التي تتجلى مع مفهوم العقلي الأداتي.

الثاني: هو الأسلوب التي تدمج فيه الثقافة الشعبية الناس بالنظام.

الثالث:هو نوعية الشخصية التي لا تقبل الهيمنة ، فقط بل تسعى إليها بنفسها.

والهيمنة إحدى طرق القهر والقمع ، وتتم الهيمنة عبر وسائل عدة منها: وسائل الإعلام المختلفة ، والصحف المملوكة للنظام ، وأبرز تلك الوسائل تقديس من يتخذون الدين وسيلة للسيطرة لتمرير أهداف سياسية وكذلك جعل أفكارهم مقدسة وأيضا المؤسسات التعليمية ـ حيث تمارس القهر والتسلط ، بما تقدمه من مناهج وأساليب تدريس تسهم في تضليل العقل الإنساني وقمعه.

فالعملية التعليمية التي تتم في المدارس تسهم في خلق إنسان غير قادر على فهم واقعه أو تحليله ، وبذلك فإنها تعطل العقل البشرى ، عن النمو والنضج ، ومن ثم تربية فئات من البشر لا تملك القدرة على الإبداع أو إرادة التغيير أو امتلاك حرية التعبير[٥٤].

فقد أصبح التعليم ضربا من الإيداع "تحول الطلاب فيه إلى بنوك" يقوم الأساتذة فيه بدور "المودعين" ويحدد دور الطالب فيه كمستقبل للمعلومات يملأ بها رأسه ويخزنها دون وعى ، وهكذا يحرم الإنسان من فرص الإبداع والتطوير ، إذ كيف يمكن أن يمارس الإنسان وجوده الحق دون أن يتساءل ، ودون أن يعمل[٥٥].

غير أن الفعل الإنساني لا يتلاشى أمام منطق الهيمنة والسيطرة ، وإنما يختار فقط الأرض التي يمكنه أن يشن حربا ناجحة من فوقها ، وتلك مقاومة من الجماعات الخاضعة التي يمكن أن تعطى للمقاومة مفهوما أكثر دقة فكريا وسياسيا.

يقف العقل الأداتى على قمة هرم الهيمنة ، حيث صار أسلوب التفكير المهيمن في العالم الحديث ، وهو الأسلوب الذي بات يحكم العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية سواء بسواء[٥٦].

والعقل الأداتى هو منطق في التفكير ، وأسلوب في رؤية العالم ، مصطلح الأداتية يحمل مضمونين: فهو أسلوب لرؤية العالم ، وأسلوب لرؤية المعرفة النظرية، فرؤية العالم بوضعه أداة تعنى اعتبار عناصره أدوات نستطيع بواسطتها تحقيق غاياتنا ، وبإمكاننا أيضا النظر إلى المعرفة باعتبارها أداة وسيلة لتحقيق غاية. وربما تكون هذه الفكرة أصعب كثيرا لأنها تتخلل الثقافة لدرجة أن أي وجهة نظر أخرى لا ترى في المعرفة أداة يصعب تصورها ، والعقل الأداتى معنى كليا بالأغراض العملية ، كما أنه يفصل الواقعة عن القيمة إذ أن اهتمامه ينصب على اكتشاف كيف تصنع الأشياء وليس على ما يجب صنعه[٥٧].

وقد أصبحت أجهزة الدولة السمعية والبصرية ، تصوغ ثقافة المجتمع ، وتختار عناصرها من خلال عقل الجهاز الحاكم ، ومن ثم أصبحت الدولة مثقفا جمعيا وعقلا جامعا يصوغ عقل المجتمع ، وفقا لقوانين المسموح والممنوع.

الهوامش

(١)زكى حنوش: نحو تربية أفضل لأجيالنا في القرن الجديد ، القاهرة ، شئون عربية ، ع ١٠٤ ، جامعة الدول العربية ، ديسمبر ٢٠٠٠ ، ص ١٧١.

(٢)عبد الله التركمانى: مقاربة حول أزمة المشروع القومي العربي ، وآفاقه المستقبلية ، بيروت ، المستقبل العربي ، ع ٢٨١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، يوليو ٢٠٠٢ ، ص ٢٨.

(٣)عبد السميع سيد أحمد: علم الاجتماع التربوي ، مرجع سابق ، ص ٢١٤.

(٤) برهان غليون: الوعي الذاتي ، تونس ، دار البراق للنشر ، د.ت ، ص ٩٠.

سمير أمين: بعض قضايا المستقبل ، تأملات حول تحديات العالم المعاصر ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ١٩٩١ ، ص ١٥٩.

(٥)على حرب: أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر ، مقاربات نقدية وسجالية ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٩٤ ، ص ١٧٦.

(٦)شوقى جلال: اليسار العربي وسيوسولوجيا الفشل ، الكويت ، عالم الفكر ، م ٢٦ ، ع ٣ ، ٤ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، يناير/يونيو ١٩٩٨ ، ص ١٨٦.

(٧)برهان غليون: اغتيال العقل ، محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية ، الجزائر ، موفم للنشر ، ١٩٩٠، ص ٣٤.

(٨)محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٦ ، ص ٩٨.

(٩)محمود أمين العالم: مواقف نقدية من التراث ، القاهرة ، دار قضايا فكرية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧ ، ص ٧١.

(١٠)سلمى الصعيدي: التنمية الذهنية الغائبة ، الكويت ، مجلة العربي ، ع ٥٨١ ، وزارة الإعلام ، أبريل ٢٠٠٧ ، ص ١٥١.

(١١)التفكير الغائى: (براجماتى) المنفعة ، ذو علة تتصل بصاحبه.

(١٢)عبد الله الجسمي: أي نمط من التفكير الفلسفي نحتاج؟ الكويت ، مجلة العربي ، ع ٥٧٣ ، وزارة الإعلام ، أغسطس ٢٠٠٦ ، ص ٢٤.

(١٣)طلعت عبد الحميد وآخرون: تربية العولمة وتحديث المجتمع ، القاهرة ، دار فرحة للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٤ ، ص ٥٥.

(١٤)عبد الوهاب شعلان: خطاب الحداثة في الفكر العربي المعاصر ، مرجع سابق، ص ٥٥.

(١٥)عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية: إشكالية التكوين والتمركز حول الذات ، بيروت ، المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٧ ، ص ٦.

(١٦)عبد الوهاب شعلان: خطاب الحداثة ... مرجع سابق ، ص ٦١.

(١٧)عبد السميع سيد أحمد: علم الاجتماع التربوي ، مرجع سابق ، ص ٢٠٥.

(١٨)عبد الوهاب شعلان: خطاب الحداثة .... مرجع سابق ، ص ٥٦.

(١٩)عبد الفتاح إبراهيم تركي: تربية ما بعد الحداثة من أين؟ وإلى أين؟ ، القاهرة، دار نشر المحروسة ، ٢٠٠٠ ، ص ٩.

(٢٠)نبيل على: الثقافة العربية وعصر المعلومات ، مرجع سابق ، ص ص ١٦٨ ، ١٦٩.

(٢١)مهدي بندق: حداثتنا المحاصرة ، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، كتابات نقدية ، ١٢١ ، فبراير ٢٠٠٣ ، ص ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦.

(٢٢)الترانسندنتال: تعود نشأة المصطلح إلى الفلاسفة المدرسين في عصر النهضة الأوروبية ، ويشيرون به إلى الواحد أو الحق أو غيرها من المبادئ الكلية التي تتجاوز مقولات أرسطو.

(٢٣)عاطف العراقي: دور الفكر المستنير ... ، مرجع سابق ، ص ١٤٠.

(٢٤)حسن حنفي: ثقافة المقاومة ، مرجع سابق ، ص ٩٠.

(٢٥)سليمان الرياشى: عرض تقرير حقوق الإنسان في الوطن العربي ، "عن المنظمة العربية لحقوق الإنسان لسنة ٢٠٠٢" ، القاهرة ، بيروت ، المستقبل العربي ، ع ٣٠٠ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، فبراير ٢٠٠٤ ، ص ١٨٣.

(٢٦)حسن حنفي: ثقافة المقاومة .. ، مرجع سابق ، ص ٩٣.

(٢٧) عبد السميع سيد أحمد: دراسات في علم الاجتماع التربوي .. ، مرجع سابق ، ص ٢١٥.

(٢٩)عاطف العراقي: دور الفكر المستنير ... ، مرجع سابق ، ص ١٤٢.

(٣٠) سورة الواقعة ، الآية: ١٠.

(٣١) سورة البقرة ، الآية: ١٤٨.

(٣٢) سورة مدثر ، الآية: ٣٧.

(٣٣) ثقافة المقاومة ...مرجع سابق ص ص ٩٧ ، ٩٨.

(٣٤) استبداد الثقافة وثقافة الاستبداد ، القاهرة ، فصول ، ع ٢ ، م ١١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، صيف ١٩٩٢ ، ص ٩.

(٣٥)رخاوى: دور المثقف مسئولية لا موسوعية ، الكويت ، مجلة العربي ، ع ٥٢٦ ، وزارة الإعلام ، سبتمبر ٢٠٠٢ ، ص ١٧.

(٣٦) فيصل دراج: استبداد الثقافة سابق ، ص ٩.

(٣٧) *Garnoy. Martin: Education, Economy and the stat3, In: Michael W. Apple. Cultural and Economic Reporduction in Education, Essays on class, Ideology and the State, Routedge, Kegan Paul, London, 1982, p. 50.*

(٣٨) وفيق سليطين: أسئلة الإبداع في مواجهة النمط ، القاهرة ، فصول ، ع ٥٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، شتاء ٢٠٠٤ ، ص ٢٦١.

(٣٩) المرجع السابق ، ص ٢٦١.

(٤٠) فيصل دراج: استبداد الثقافة ... ، مرجع سابق ، ص ١٢.

(٤١) *Goroux Henry: Op. Cit., p. 73.*

(٤٢)بيير بورديو: العنف الرمزى .. ، مرجع سابق ، ص ٢٢.

(٤٣)المرجع السابق ، ص ٣١.

(٤٤)فيصل دراج: استبداد الثقافة .. ، مرجع سابق ، ص ٢٤.

(٤٥) المرجع السابق ، ص ١٤.

(٤٦) *Giroux Hanry: Op. Cit., p. 167*

(٤٧) وفيق سليطين: أسئلة الإبداع ... مرجع سابق ، ص ٢٦١.

(٤٨) فيصل دراج: استبداد الثقافة ... مرجع سابق ، ص ١٦.

(٤٩) عبد السميع سيد أحمد: دراسات في علم الاجتماع التربوي.... مرجع سابق ، ص ٣٠.

(٥٠) المرجع السابق: ص ص ١٠٣ ، ١٠٤.

(٥١) التشيؤ: هو تحول الصفات الإنسانية إلى أشياء جامدة ، واتخاذها لوجود مستقل ، واكتسابها لصفات غامضة غير إنسانية ، وهذه الفكرة تشكل نقدا أخلاقيا قويا للنظام الرأسمالي يجعله نظاما يحول البشر إلى أشياء يمكن أن تباع وتشترى (أنظر النظرية الاجتماعية ، ص ٣٠٩).

(٥٢) إيان كريب: النظرية الاجتماعية ... مرجع سابق ، ص ٣١٤.

(٥٣) المرجع السابق: ص ص ٣١٤ ، ٣١٥.

(٥٥) سعيد إسماعيل على: فلسفات تربوية معاصرة ، الكويت ، عالم المعرفة ، ع ١٩٨ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، يونيو ١٩٩٥ ، ص ص ٢٠٣ ، ٢٠٤.

(٥٦) أيان كريت: النظرية الاجتماعية ... مرجع سابق ، ص ٣١٨.

(٥٧) المرجع السابق: ص ص ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧.

الفصل الرابع : التهميش والتربية وثقافة المقاومة

تداول الفكر الإنساني ، على مدى العصور ، ثم العلم الإنساني و الاجتماعي في العصور الحديثة قيمة المساواة و أهميتها بعيداً عن التهميش ، و حلمت الشعوب بالعدل الاجتماعي ، و أدخلت ذلك في مذاهبها و رؤاها الطوباوية ثم في فلسفتها ونظمها الدينية و الأخلاقية و القانونية ، و مازالت المساواة و ما زال العدل بعيدين عن الواقع وعن الناس .

و لما كنا نعيش في مرحلة تحول تاريخي تنبثق فيها نظم مجتمعية جديدة ، فلم يعد مقبولاً وجود أى مساحة للتهميش سواء للأفراد أو الشعوب أو غيرهما ، وثمة ملحمتان أساسيان للنظام الاجتماعي الجديد : المعلوماتية ، و العولمة ، حيث يتسم الاقتصاد البازغ بأنه اقتصاد معلوماتي ، بمعنى أن الإنتاجية والنجاح التنافسي ينبعان من قدرة الفاعلين الاقتصادية على خلق المعلومات والتعامل معها و السيطرة عليها و تطبيقها

و بتأمل التاريخ المصري نجد أنه ليس مجرد حضارة مصرية امتدت ، إنما هو الأمة الوحيدة التي خاضت أربع حضارات مختلفة . حضارتها هي شخصياً الفرعونية التي يستحيل أن تكون كلها روحاً واحدة لأنه غير ممكن أن تكون سبعة آلاف سنة متجانسة لكن للتسهيل يتم القول الحضارة الفرعونية . ثم جاءت حضارة العصر اليوناني الروماني الإسكندر ثم البطالمة ، و هذه حضارة أخرى لا مجرد امتداد تاريخ ثم جاءت الفترة المسيحية في حضارة ثالثة ، ثم جاءت الحضارة الإسلامية و هذه حضارة رابعة . و لم تستطع أي من هذه الحضارات تهميش و استبعاد الحضارة الأخرى

و مصطلح التهميش هو نقيض الاندماج أو الاستيعاب ، و هو كاشف لطبيعة البنية الاجتماعية في أي مجتمع ، فالتهميش ليس أمراً شخصياً ، و لا إلى تدني القدرات الفردية بقدر ما هو حصاد بنية اجتماعية معينة ، و رؤى محددة ومؤشر على أداء هذه البنية لوظائفها .

- شئنا أم أبينا – في ظلال طيات العولمة ، و لن يغضب منا أحد من الكبار إن تركنا الركب و اتخذنا سبيل النكوص ، أو ضربنا عرض الحائط بتجارب من سبقونا و همشناها، و غضضنا الطرف عما حولنا . و لكن كل ذي عينين يستطيع أن يرى بوضوح أن الحضارة الإنسانية المعاصرة ، حضارة كونية ، و الباب مفتوح أمام الجميع ليسهم فيها ، و مفتوح بالقدر نفسه أمام كل طرف ليفيد فيها ، كما أن الباب مفتوح أيضاً لمن يريد أن يهمش نفسه ويلقيها وراء ظهره ويتجاهلها .

النكوص ممكن ، و التخلف مباح لنا ، و لكن البعد عن التهميش الذاتي يتطلب الجهاد من أجل مستقبل أفضل لمجتمعنا يفيد من تجارب البشر الآخرين هو ميدان التضحية الحقيقية . و إذا كان هناك من يريد تحت دعاوى الخصوصية و الحفاظ على الهوية و حماية تقاليدنا . أن ينكر وجود الآخرين أو يتجاهله ، و من ثم يحرّم الاستفادة من تجاربهم ، فذلك صوت يجدر بنا ألا نصغي إليه لأن تبنى مثل هذا الموقف هو إنكار فاضح للعلم الاجتماعي . و هو العلم الذي يقوم على صياغة التعميمات ، و لا أقول القوانين – التي تحكم السلوك الإنساني و التفاعل بين الناس و تخضع لها حركة المجتمعات الإنسانية .

و التهميش يعنى أنه صورة من صور عدم الاعتراف بالحقوق الأساسية ، وهو بذلك يكون صورة من صور العجز عن الوصول إلى المنظومات السياسية والقانونية اللازمة لجعل هذه الحقوق واقعاً حياً .

وقد أسهم اتساع نطاق التهميش الاجتماعي والأدبي و الفكري في جعل الرؤى المتصلة بأسبابه الرئيسية تختلف اختلافاً ملحوظاً و تبرز في هذا المجال ثلاث مدارس فكرية

المدرسة التي تضع سلوك الأفراد و القيم الخلقية في المقام الأول (كما هي الحال في قضية الطبقة الدنيا) .

المدرسة التي تؤكد على أهمية دور المؤسسات و النظم ابتداء من دولة الرعاية إلى الرأسمالية و العولمة .

المدرسة التي تؤكد على أهمية التمييز و نقض الحقوق المنفذة فعلاً .

ثقافة المقاومة والتحديات التي تواجه الإنسان :

وقد واجه الإنسان التحديات منذ أن وجد على سطح الأرض و كانت البداية في العصر الحجري حين وجد نفسه مضطراً لمواجهة الحيوانات المفترسة ، ومن ثم تشكلت لديه نزعة المقاومة فصنع أسلحة من الحجر كما وجد نفسه مضطراً أيضاً لحماية نفسه من تقلبات الطبيعة فاحتمى بالكهوف ثم عرف الإنسان كيف يصور حياته على جدران الكهوف منذ فجر التاريخ فحفر أشكالاً لحركات يقوم بها كما حفر صوراً لبعض الحيوانات التي كان يصطادها فكانت مرحلة التعبير مرتبطة بما يواجه من تحديات

و انتقل الإنسان إلى مرحلة أخرى حين تحول من جامع للغذاء ، يصطاد الحيوانات و يلتقط الحبوب و الثمار من الأشجار إلى منتج للغذاء إذ عرف الزراعة و من هنا عرف الأوقات المناسبة للبذور و الغرس و الحصاد و أدرك العلاقة بين الزراعة و فصول السنة . و مع الاستقرار و ازدياد العمران ظهرت معيشة الجماعات و تكونت جماعات بشرية كبيرة على ضفاف الأنهار و في كل تلك التحولات كان الإنسان في وضع المقاومة أولا ثم ضمان بقائه ثانياً .

و كانت الاكتشافات العلمية خير معين للإنسان على مواجهة التحديات التي قابلته و أعظم اكتشاف أفاد البشرية في عصورها البدائية الأولى هو اكتشاف النار فقد طور هذا الاكتشاف حياة الإنسان تطوراً مذهلا إذا أصبح بإمكانه أن يخيف الحيوانات بها و أن يضئ الظلام و أن ينضج الطعام [٢] . ثم انتقل الإنسان لعصر المعدن فانتقلت الحياة البشرية نقلة كبيرة و أسهمت تلك النقلة في اختراع آلات و أدوات يدخل المعدن في تركيبها و خلال تلك الرحلة كان الإنسان في المواجهة مقاوماً لكل ما يقابله من عقبات ثم قامت الحضارات على ضفاف الأنهار فازداد العمران و من ثم احتاج الإنسان إلى ما يعينه على تحديات الحياة ووجد ذلك العون في العلم فازدهرت علوم الفلك و الرياضيات و التعدين و الطب وغيرها ، و تقدم كثير من الصناعات و تطورت أساليب الزراعة و عرف الإنسان الكتابة ثم كانت النقلة الكبرى في اكتشاف قدماء المصريين أوراق البردي فاستطاع الإنسان تسجيل علومه وأدابه بطريقة أيسر و بازدياد العمران تشابكت المصالح فازدادت التجارة و تضاربت المصالح فقامت الحروب وواجه الإنسان تحديات الطبيعة من جفاف و فيضانات من جانب و تحديات أخيه الإنسان من حروب وصراعات في جانب أخر فتعلم كيف يقاوم ليستمر .

و امتدت مسيرة العلم البشرى فانتقلت المعارف التي حققتها الحضارات القديمة إلى الإغريق ثم انهارت الحضارة اليونانية ليستطع نور الحضارة العربية على الآفاق فيكتشف الإنسان كثيراً من مغاليق الكون في علم الفلك و غيره وكثيراً من الاكتشافات في جسم الإنسان في الطب .

ثم بدأ عصر اليقظة الأوروبية لتعود إليها شعلة الحضارة فيبدأ العصر الصناعي و تحقق الحضارة اكتشافين كبيرين أحداهما اكتشاف طاقة البخار والثاني آلة الطباعة فأصبح من اليسير نقل المعارف بسرعة مذهلة و صارت العلوم و الآداب قريبة التناول

وواجهت الدول الكبرى صعوبات تنمية مواردها من المواد الخام لذلك سعت إلى احتلال بلدان أخرى بينما واجه الإنسان في هذه البلدان هذا الاستعمار الذي يستنزف طاقاته بالمقاومة محدثا تغيرات في حياته . فالتغيرات الهائلة في المجتمع لا تحدث دون أن يصاحبها صراعات فتظهر التعارضات ويحدث الصدام[٣] ومن ثم المقاومة .

ثم كانت الحربان العالميتان الأولى والثانية و ما لهما من آثار على الإنسان ثم استطاع فريق من العلماء الأمريكيين اختراع الكمبيوتر ليحقق الإنسان في نصف قرن أكبر مما حققه عبر تاريخه الطويل على الأرض .

و قامت توازنات دولية ثم انهارت لكي يواجه الإنسان صعوبات جديدة تمثلت في تقدم دول تقدماً مدهشاً في مجال العلم جعلها تتحكم في الاقتصاد العالمي من ناحية و تعرض فكرها على البشرية من ناحية أخرى فظهرت العولمة وظهرت اتجاهات اقتصادية و فكرية تؤدى إلى الهيمنة فكان لابد من وجود نوع من المقاومة لما لا يرضاه الإنسان و الحياة مجالات و لكل مجال همومه و تحدياته الخاصة التي تتبع من التحديات العامة للإنسان .

التربية و الشعر وثقافة المقاومة :

وواجهت التربية تحديات عدة كما واجه الشعراء هذه التحديات بالمقاومة في شعرهم فعمد الشعراء العرب إلى تنمية و تأكيد تربية روح المقاومة في شعرنا العربي المعاصر ضد كافة التحديات ومن بينها التهميش العمدي لفئات مجتمعية كي تترك أماكنها وتنزوي بعيدا عن المشهد .

فالتربية في مجملها تهدف إلى تعليم الفرد كيفية أن يجعل لنفسه مكاناً داخل مجموعته و أن يحترم القواعد و القيم المعمول بها،[٤] و غالباً ما يلجأ إلى المقاومة بحثاً عن الدور الذي يرتضيه لنفسه حيث تكون التربية نمطاً من الهندسة الاجتماعية التي تغير بني اجتماعية معينة تمارسها كل الوسائط التربوية عامة والتعليمية على وجه الخصوص و الأدب قوة تربوية تشارك في عملية الهندسة الاجتماعية التي يمارسها أفراده من أجل ترسيخ و مناصرة مشروع حضاري ومواجهة مشروع حضاري مضاد

و المقاومة في الشعر مرتبطة في ذات الشاعر بالوطن حيث تتجلى صور المقاومة في الشعر بمقاومة المحتل ، مقاومة الديكتاتوريات ، الجمود ، الاستبداد ، التهميش ... الخ ، فالشاعر يريد لوطنه الرقى و التقدم و الرفاهية لينعم الناس فيه بحياة كريمة و لينشأ أبناؤه نشأة خلاقة دافعة للإبداع و النهوض .

فالشاعر يرى العالم من خلال نزعة إنسانية "فوق فلسفية" تحدد مداها رؤية الشاعر الفنية و ترتبط التربية بالشعر من خلال تلك النزعة الإنسانية التي تعتمد على ثوابت فكرية والتي تبدأ من التطابق بين الأنا المعنية بموقفها الفكري و بين الإنسان في مطلق كينونته أي غير المشروطة تاريخياً و لا اجتماعياً .

فعندما لا تستطيع الكتابة أن تعبر بصراحة عما تريد قوله فهي دائماً تخترع. شاهد ذلك أنه في أزمنة القهر و الاضطهاد توجد تقنية خاصة للكتابة و من ثم نوع معين من الأدب يمكن أن تقدر فيه الحقيقة حول المسائل الحيوية على طريقة مجازية .

و تقوم تربية المقاومة في الشعر العربي المعاصر على ثوابت ترتبط بالنزعة الإنسانية و هذه الثوابت هي "المنظور الكلى للإنسان" و "الجسد الإنساني" و "رؤية العالم" حيث تمتد النزعة الإنسانية في تربية المقاومة في الشعر لتؤسس رؤية جديدة للوجود كله فكل شيء له حق الوجود و الحرية و البقاء .

كما تقوم تربية المقاومة في الشعر على إنتاج الدهشة . والدهشة تدل على المفارقة و تنتج عن بناء السياق على أساس التناقض الدلالي بين بعض عناصره وتحقيق تماسكه و انسجامه بفضل هذا التناقض و يتمثل هذا التناقض بحال القراءة باعتباره فجوات أو ثغرات دلالية في نسيج السياق المتماسك و المنسجم تركيبياً فالدهشة إذن توسط بين الإغراب لمكانة الدلالة في إنتاجها [٦]

و الدهشة بما سبق مفهوم يحيل إلى قدرة النص على الفعل في قارئة وفي قراءاته بالتالي بتوجيهه توجيها انفعاليا عبر خصائص تركيبية و دلالية .

و تتحقق تربية المقاومة بتوافر الوعي لدى الشاعر هذا الوعي الذي يعكس ثقافته السياسية والفكرية والاقتصادية و الاجتماعية ... الخ .

فتلازم الشعرية و الوعي هي صورة " جمالية " لتلازم أكثر جذرية في حياتنا هو تلازم الإدراك والمدركات فلا إدراك بلا شيء(موضوع) يدركه و لأشياء (موضوعات) بلا إدراك يمنحه حق الوجود الفعلي أي الوجود المدرك .

و الوعي الشعري من خلال التوجه التربوي هو وعى مضاعف فإذا كان الوعي في مطلق دلالته يحول المدركات الحسية خارجة إلى موضوع يصوغه على صورته فإن صنعته الشعرية تعيد إنجاز هذا الموضوع تخيلاً لتضعه مره أخرى خارج الوعي و بموازاة المدركات الحسية الأولية التي ابتدأ منها الوعي

ليبدأ هنا دور التربية من خلال قيام الواقع ليكون محور للاختيار و الوعي محوراً للتأليف لتكون القصيدة بذلك معادلا مكتملاً للواقع . و الأدب بشكل عام و الشعر على وجه الخصوص نمطان من اللغة التي تنمو و تتجسد مع مرور المجتمعات المختلفة بأزمات مفصلية أو عمليات تحول جارفة في تاريخها و بشكل جدلي تنمو الأعمال الجمالية خلال حركة المجتمعات لأنها تمر بعمليتين متناقضتين في آن واحد ، التأثر بالواقع والناظر نحو مستقبله من ناحية و خلق الوعي الذي يشارك فيه ويقود إلى تغير هذا الواقع و العمليتان هما عمليتا سلب لهذا الواقع و إيجاب لواقع جديد (٧) ويلعب الماضي دورا في وعى الشعر المربى حيث ينظر الشاعر إلى الماضي نظرة فاحصة بهدف تنقيته و تجاوز ما فيه من سلبيات إلى آفاق أرحب و أعم .

و تتبدى تربية المقاومة في الشعر العربي المعاصر في هذا التطابق بين الوطن و الذات فالأخيرة - وحدها هي التي تصعد - ضمن شروط معرفة لهذا التصعيد - الدلالة المرجعية لقطعة من الأرض إلى الدلالة الكلية ، و الميتافيزيقية للوطن و يتكرر تطابق الذات مع الدلالة الأوسع للشعر باعتباره رؤية مفرطة الجمالية و مفرطة الكلية (كونية) للعالم .

و يواجه الشاعر المربى في عالمنا العربي المعاصر عدة تحديات تحتاج لتأصيل تربية المقاومة في شعره على رأسها المؤسسات التعليمية الخادمة لخطاب السلطة . و هذه المؤسسات التعليمية عادةً ما تتبع النظام المسيطر في المجتمع والذي يحدد ما هو مناسب و مسموح به مما يؤسس لقارئ مبرمج ينظر لبعض النصوص على أنها أدب و إلى غيرها بأنها وضيعة أو غير أدبية فيكون هذا القارئ مساهما في استمرارية الأيديولوجيا التي قامت ببرمجتها و بالتالي حين يتعامل هذا القارئ مع عمل أدبي أو نص فإن الذائقة التي اكتسبها ستكون الفيصل الأول في حكمه وبما أن هذا القارئ مبرمج ليخدم الأيديولوجيات القائمة فإن العمل الأدبي الذي يتعارض أو يختلف مع أيديولوجيات السلطة القائمة أو إحدى السلطات المسائدة فيها سيكون موضع رفض و عدم قبول من القارئ حتى و إن كان العمل فنياً وجمالياً مكتملاً (٨) . و هذا يؤكد على الدور المؤكد للمقاومة في الشعر العربي المعاصر. و من جانب أخر تمثل المدارس ساحات للتنافس لا تتميز فقط بالتناقضات البنائية و الأيديولوجية ولكن أيضاً بالمقاومة الجماعية النشطة من جانب الطلاب. بالطبع يحدث الصراع و المقاومة في إطار علاقات غير متكافئة للسلطة و التي دائماً ما تكون في صالح الجماعات السائدة

ولكن النقطة الأساسية هي أن هناك مجالات معقدة و إبداعية للمقاومة تقوم من خلالها الممارسات المرتبطة بالطبقة والعرق و النوع في كثير من الأحيان برفض ونبذ الرسائل الأساسية للمدارس [٩] .

و ثقافة المقاومة تلتقي عند هدف رئيسي يختص بحرية و إرادة الإنسان وكرامته إنها ضرورة إنسانية مطلقة في تحقيق الذات الإنسانية وهى مشروعة في مختلف تجلياتها ... و أن التاريخ هو تاريخ نضال الإنسان و استشهاده في مختلف مجالات العلم و الفكر ضد كل ما يعيق وجوده و تقدمه [١٠] .

و المقاومة و التغيير ليس فقط ممكنين و لكنهما يحدثان باستمرار و فعالية المقاومة و تحقيق التغيير يعتمدان على تنمية الناس لوعى نقدي عن السيطرة و أشكالها و ليس فقط معرفتها ومع اختفاء النقد يختفي الإبداع ، حيث تظل اتجاهات فكرية معينة سائدة تقف ضد التغيير أحياناً طويلة عن المعرفة التي تغيرت في " المراكز" لأن حامليها يظنون أن ما يعرفون هو العلم وما يعرفون لا يتعرض للتبادل وبالنقد و إنما بالتسليم و ربما باللامبالاة [١١] .

على ضوء ذلك يمكن صياغة تعريف لثقافة المقاومة في الشعر : أنها حركة مجتمعية تربوية صاعدة والصراع أساس هذه الحركة لأن التطور نتاج متناقضات متصارعة . والصراع مبدأ التطور و سببه و الحركة هي الصورة الخارجية لهذا الصراع و من ثم تنهض في قلب المجتمع الذي نعيشه مجتمع طبقي يصوغ فكراً علمياً و تصوراً شاملاً للعالم كما تصوغ ثقافة جديدة و تبدع فناً جديداً و في هذا الفكر العلمي يتحدد المضمون الحق للصراع في الكون و الحياة والمجتمع و الفن فيبرز دور الفرد ويتأكد الحدس الذاتي رفضاً للخضوع للأفكار السائدة و المرجعيات المعتمدة و سبيله إلى ذلك نزعته الإنسانية لمناهضة ما يشوه وجه التاريخ من مظالم و سياسات لا إنسانية مقاوما للتهميش .

والشعر العربي المعاصر و تعدد أشكال المقاومة فيه هو شعر مرب بالدرجة الأولى و هو جزء من الأدب العربي . الذي يشكل مجالاً للمقاومة بامتياز ، إنه لا يقصد تغيير الواقع مباشرة فهذا وهم تخلص منه الكاتب العربي عندما عرف كيف يكتب بدون اتكاء على مساندة أيديولوجيا أو حزب أو دولة و إنما يقصد زعزعة المضمون ما يسميه (المتخيل الاجتماعي) أي الأرحام المولدة لقيم الحرية والعدالة و الديمقراطية المقترنة بالحوار العمومي و من ثم فإن قواعد الأدب العربي اليوم هي نقيض القواعد التعسفية التي تحكم المجال الاجتماعي السياسي إنها قواعد التجريب تغيير اللغة الأحادية ، حرية التخيل المسعفة على ابتداع عوالم ممكنة تضع موضع تساؤل العوالم القائمة [١٢] .

بذلك يمكن القول أن مفهوم المقاومة مفهوم يسمح بتحليل كافة العلاقات المجتمعية من خلال المفهوم الأيديولوجي له ، ويقع عبء تأصيل هذا المفهوم على عاتق النخب المثقفة من خلال المعرفة ، فالنخب المثقفة لم تهتم بالمعرفة قدر اهتمامها بالتغيير ، وما يسمى الوعي السائد هو تلك المجموعة من الأفكار و القيم المشتركة التي يتم تبنيها على مستوى عام في المجتمع . فالنخب المثقفة العربية لم تعر المعرفة التي يتم عن طريقها تكوين الوعي السائد الاهتمام اللازم ، بل اهتمت بالتغيير والممارسة على حساب العمل الفكري و النظري ، فالمعرفة هي السلطة الحقيقية وتجديد الوعي ليواكب تطور المجتمع ، و كل إنجاز آخر كالوصول إلى السلطة أو تبوء المناصب الإدارية والوزارية لا أهمية له أمام الإنجاز المعرفي أي تجديد الوعي . فالسيطرة ليست حتمية أو قائمة إلى الأبد ، بل هناك مساحة يمارس فيها الفعل الإنساني تأثيره في تلك السيطرة . لذلك لا ينظر إلى المقهور في إطار مفهوم المقاومة على أنه يقف ببساطة موقفا سلبياً في مواجهة السيطرة .

و من ثم فإن فكرة المقاومة تشير إلى حاجتنا إلى أن نفهم جيداً العلاقة الجدلية المعقدة بين الخبرات الحية و البني التي تحاول فرض سيطرتها عليهم .

التصور الذي تقوم عليه ثقافة المقاومة :

و إذا كنا في مجال الأدب ، بوجه عام نميز بين ما يسمى أدب التعبير ، و ما يطلق عليه أدب التفسير ، فإننا نستطيع القول بأن ثقافة المقاومة تدخل في إطار ما يسمى أدب التفسير . إن هدف أدب التعبير هو مجرد إحداث لذة وجدانية ، أما أدب التفسير فهو الذي يرتكز إلى أسس و أغراض محددة ، تجاوز مجرد اللذة الوجدانية ، و بحيث تتخطى الفرد إلى إحداث التأثير في المجتمع و في الكون ، وفي العالم بناء على نظرية محددة تماماً [١٣] .

إن الجماعة لا تفرض رؤيتها للعالم على الفرد فحسب ، بل تفرض عليه الخوف من التفكير ، لأن التفكير يعنى التفرد بما يصحبه من وحدة ، و يعنى إحلال اللاإرادية محل اليقين المستمد من الجماعة ، و التضحية بالانتماء في مقابل الشعور بالحرية . و لو كان الناس مغرمين بالحرية حقا ، لما كان في العالم استعمار ولا تبعية ، لهذا قد يعيش مجتمع من المجتمعات قانعاً بوهم زائف ، و وظيفة النقد مهاجمة ذلك الوهم بالحفر في التربة التي نمت فيها جذوره [١٤] .

إن أي ثقافة تفرز مثقفيها ليقودها إلى ما تعد به ، و هذا لا يدفعنا إلى الانقياد إلى عقول مخادعة باعتبار أنها هي التي تمثل ثقافتنا دون غيرها ، هذه العقول قد لا تكون الممثل الحقيقي لثقافتنا مهما كان تميزها و انجازها ، بل أحيانا مما تكون مضادة لثقافتنا من خلال إعاقة تلقائية وعى الناس الأعمق ، وهذا يحدد في ثقافة المقاومة ما يسمى بالاستبداد الثقافي أو الثقافة المستبدة (١٥).

والحديث عن سلطة مستبدة تقمع الثقافة لا يمنع الحديث عن ثقافة مستبدة تساعف السلطة. فوظيفة المثقف تتحدد بعلاقته بجهاز الدولة أولا حيث يمارس هذا الجهاز دورا إداريا معرفيا يقوم بدوره في إدارة وتوجيه أجهزة الدولة ، ويقوم بإنتاج معرفي داخل أجهزة الدولة ، وبفضلها يكون المثقف في الحالتين جزءا من السلطة.

مع أن المثقف هو من يستوعب ثقافة ناسه بدرجة من الوعي الفائق المسئول الذي يمكنه من أن يساهم في تعميق الإيجابيات ، وتحريك جماعته لصياغة البني الأعلى فالأعلى ، التي إذا ما وصلت إلى درجة من الرقى والإنجاز والقيم الإنسانية القادرة على العطاء والانتشار سميت حضارة (١٧)

إلا أن علاقة المثقف بالسلطة علاقة عضوية كونها قامت على مرتبة ، لأن المرتبة كما الترتيبية بشكل عام تمثل جوهر السلطة وقوامها ، يلتقي المثقف بالسلطة في علاقة مزدوجة ، علاقة خارجية تتجلى فيها الإدارة وإنتاج المعرفة ، وعلاقة داخلية تتمثل بالمرتبة ، وإعادة إنتاج المرتبة ، تقمع السلطة الرعية باسم القانون ، ويقمع المثقف العوام باسم المعرفة مع فرق أساسي يلغى التناظر الواهي بينها ، فالمثقف لا يقنع العوام إلا اعتمادا على قوانين سلطوية تعرف النخبة وتحدد العوام.(١٨)

إن العلاقة المتبادلة بشكل لا متكافئ بين سلطان يحتاج إلى التبرير ، ومبرر يحتاج إلى سلطان هي في أساس استمرار الشكل المؤسساتي ، المثقف ، السلطة ، والثقافة السلطوية وإذا كانت تلك الثقافة قد مزجت قديما بين السلطان والمقدس، وقدست العارف الذي يقدس السلطان ، فإنها في شكلها الحديث واصلت سيرتها الأولى ، بعد أن غيرت القناع الذي يقع عليه التقديس ، فقد كان المقدس يشير إلى شخص يقول بالجهاد ، ويمثل ظل الله على الأرض ، فانتقل في الزمن الحديث إلى جهاز الدولة الذي يكتسح في اتساعه المجتمع ويلغيه. أصبحت الدولة هي المقدس وسقط ما عداها في خندق المروق ، وفي الحالتين أفرزت السلطة الكاتب المرتبة الذي يحمل في وجدانه المقدس ، لأنه يدافع عن سلطة لا خارج لها(١٩)

بذلك تسيطر السلطة الحديثة على المعرفة من أجل إنتاج معرفة تمنح السلطة شرعية وتعيد إنتاجها بوصفها سلطة شرعية ، فتبدو السلطة أثرا لاصطفاء طبيعي قائم على الموهبة والجدارة ، ويصبح الذكاء عنصرا في السلطة ومنها ، بل قاعدة لوجودها ، فالسلطة هي الذكاء ، والشعب هو الغباء ، وتلك عنصرية الذكاء وهى خاصة بالطبقة المسيطرة ، ويبرهن على تفوقها ويسوغ امتيازاتها ، ويدلل على حقها في إخضاع الطبقات الأخرى.[٢٠]

والسؤال هنا يتعلق بالطريقة التي تعمل من خلالها السلطة في تأكيد شرعيتها لخدمة امتيازاتها ، وإضفاء الشرعية على كل ما تراه يصب في مصالحها، ومن هذه الطرق المستخدمة صناعة نجمها الثقافي وتهميش الآخرين ، وإنتاج لغة خاصة بتمجيده ، وكما تصنع السلطة هذا النجم الثقافي ليكون نجاحه هو نجاحها، فإنها تنتج لغة تمجد النجم الثقافي في تمجيدها للسلطة التي خلقته. وهى لغة جوهرها المسافة والاختلاف ، تتحدث عن اللامع ، الألمعي ، المتميز المرموق ، وهو حديث في اللحظة ذاتها عن: المبهم ، البليد ، المبتذل ، الغبي ويمكن لهذا الحديث أيضا أن يتتابع في ثنائيات شهيرة مثل: النخبة/الجماهير ، الصفوة/العامة ، وفي الحالات جميعها سواء كان ذلك في النعوت المفردة أو الثنائيات التليدة ، فإن المثقف الكبير في الزمن الحديث هو السلطة التي تنتج أجهزتها عنصرية الذكاء ، ونجوم الثقافة ، وهالة الألقاب[٢١]

والثقافة لها طبيعة جدلية ، فهي تحوى في داخلها إمكانيات قمعية وتحريرية ، وهكذا تصبح الثقافة المادة الخام التي يمكن استخدامها للسيطرة والتهميش أو للتحرير. في الحالة الأولى تمثل الثقافة محاولة الجماعات المسيطرة اختراق ثقافات الجماعات الخاضعة من أجل كسب قبولها وموافقتها على النظام القائم ، وفي الحالة الثانية تشير الثقافة إلى مجموعة الممارسات والمعتقدات والموارد غير المتجانسة.

التهميش بفلسفة المسافة :

أعطى تاريخ الكتابة الكاتب مرتبة تميزه عن غيره ، وأدرك الكاتب معنى المرتبة ، وضرورة الحفاظ عليها ، وإذا كان الكاتب يلغى ذاته في حضرة من هو أعلى منه مرتبة فإنه يشهر هذه المرتبة في وجه القارئ العادي ، وفقا لفلسفة يمكن أن تدعى: فلسفة المسافة ، إذ المسافة ضرورة تفصل الكاتب عن القارئ ، وترمى بهما إلى حقلين مختلفين: حقل المعرفة ، وحقل الجهل[٢٣]

في وقت يشهد فيه عالمنا عولمة متسارعة الخطى ، وثورة معلوماتية واتصالية متواصلة وتحول المعرفة إلى المورد الأعلى والأخطر أثرا في تقدم المجتمعات وازدهارها الاقتصادي ، لن يصبح بالإمكان إنتاج مواطن مستقل التفكير ، وقادر على التعامل الإيجابي مع معطيات واقعة وعالمه إلا بتنمية ثقافة المقاومة لكل ما يعترض طريق حضارته ، دافعا عن نفسه مغبة إلقائه في خانة المتلقى فقط ، ولتكن بدايته إصلاح فكره بعيدا عن فلسفة المسافة ، لأن إصلاح الفكر يعنى إصلاح التربية أولا بحيث يصبح دور التربية مؤثرا في بناء منظومة القيم الإنسانية.

والبدء من فلسفة المسافة بدء من عقد مضمر يعترف به طرفا العلاقة ، يعترف الكاتب بجهل القارئ ، ويعترف القارئ بأنه في حاجة إلى الكاتب لأنه يحتاج معرفة الكاتب. يحدد العقد المضمر شكل العلاقة بين الطرفين ، ويكون احترام المسافة أساس العقد وجوهره ، فعلى القارئ أن يدرك أن احترام المسافة شرط للتعلم ، فيقبل ما يقوله الكاتب طائعا وراغبا ، ولا يخضعه إلى تساؤل ومحاكمة. تنتهي في فلسفة المسافة إمكانية الحوار ، ويتحول القارئ/التلميذ إلى طرف سلبي خاضع ، ويتحول عقله إلى مخزن للمواد التي يقررها الكاتب أو المعلم ، فتأخذ المعرفة أشكال الهبة الممنوحة من طرف موهوب إلى طرف غير موهوب[٢٤]. ومن هنا تتأكد ملامح التهميش من خلال هذه المسافة التي فرضتها فوقية المرتبة .

وهذا نمط من الهيمنة والقهر والقمع له خصيصة مميزة. أنه يضحى بالاختلاف لصالح المشابهة والمطابقة ، وهنا تتبدى سلطويته في قصر ما سواه ليكون صورة ناقصة عنه. ومأتى ذلك أن علاقة النمطي بموضوعه تأخذ طابع الإزاحة والاستبدال ، فهو يلغى الموضوع ويرسى مكانه تصوره الخاص على أنه الموضوع نفسه. ونتيجة لذلك من الجهة الأخرى أن الموضوع لا يستطيع أن يحضر كذات إلا بنفي ذاتيته وتقمص هوية الآخر ، وتفصيل كيانه على مقاييسه ، وهذا بالضبط يجعل من النمط مقولة السلطة التي تسقط صورتها على الكل ، وتجبرهم على ارتداء هذه الصورة ، والأمر على هذا النحو ليس إلا نوعا من عبادة الذات وتقديسها ، إنه الفعل النرجسى الذي يروج عبادة نفسه في الآخرين ، وبسبب ذلك يجعل من وجودهم مجرد مرايا عاكسة لوجوده [٢٥]

وقد تجلت تلك الهيمنة النمطية في مجال التعليم. فالتعليم يركز على الماضي، ويهمل المستقبل ويدعم الامتثال والتقليد ، ويحارب الابتكار والتفرد ويدعم القهر والتسليط ويناهض الاستقلالية والنقد ، ويمجد الحصول على الشهادات والاعتماد على الوظائف الحكومية ، ولا يشجع على التعلم والاعتماد على النفس. أصاب التربية فكرا ونظاما بعض أعراض العقم والشلل ، حتى غدت تلك الأعراض قدرا مقدورا تكيف كثير من المشتغلين بالتربية معها يجترونها فكرا خامدا وممارسة كلية وكأنما توقف الزمان وتثبت المكان وضاق الأفق وتجمدت المسلمات ، واختفت البدائل ، وانحسر الإبداع والاجتهاد. (٢٦) ودأبت السلطة المهيمنة على توظيف المؤسسات والعمليات التعليمية نحو إعادة إنتاج الأفراد للحياة في النمط الاجتماعي القائم والتكيف مع أوضاعه أو علاقاته ، ومصادر السلطة فيه بما يتماشى مع مصالح هذه السلطة.(٢٧)

ففي سلوك الأزمات تتباين استجابات الأفراد ، واستجابات الأمم ، لكنها في عمومها تتراوح ما بين الانجراف العام أمام الأحداث والتعامل معها ، على أنها قدر لا مهرب منه ، أو محاولة استغلال الأزمة ، والتقاط ما يتساقط منها من مكاسب وقتية أو الالتجاء إلى نقطة نائية في المكان والزمان كعاصم من الضياع أو المقاومة في قلب الأحداث نفسها أيا كانت النتائج تلك كلها اختيارات يحددها الوعي واللاوعي ، لأن الاختيار لا يكون من فراغ ولكن الاختيار قائم على ما تحدده الخبرات السابقة ، والموقف الحالي. أي ما يحدده التاريخ والظروف الموضوعية وما يجاوز هذا أو ذاك من قدرة ذاتية على استبصار ما في الواقع من إمكانات وعلى هذا الأساس تتباين النظرة إلى التاريخ والواقع . ما بين نظرة إلى الماضي على أنه مقبرة للأعمال والأفكار لا جدوى من النبش فيها ، ونظرة على أنه متحف يضم كنوزا تسهم في إعادة بنائنا العقلي ، ونظرة إلى الواقع على أنه قوة علينا أن نتكيف معها بالرضوخ ، ونظرة على أنه قوة تحفز طاقتنا لإعادة صياغته من جديد.(٢٨)

ولو نظرنا إلى الثقافة نظرة محللة ، بطريقة مختلفة ، فسوف نتبين إمكان المقاومة ننظر إلى الثقافة لا بكونها تعبيرا عاما عن المجتمع متسقا مع مكوناته المادية ناتجا عن تطورات تاريخية معينة بل باعتبارها خبرات حية ، تتضمن جدلا في العلاقة بين الإيديولوجيا والنسق الاجتماعي والاقتصادي من ناحية وجدلا في العلاقة بين العناصر النقدية التي تحاول التغيير ، والعناصر التربوية التي تحاول التسكين من ناحية أخرى. هنا نتبين أن العلاقات الاجتماعية ليست علاقات إتقان ، وإنما هي بالأحرى علاقات خصومة بين المؤسسات الاجتماعية في المقام الأول.(٢٩)

ويقف العقل الأداتى على قمة هرم الهيمنة ، حيث صار أسلوب التفكير المهيمن في العالم الحديث ، وهو الأسلوب الذي بات يحكم العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية سواء بسواء.[٣٠]

والعقل الأداتي هو منطق في التفكير ، وأسلوب في رؤية العالم ، مصطلح الأداتية يحمل مضمونين: فهو أسلوب لرؤية العالم ، وأسلوب لرؤية المعرفة النظرية، فرؤية العالم بوضعه أداة تعنى اعتبار عناصره أدوات نستطيع بواسطتها تحقيق غاياتنا ، وبإمكاننا أيضا النظر إلى المعرفة باعتبارها أداة وسيلة لتحقيق غاية. وربما تكون هذه الفكرة أصعب كثيرا لأنها تتخلل الثقافة لدرجة أن أي وجهة نظر أخرى لا ترى في المعرفة أداة يصعب تصورها ، والعقل الأداتى معنى كليا بالأغراض العملية ، كما أنه يفصل الواقعة عن القيمة إذ أن اهتمامه ينصب على اكتشاف كيف تصنع الأشياء وليس على ما يجب صنعه.[٣١]

وقد أصبحت أجهزة الدولة السمعية والبصرية تصوغ ثقافة المجتمع ، وتختار عناصرها من خلال عقل الجهاز الحاكم ،ومن ثم أصبحت الدولة مثقفا جمعيا ، وعقلا جامعا يصوع عقل المجتمع، وفقا لقوانين المسموح والممنوع حيث يكرس ذلك لقواعد التهميش .

وقد نتج عن ذلك أنماط من التفكير ، لا صلة لها بطابع التفكير العقلاني والعلمي ،مثل التفكير الغائي (البراجماتي) وصياغة الأحداث بطريقة التفكير الخرافية أو الأسطورية علاوة على إفراط البعض في الغيبيات ، والدعوة إلى نبذ التفكير في عالم الواقع واستبداله بعوالم أخرى . فنحن نعيش في زمن يحتاج لمقاومة التهميش بكل أشكاله وذلك للتنامي المتصاعد للخيال البشري الذي أصبح أمرا حتميا حتى يمكن استيعاب متغيرات العالم من حولنا .

الهوامش

فوزى خضر و آخرون : الأدب المصري و تحديات العصر ، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة القاهرة ٢٠٠١ص٧ .

٢- ول ديورانت :قصة الحضارة ،ترجمة زكي نجيب وآخر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠١ ، ص ٢٢ .

٣- الفن و هايدى تولفر : نحو بناء حضارة جديدة ، المركز القومي للبحوث التربوية و التنمية ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ١٧ .

٤- لوتانه خوى : التربية و الحضارات ، المركز القومي للبحوث التربوية و التنمية ، ١٩٩٥ ، ص ٥٢ .

٥-عصام الدين هلال : الخطاب التربوي في شعر أمين الديب ، الندوة العلمية السابعة ، تربية كفر الشيخ ، ٢٠٠٥ ، ص ٥ .

٦-محمد فكرى الجزار : استراتيجيات الشعرية في قصيدة أمل دنقل مجلة فصول، القاهرة العدد ٦٤ ، صيف ٢٠٠٤ ، ص ٢٥٨ .

٧-عصام الدين هلال : مرجع سابق ، ص ٤ .

٨-عفاف البطانية : النصوص و سياقتها ، فصول ع ٥٨ ، القاهرة ، شتاء ٢٠٠٠ ، ص ٦٩ .

9- *Aronowiz, Stanley and Henry, A. Giroux; Eucation stillundersiege, 2nd ed. London: Bergin and Garrey, 1993, pp. 67-68.*

١٠-مصطفي عبد الغنى : الغيم و المطر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٣ ، ص ١١ .

١١-عبد السميع سيد أحمد : علم الاجتماع التربوي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٣ ، ص ١٦١ .

١٢-محمد برادة : هل للأدب قواعد ؟ فصول ع ٥٨ ، القاهرة ، شتاء ، ٢٠٠٢ ، ص١١٢

١٣-عاطف العراقي : دور الفكر المستنير في معركة الحرية عالم الفكر ، ع ٣ م ٣٣ ، الكويت ، مارس ٢٠٠٥ ، ص ١٣٩ .

١٤-عبد السميع سيد أحمد : مرجع سابق ، ص ٢١٥ .

١٥-عاطف العراقي : مرجع سابق ، ص ١٤٢ .

١٦-فيصل دراج : استبداد الثقافة ، و ثقافة الاستبداد ، فصول ع ٢ م ١١ ، القاهرة، صيف ١٩٩٢ ، ص ٩ .

١٧-يحيى الرخاوى : دور المثقف مسئولية لا موسوعية ، مجلة العربي ع ٦ ٠ ٥ ، الكويت ، سبتمبر ٢٠٠٢ ، ص ١٧ .

١٨-فيصل دراج : مرجع سابق ، ص ٩ .

١٩-السابق نفسه ، ص ١٢ .

٢٠-السابق نفسه ، ص ٢٤ .

٢١-السابق نفسه ، ص ١٤ .

22- Hanry Goroux. A Theory and Resistance in education, Towards apedagogy for the opposition, Reuised and Expanded Edition London, Bergin & Garve, 2001, p 167

٢٣- فيصل دراج : مرجع سابق ، ص ١٥ .

٢٤- السابق نفسه ، ص ١٥ .

٢٥- وفيق سليطين : أسئلة الإبداع في مواجهة النمط ، فصول ع ٥٨ ، القاهرة ، شتاء ٢٠٠٤ ، ص ٢٦١ .

٢٦- حامد عمار : دراسات في التربية و الثقافة ، مكتبة الدار العربية ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ١٥ .

٢٧- السابق نفسه ، ص ٣٣ .

٢٨-عبد السميع سيد أحمد : مرجع سابق ص ٣٠ .

٢٩- السابق نفسه ، ص ٣١٤ ، ص ٣١٥ .

٣٠-أيان كريب : النظرية الاجتماعية ، ترجمة محمد حسين غلوم، عالم المعرفة ، ع ٢٤٤ ، الكويت ، ابريل ١٩٩٩ ، ص ٣١٨ .

٣١-السابق نفسه ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ .

الفصل الخامس : التأصيل التربوي وصناعة الذات الكونية في رواية أولاد حارتنا

مقدمة :

يظل الإبداع الأدبي مشكلا لضمير و رؤى الإنسان المعاصر ومربيا له بما يقدمه من فعل حقيقي تأثيراً في الحياة و الإنسان ، ناشداً حياة أفضل لإنسان هذا العصر الذي يوزعه القلق بين دروب شتى في ظل عصر يموج بالمتغيرات المتلاحقة ، و التي لا تسمح للإنسان بالتوقف أو التقاط أنفاسه.

والأدب يحاول إخراج الإنسان من ذاتيته ليكون فاعلاً في مجتمعه متمثلاً سلوكه القويم وفي كل مرحلة من مراحل حياة الإنسان على الأرض ، يقدم له الأدب فيها صيغة جديدة تفترض دائماً استيعاب الشروط التي نحياها مستفيدة من الممكنات الجديدة التي يطرحها الواقع في ظل شروطه التي تتغير بالسلب أو بالإيجاب .

فخطاب الإبداع الأدبي فلسفة للحياة اليومية ، و محاولة لقراءة و تعديل نص الإنسان تجاه حياته بلغات شتى من خلال غرس القيم النبيلة التي تدفع بالإنسان إلى أن يحيا حياة حرة كريمة يؤدي فيها واجبه ويحصل على حقوقه بمشاركته الفاعلة في مجتمعه

و الإبداع الأدبي ينقل الإنسان من التردد إلى التأصيل النقدي ، و نقد التجارب السابقة بهدف بيان ما يمكن أن يصلح لقراءة العالم ، و استحداث أدوات جديدة في قراءة التجربة و العالم من حولنا ، فنص الحياة خبرة معاشة ، تحتاج إلى إنسان قويم النفس و السلوك ليمارس تأثيره في الحياة من خلال شخصية سوية لها القدرة على مواجهة الحياة بكل أثقالها عندئذ تسود اللحظة الحقيقية في حياة الإنسان ليكون أقرب إلى الحقيقة في أقواله و أفعاله .

والإبداع الأدبي يكشف عن الظاهرة الإنسانية والتي ترتبط بملابسات اجتماعية و سياسية والتي تقوم على عاملين هامين هما :

الأول : وعى الحواس بالإدراك السوي لرسالة الإنسان في الوجود .

الثاني : السلوك الإنساني من الموضوعات المركزية التي لا تطرق لذاتها و إنما تطرق باعتبارها ذات صلة وثيقة بحياة الإنسان و وجوده على الأرض .

فالإنسان قد يكون مستلباً ، يعيش احباطات عدة ، و بخاصة عند الاقتراب من دائرة خصوصيته، والتي تتطلب فهماً خاصاً لعلاقة الإنسان بالبناء الثقافي الذي يدير صراعه معه .

هذا البناء الذي يتحدد في أشكال مسيطرة ، تتخذ شكلاً ظاهراً في المؤسسات القائمة التي يصنعها الإنسان ، و قد لا يستطيع تغييرها أو التي تتخذ شكلاً رمزياً حين يصبح من المتعذر التعبير عنها ، فما كان ممكناً للإنسان أن يشعر بتواصله مع جدل هذا الإبداع إلا من خلال رؤية ناقدة التي يمكن التواصل فيها بين عنصري الزمان و المكان فإن الذي يرى كل شيء يختصر كل شيء " .

فالعقل المعاصر يجنح نحو التسلط و السيطرة ، حتى أصبح هم الإنسان هو السعي الحثيث لمواجهة ما يعوق حركة حياته نحو الأفضل في ظل الظروف الاجتماعية والاقتصادية و السياسية التي تحاصر الإنسان فوق الأرض بكل أشكالها الايجابية والسلبية ، فالحضارة الإنسانية يقودها العقل نحو التدمير الذاتي ، لأن بنية العقل الأساسية هي التسلط ، و العمل الأدبي هو الوحيد الذي لا يخضع لهذا التسلط ، فإذا كانت المعرفة قد اتجهت إلى السيطرة ، و نفي التفرد ، ولم تعد هناك علاقة سوى التنافس المستمر ، فإن العمل الأدبي هو الوحيد القادر على إنقاذ هذا التفرد ، لأنه يحمل جانباً ثقافياً يستطيع أن يؤكد قيمة وجود الإنسان في الحياة ، لأنه يترك للأشياء وجوهها الفريدة ، وهو يضع مسافة بيننا وبين الأشياء والمشاهد والكلمات ، كما أنه يكشف عن حضور كيفي للأشياء ولذلك فهو تأكيد وبلورة لكل ما هو عام وخاص في مقابل الكلية التي تريد أن تتسلط .

وكل إبداع أدبي يحمل في ذاته علامات المكان والزمان الاجتماعيين ، الذي ينشأ فيهما لذلك لا نستطيع أن نقول أن هناك حياة خاصة ونقية للإنسان تسمح بتجاوز ظروف الوجود والوصول إلى طبيعة الأشياء ، لذلك يتسم العمل الإبداعي بسمات عامة تلتزم بها أي نظرية للمعرفة تطمح أن تكون نظرية للمجتمع ، وأن تدرك ذلك بوعي ، لذلك فإن على الأديب أن يمارس دوره التاريخي في النقد البناء من خلال القيم المربية لكل ما يدور حوله مشاركة في رسم حياة المجتمع بإبداعه المعبر عن آفاق تنمية هذا المجتمع لبناء الإنسان .

هذه التنمية التي يحاول الإبداع الأدبي رصدها و تشخيص آليات فعلها لابد أن يصاحبها الإبداع الإنساني الذي يصنع الحضارة، وفي حالة غياب الإبداع الذي يقدم الوجه الحضاري المستقبلي للأمة ويضئ رسالتها المشاركة في صياغة العالم و حضارته تكون غاية العلم و نهايته محض الاستيعاب والتلقي القابل المنفعل وتكون حركة الثقافة و صراعات الحياة العلمية ومشاكلها وبرامجها لصياغة العقل والتاريخ انسحاقا أمام سطوة النموذج المعطى وتبريراً ذيلياً لصنوف الاغترابات وضبطاً للخطى على إيقاعات تراد للأمة لا تريده وتحاصر به وينتهك إيقاعها الحي الخلاّق ومستقبلها الصعب بقص أطرافه وكسر أجنحته وإبقائه في لفائف التحنيط المنمذج و اعتقال العقل في المنطقة الضائعة بين الوضوح الكامل للمقولات العامة والخلط الكامل لهلامية المسار والمصير في الواقع العيني المباشر حيث ينعكس ذلك على التربية فيكون خطابها ملتبسا تحيطه هالات الغموض .

ومن أراد أن يطيل النظر في معطيات الحياة الثقافية والإبداعية كماً وكيفاً ليتمكن من رسم خريطة علمية تبين علاقات الظواهر وقوانين حركاتها ومحصلات تصارعها وتحولاتها ومنحنيات صعودها وهبوطها فسوف يجد أن الاحتكام في التحليل والدراسة العلمية للقوانين العامة والمقولات الكلية الصحيحة والقواعد المنهجية المنضبطة قد أسهم إلى حد كبير في تعتيم و تمييع المعرفة بالواقع وتجريد الواقع من واقعيته

<u>أولا: الرواية المربية في الإبداع الأدبي :</u>

وتقدم الرواية في إبداعها الأدبي فيضاً تربوياً يحتوى تناقضاً بين الواقع والمثال لتأكيد قيمة التأمل والفرز التربوي الذي يحيل الإنسان إلى الشعور بالتطهر مقتفياً أثر القيم النبيلة الفاضلة ، حيث تقدم الرواية المربيّة نقيضين بين صواب مطلق ، وخطأ مطلق لتؤكد بذلك انفصالاً بين الفكر والسلوك ليبرز دور التربية في عملية تحريك العقل حيث تكون أداة للربط الحضاري تنمى روح التساؤل والتحقق وتطرح بذلك آليات للرؤية الناقدة التي تقوم على بناء صورة إيجابية من ركام التناقضات من خلال الوعي بالأزمة القيمية التي تطرحها الرواية.

والرواية بذلك تكون قصة بحث متفسخ (ما يسميه لوكاتش " بحث ممسوس) " بحث عن قيم أصيلة في عالم هو نفسه متفسخ ، ولكنه من ناحية أخرى وطبقاً لصيغة مختلفة بحث على مستوى متقدم . وليس معنى القيم الأصيلة تلك القيم التي يراها المؤلف أو القارئ قيماً أصيلة ، ولكنها تلك القيم التي تنتظم عالم الرواية باعتباره كلاً وفقاً لصيغة ضمنية ، ودون أن تكون لها وجود علني في الرواية. إنها تمضى في عملها دون أن يقال

إن هذه قيم ملزمة لكل رواية ، كما أنها تختلف من رواية إلى أخرى ، وهنا الدور المربي لها حيث تعطى الرواية طبيعة جدلية وذلك من موقفها بين النقيضين الذي مرده إلى الاختلاف بين طبيعة كل من النقيضين ، فالرواية تنهض من قلب المجتمع بكل ظروفه تصاحبها روافد تسهم في صياغة مفهوم ومسعى التربية في المجتمع ،ففلسفة كل مجتمع هي نتاج لمجمل ظروفه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ثانيا: الرواية المربية وتكوين تصور مغاير عن التاريخ :

وتحمل الرواية المربيّة خطاباً للتطور الاجتماعي والحضاري يقتضى فرز كتّاب الرواية الذين يقومون بعبء التعبير عن التطلعات الجديدة والتغيير المستمر، وكشف الأنماط الفكرية والسلوكية المتدافعة عن حركة النمو الفاعلة ، والدفاع عن الثوابت التي هبت عليها عواصف تحاول اقتلاعها ، أو طمسها أو التقليل من فاعليتها .

والرواية المربية لابد وأن تكون بوصفها نوعا أدبيا حاملة للقيم الأصيلة التي هي قيم مضمنة دائما أن تكون حاضرة في الروية في شكل شخصيات واعية ، أو وقائع مجسدة كي تتخذ طابعا أخلاقيا ،فالرواية المربية تجعل مما هو مجرد وأخلاقي في وعي الروائي العنصر الجوهري من عناصر الرواية ،حيث لا يمكن للواقع أن يوجد إلا في شكل غياب لا يتحدد في موضوع .

وتعد الرواية رافدا تربويا مهما ،إذ أنها تؤكد عبر إبداعاتها أن مستقبل الإنسان وأحلامه وتطلعاته إلى عالم أفضل يقع أمامه لا وراءه ، وتؤكد الرواية المربية أن أفضل الممكنات هو الآتي الذي ليس نسخا أو تقليدا لما مضى . حيث تدفع الرواية المربية إلى تكوين تصور مغاير لدى الإنسان عن التاريخ يرتبط بمعنى التطور ، تصور يجعل من التاريخ حركة صاعدة إلى الأمام ،وليس استدارة ترجع إلى الخلف .

على هذا الأساس كان لابد للرواية المربية مراعاة الوسط الجديد الذي صرنا فيه لأن الوسط الماضي قد تغير علميا واجتماعيا وسياسيا ، هذا ما يقدمه نجيب محفوظ في روايته أولاد حارتنا حيث تعامل مع صناعة وتنمية الذات الكونية منذ بدء الخليقة معتمدا علي هوية اللحظة الزمنية المتعاقبة تاريخيا من خلال المعتقدات الأسطورية والديانات الطوطمية مضيفا إليها خواطر ميتا فيزيقية وصولا إلي الديانات السماوية

فالرواية المربية في الماضي البعيد كانت قد بدأت على لسان الجدة العجوز التي تحكي لأحفادها في الكهف أو في الخلاء عن بطولات زوجها أو ابنها في قهر المغيرين أو الحيوانات المفترسة ،وتلك طريقة للتربية وإنتاج المعرفة من خلال ما ترويه الجدة العجوز .

لقد كانت حكاوي هذه الجدة هي البداية الأولى لإنتاج نوابغ الملحميين ، أمثال هوميروس وهزيود والفردوسي مما احترفوا جمع الأساطير العجيبة من ترديدات الشعراء الجوالة ليعيدوا صياغتها من خلال الحبكة و التشويق ، ورسم الشخصيات المتخيلة رسماً جيداً يحقق انسجام أفعالها مع طبائعها ثم دس المغزى المعرفي والأخلاقي بطريق غير مباشر ، وبذلك تكون النتيجة تعرّف الأجيال الصاعدة على المنظومة الفكرية للجماعة وآليات تربيتها، و بالمقابل تتعرف على الأغيار المختلفين عنها ، فضلاً على التعرف على البيئة الطبيعية المحيطة ثم العالم بأسره من بعد .

وقد سارت التربية في طريقها مصاحبة لنشأة المجتمعات مع تكاثر المعرفة من خلال علاقات العمل والحاجة للإنتاج والاحتكاكات اليومية بين البشر بعضهم البعض .

ثم راحت المعرفة المتولدة عن الشعر الملحمي تتطور مرتبطة بنظرة إلى الوجود ارتباط الأنطولجى بالإبستيمى ، وقد كانت تلك المعرفة تحكمها العشوائية ، والتماس تفسير ظواهر الطبيعة والعلاقات الاجتماعية في عالم الخرافة . بحسبانه الوحيد المتاح وقتذاك.

وقد تزامن مع ذلك حاجة الإنسان إلى تهذيب النفس والشعور بالرضا فكانت ضرورة اللجؤ إلى دين يكون ملجأ للنفس البشرية ليظل ملاذها الدائم .

ثم أخذ الدين ينبثق من بين الأساطير ، يهذبها ويؤسس عليها المرامى التربوية والسياسية والأخلاقية الأصلح ، حتى صار الدين بذلك أعلى المرجعيات المعتمدة والمهيمنة على مجالات التربية والمعرفة المختلفة ، وراح الأدب باعتباره نشاطاً عقلياً إبداعياً وممارسة وظيفية سوسيولوجية ، يغترف من النبع الديني والتربوي ليقدم جمالياته الخاصة ، ثم ما لبث أن تفرعت منه العديد من الفروع وسرعان ما اصطدم هذا بتلك إذ تراجعت الديانات الطوطمية الأولى في بساطتها لتفسح المجال لمنظومات دينية سماوية ، وغير سماوية ، يؤكد كل واحد منها أن الحق المطلق حكر له دون غيره .

وحتى في داخل الدين الواحد انقسمت الجماعة إلى مذاهب وملل ونحل تتنابذ وتتصارع وخلال كل ذلك كانت التربية تعكس خطابات تلك التحولات. وأخذت هذه الانقسامات نصيبا واضحا في معظم الديانات عندما اختلط الديني بالسياسي (المقدس بالمدنس).

ثم اندفع من داخل الكنيسة الأرثوذكسية بالإسكندرية رجل يعلن أن المسيح وإن كانت له طبيعة واحدة ، إلا أنها طبيعة بشرية لا إلهية فكان منطقياً أن يدفع حياته ثمناً لهرطقته تلك ، اغتيل هذا الراهب (آريوس) غير أن فكرته لم تمت ، بل هاجرت إلى الجزيرة العربية والشام ليتلقفها بعض الرهبان المثقفين لتصل أخيراً إلى الراهب (بحيرا) و (ورقه بن نوفل) و " خديجة بنت خويلد " الذين آمنوا فيما بعد بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً يأتيهم بقرآن يحدثهم عن عيسى الذي ما كان إلهاً قط أو ابنا لإله ، ليبدأ المدّ التوحيدي مؤسساً لدولة عظمى و حضارة بازغة ، كان المغزى الكامن وراء تأكيد الإسلام لوحدانية الله وتعاليه ، وكذلك تأكيد الإسلام لكونه خاتم الرسالات السماوية ، هو الاعتراف ببلوغ الإنسان سن الرشد ، والاعتراف بحقه في تقرير مصيره بنفسه وصاحب كل ذلك توجهات تربوية نابعة من قلب المجتمع بقيمه وظواهره تحاول البقاء والتأسيس لمجتمع جديد فيتم نقل التوجهات التربوية تلك عبر الأجيال بشكل أقرب إلى الرواية .

ثم كان التيار الثقافي الإسلامي العام الذي أنتج أدبيات تحض على الاستسلام لسلطة الخلافة باعتبار طاعة ولى الأمر ترداداً لطاعة الله ، وهكذا انحصر استخلاف الإنسان (بألف لام الجنس) في سلطة الخلفاء (بألف لام العهد) ومع ذلك فقد سعى البعض إلى تحرير العقل من سلطة النص ومن هؤلاء المعتزلة ، والصوفية والفلاسفة ، بل حاول بعض الفلاسفة أن يصل بفكره التحريري إلى أذهان العامة باصطناع وسيلة الأدب القصصي ، فكتب " ابن طفيل" حى بني يقظان ، واضعاً بطله في موقف وجودي منفرداً وحيداً في جزيرة منعزلة ليثبت قدرة هذا الشخص المنفرد (المعزول عن الجماعة) على إدراك حقائق الكون " بالعقل "وحده دون حاجة إلى " النقل " كتب ابن طفيل هذا في تأثر واضح بالأفلاطونية المحدثة (الأفلاطونية المحدثة ترى أن الروح تعيش على التوالي بين عالم العقل وعالم الحس) التي كان أهل السنة والأشاعرة (قادة السنة الفكريين) يرفضونها جملة و تفصيلاً بسبب غنصويتها * الرامية إلى المساواة بين وحى النبوة ووحي غيرهم من البشر غير الأنبياء .

ثم نرى أبا العلاء المعرى ، وسعيه إلى أنسنة المنظومة الدينية بأسرها من خلال شعره ونثره ولاسيما أطروحته الفكرية السياسية : " رسالة الغفران " ثم كان ابن خلدون بنظريته : (العضوانية) في تفسير التاريخ (وهى نظرية مادية) في معظمها مؤسساً بذلك لقطيعة منهجية مع المؤرخين الكلاسكين أمثال الطبرى ، وابن كثير والمسعودى مما اعتمدوا النصوص المقدسة مرجعاً أساسياً لسرد قصة الجنس البشرى ومن خلال المرويات التاريخية التي احتوت القيم المربية بهدف تأصيلها في نفوس البشر سعيا لبناء الإنسان .

حيث قدم نجيب محفوظ في أولاد حارتنا عرضا لتعاقب الديانات السماوية من خلال الرسل والأنبياء (جبل / موسي ، رفاعة / عيسي ، قاسم / محمد) وكيف كانت تلك الديانات عاملا مهما في تربية الإنسان وتوجيه أفعاله وضبط أقواله وصولا إلي معرفة تقود الإنسان للأفضل ، إلي أن كان العلم الحديث الذي غير الكثير من المفاهيم عن الكون والحياة .

وقد ظل الإبداع الأدبي بالمعنى الأوسع لمفهومه المربي بتاريخ الأفكار في رحلة لإنتاج المعرفة في المرحلة الدينية ، أما الحياة اليومية فقد كانت ماضية في طريقها تقودها حاجات الناس المتزايدة إلى إشباع الأجساد بأكثر من حاجتها لإشباع الأرواح والعقول استجابة لطبيعة الأجساد المادية . فالإنسان لا يستطيع الصبر على الجوع أو الحرمان الجنسي أو البقاء في العراء دون مأوى .

فقد كان من الطبيعي أن تتطور القوى المنتجة بما يخترعه الناس أو يكتشفونه أو يتاجرون فيه من سلع وبضائع وأدوات طلبا للثروة والقوة والهيمنة. وخلال هذا الصراع الذي لم يتوقف بين الأفراد والأفراد ،والمجتمعات وغيرها ، وبين الطبقات قديمها وحديثها ، ولد العلم الحديث ليكون تعبيرا عن هذه الاحتياجات المادية المتزايدة ، راح العلم يقدم أوراق اعتماده للبشر محتميا بمبدأ السببية ومرتكزا على آلية التجريب وهما مبدآن مقبولان عند الجميع مهما تختلف ديانتهم أو عقائدهم مما اضطر معه رجال الدين أن يعترفوا للعلماء بأحقيتهم في إنتاج معرفة أدق بالكون وبالحياة وبالمجتمع ، معرفة لا تقوم على مجرد النقل من السلف إلى الخلف ، أو على إتباع النصوص المقدسة إتباع الخاضع للمستسلم دون نقد أو تمحيص أو تأويل يعيد إنتاج المعنى الديني بما يتواءم والكشف العلمي .

فقد رأينا الكنيسة الكاثوليكية في أوربا تلك التي أحرقت جوردانو برونو وكادت تقتل جاليلو ،رأينا تعتذر اليوم عن فعلتها مسلمة بأن الأرض تدور .

وقد صار الحال في العالم الإسلامي ليس على النحو السابق وآية ذلك أن نوابغ العلم الطبيعي من أمثال الحسن بن الهيثم ،وأبو بكر الرازي وابن النفيس لم يتمكنوا من تجذير مناهجهم العلمية في تربة الثقافة السائدة بسبب تصحرها وتجريفها وذلك بسبب تراجع المد العسكري الفاتح ،ومرورا بفقدان العرب المسلمين السيطرة على البحر المتوسط والبحار الشرقية في القرن الحادي عشر الميلادي ، وصولا إلى تعرض العالم الإسلامي للهجمة المضادة من العالم الغربي (الحروب الصليبية)، فقد انكفأت البرجوزايات العربية الإسلامية إلى الداخل لعدة قرون قانعة بالتجارة الداخلية مما قلص من ثروتها وأعدم من فرصتها في تحويل المال إلى رأس مال صناعي حين أطل على الدنيا عصر البخار وفي هذه الأثناء كان استبعاد التعدد الذي يكشف عن التفاصيل الدقيقة في بنية الثقافة العربية في أبعادها الجغرافية والاجتماعية بذلك لم نجد الثقافات المتداخلة والمتضمنة في إطار الثقافة الكلية للأمة ووعيها التي تعبر عن العديد من الشرائح الاجتماعية المتعددة، والتي اختلف حضورها تبعا لمدى قربها أو بعدها عن الخطاب الثقافي السائد بينا نجد في الإبداع الأدبي الخطاب الثقافي ممثلا للعناصر الجوهرية بآليات ورؤى مختلفة .

والإبداع الأدبي يستخدم اللغة التي هي في أهم تجلياتها تعبير عن علاقات اجتماعية وياكرونية (متعاقبة) ، وعلم اجتماع الأدب يقوم بربط الظاهرة الأدبية بالظاهرة الاجتماعية انطلاقا من ذلك الوسيط اللغوي ذاته بصفته عاملا مشتركا بين الظاهرتين وبذلك يكون العمل الأدبي بمثابة الخلية التربوية الحية في جسم المجتمع ،وبالمقابل تكون الظاهرة الاجتماعية متجلية بصورة واضحة أو بالأحرى في نسيج العمل الأدبي الذي يقدم توجهات تربوية تجسد المضامين التربوية التي تسعى لبناء الإنسان في كل مراحل حياته من خلال الحث على البناء والتغيير نحو الأفضل .

أولاد حارتنا :

تتناول رواية أولاد حارتنا تاريخ البشرية من حيث هو تاريخ النجاة والخلاص الإلهي بدءا بخلق العالم وطرد أدم وحواء من الجنة ومرورا بظهور الأنبياء وانتهاء إلى مشكلات العصر الحاضر وهي في تناولها هذا تنقل تاريخ النجاة إلى نطاق حي من أحياء القاهرة القديمة وبهذا تخلصه من البعد الأسطوري لتقربه قربا مباشرا من جمهور القراء .

تقع الأحداث في حارة والشخصيات المحركة لها بدءا من الجبلاوي في البيت الكبير وأولاده من بعده :إدريس = إبليس ، وأدهم = آدم وولدي آدم همام = هابيل الذي يقتله شقيقه قدري = قابيل . والفتوات الذين يعيثون في أرجاء الحارة ظلما وفسادا والرجال الذين ينهضون من آن لآخر لرفع البؤس عن الناس وقهر الظلم : جبل = موسى ورفاعة = يسوع وقاسم = محمد الذي ينجح في تحطيم نفوذ الفتوات بالقوة ويأمر لأول مرة بتوزيع ريع الوقف الذي وقفه الجبلاوي على أبنائه وذريته – على جميع سكان الحارة دون تفرقة بينهم في العشيرة أو الجنس ولكن الذي يحدث بعد موته مثلما حدث بعد موت سلفيه هو عودة ناظر الوقف والفتوات إلى سلطتهما القديمة ورجوع الظلم والبؤس سيرتهما الأولى لأن البشر سرعان ما ينسون تعاليم روادهم الكبار .

وفي الجزء الذي يعقب عصر الأنبياء نجد شخصية الساحر عرفه الذي يرمز للعلم الحديث الذي لا ينتسب لدين أو وطن ويستأنف عرفه الصراع الذي بدأه جبل ورفاعة وقاسم مع الفتوات لكي يوفر لأولاد الحارة حياة لائقة بالبشر إنه يريد أن يحقق الشروط العشرة التي وصلت إليه وصية الجبلاوي (الوصايا العشر)

ويتبين بعد ذلك أن الواقف المسن كان لا يزال على قيد الحياة ولكنه مات متأثرا بالصدمة ويطارد الفتوات عرفه فيتمكن من إنقاذ نفسه بإلقاء الزجاجة السحرية التي اخترعها على مطارديه وهى سلاح متفجر يفوق كل ما عداه من أسلحة غير ان الناظر – رمز الطاغية الشرقي – يسخره لخدمته ويتخلص الناظر من الفتوات بفضل الزجاجة السحرية ولكنه يفعل هذا لمصلحته لا لمصلحة الحارة بهذا يصبح عرفه فتوته الجديد وفي النهاية يتمكن عرفه من الهرب ولكن أتباع الناظر يلقون القبض عليه ويقتلونه قتلة فظيعة ويتجه أولاد الحارة في البداية إلى إدانة عرفة ويتهمونه بقتل الجبلاوي وبأن سلاحه العجيب هو الذي جعل من الناظر طاغية لا يقهر ولكن بعد موت عرفة يشيع الأمل في الصدور فقد تمكن مساعده "حنش " من النجاة بنفسه ولعله قد تمكن أيضا من إنقاذ كراسة عرفه السحرية .

وكلما اشتدت حملة الناظر على عرفه وقوى اتهامه بقتل الجبلاوى مضى الناس يقولون: لا شأن لنا بالماضي ولا أمل لنا إلا في سحر عرفه ، ولو خيرنا بين الجبلاوى والسحر لاخترنا السحر وهكذا أخذ بعض شبان الحارة يختفون تباعا لكي يتعلموا السحر على يد حنش استعدادا ليوم الخلاص الموعود .

لم يترتب على اقتحام عرفة (العلم) لبيت الجبلاوى (العالم في الدين والميتافيزيقا) إلا أسوء النتائج : مقتل الخادم العجوز وموت الجبلاوى وتسخير عرفة في خدمة الناظر وانتصار هذا الناظر انتصارا ساحقا في القهر والجبروت وهنا تطل هذه الأسئلة الملحة برؤوسها : هل فشل عرفة لأنه لم يتحرر بعد من إيمانه بالجبلاوى ؟ أم يرجع فشلة إلى محاولته النفاذ إلى عالم الميتافزيقا الذى ليس للعلماء (الطبعيين) أن يبحثوا فيه عن شيء ؟ أم يرجع في النهاية إلى تجرئه على المساس بأقدس المقدسات ؟ وعندما يصل عرفة في خدمته للناظر إلى الدرك الأسفل تظهر امرأة تحمل إليه الرسالة الوحيدة التي وجهها الجبلاوى إليه : "أذهبي إلى عرفة الساحر وأبلغيه عنى أن جده مات وهو راض عنه" .

وتبقى حقيقة هذه الرسالة غامضة ولا يمكن القطع بأنها لم تكن إلا حلما من أحلام عرفة ولكنها هي التي تشجعه على اتخاذ قراره بالهرب من خدمة الناظر كما تمهد التحول النهائي الذي تسوده روح التفاؤل .

لقد وثق من رضاء جده عنه واطمأن إلى أنه لم يغضب لاقتحامه بيته وقتل خادمه ولكنه فهم منها كذلك أن رضاه ينطوي على سخطه على عمله في خدمة الناظر .

وربما كان التفسير القريب لهذا أن عالم الدين والميتافيزيقا قد انتهى ولكن العالم (بكسر اللام) هو صاحب الحق في المستقبل يعترف بالقيم الروحية والمعايير الأخلاقية التحى أخذها عنه .

ولا شك في أن الإشكالية التي أثارت النقد بل الاحتجاج والثورة على الرواية تكمن في نقل التاريخ المقدس - أي تاريخ النجاة والخلاص والهدي على أيدي الرسل والأنبياء عليهم السلام - إلي مستوى الحارة التي تزدحم بالفتوات ويرزخ أهلها تحت أثقال الفقر والقهر والجهل والمرض والقذارة ومن ثم"علمنته" أو إطفاء النزعة الدنيوية عليه وتصغير مقاييسه وإطفاء هالات الجلال والقداسة التي تحيط به وعرضه علي جمهور القراء عرضا يقرب إليهم أحداثه وإن كان في الوقت نفسه يؤثر فيهم تأثر الصدمة .

ومع أن الرموز الحية في الرواية أكثر مما ينبغي للرموز الفنية (لأن الرمز يتسم بالضرورة بقدر من الغموض ويشع دلالات ومعانا متعددة بينما هو في الرواية أحادى البعد صريح الدلالة) .

وبالتعمق في تلك الرموز التاريخية والمتعالية في الوقت نفسه علي التاريخ مثل (جبل ورفاعة وقاسم) و (عرفة الساحر أو العالم) حيث تتضح مواقف نجيب محفوظ من الدين والميتافيزيقا والعلم والعقلانية وشوقه إلي المجتمع العادل السعيد الذي يقهر الموت أو علي الأقل ينسي الناس مأساة العدم الزاحف عليهم لا محالة إذا حسنت أحوال الناس قل شره - أي الموت فازدادت الحياة قيمة وشعر كل سعيد بضرورة مكافحته حرصا على الحياة السعيدة المتاحة - "سيجمع الناس السحرة ليتوفروا لمقاومة الموت - بل سيعمل بالسحر كل قادر هنالك يهدد الموت " ص ٣٥٤ ، رواية أولاد حارتنا ، نجيب محفوظ ، دار الشروق ، القاهرة ، ٢٠١٠ .

فقد تناولت رواية أولاد حارتنا مشكلات مهمة مثل تأثير الدين والعلم في الحياة وإيجاد مجتمع عقلاني تختفي منه مآسي الفقر والذل والبطش ... إلخ فتهون علي الإنسان مأساة وجوده أو عدم وجوده .

<u>إشارة :</u>

*الغنوص : *Gnosis* كلمة يونانية ومعناها المعرفة ، وفي المصطلح هي نوع من المعرفة العليا تمتزج فيها الفلسفة بالتصوف بالسحر ، والغنوص أقدم وحي من الإله ، ولا يزال يتحرك هنا وهناك ويختلف مع الدين في أن دائرته مفتوحة دوما ويتبدي الغنوص في الثقافة الفارسية في هيئة المانوية وعبادة الاثنين ، وقد تسلل منها إلي اليهودية ثم إلي المسيحية ، وأما الإسلام فقد ظهرت فيه الغنوصية من خلال فكر الباطنية والاعتقاد بأن الإمام يتلقي المعرفة من السماء وبالتالي فانقطاع الوحي بعد النبي محمد صلي الله عليه وسلم مسألة - في رأيهم - غير صحيحة !

الفصل السادس : فـي الفكر الدينـــي الإسلام والتنوير

شاع مفهوم التنوير في الفكر الأوربي بتركيزه على العقل الإنساني وضرورة التمسك به

والتحرر من كل أشكال السلطة التي تقيد حريته ، بما في ذلك سلطة الدين ، ولكن مفهوم التنوير في المفهوم الإسلامي يحمل بين طياته معان ايجابية ، فالتنوير يعني الإنارة ويعني الإسفار (مختار الصحاح) ، ويقال نور الصبح تنويرا : ظهر نوره ، ونور الشجر تنويرا : أخرج نوره ، أي زهره (القاموس المحيط) والإسلام لا يرفض التنوير الأوربي المبني على العقل الإنساني ، غير أن التنوير في المفهوم الإسلامي أعم وأشمل من التنوير في الفهم الأوربي ، لأن التنوير في الإسلام يقوم على دعامتين أساسيتان هما الدين والعقل فالدين بمعناه الصحيح في الإسلام يعني الخروج من الظلمات إلى النور والنور يعني الوضوح ، وقد أرسل الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وهناك العديد من الآيات القرآنية تبين أن الدين جاء ليضئ للناس طريقهم في الحياة وليزيل الغشاوة عن الأعين والقتامة عن القلوب .

أما نور العقل الذي وصفه حجة الإسلام الغزالي بأنه " أنموذج من نور " (مشكاة الأنوار للغزالي) ، كما وصفه الجاحظ بأنه " وكيل الله عند الإنسان " وبتعاون هذان النوران يكتمل البناء فالعقل كالأساس والشرع كالبناء والإسلام في حقيقته رسالة تنويرية إلهية تهدف إلى بناء الإنسان ، والدين الصحيح لا يمنع العقل من التفكير والفهم ، لأن العقل في المفهوم الإسلامي هو مناط إنسانية الإنسان، ومعناه وجوهره فإذا عطل العقل بالجهل والغفلة فإن ذلك يعني إلغاء إنسانية الإنسان والهبوط به إلى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان ،

والعقل أساس التنوير ، وقد ارتفع القرآن بالعقل وسجل أن إهماله في الدنيا سببا في عذاب الآخرة ، فجاء على ألسنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم:

ولما كان الإسلام هو دين العقل والعلم والتنوير فصار من مقتضياته ،أن حذر من إتباع الظن ، وجعل البرهان والحجة أساس الإيمان:

فالتنوير ضد الجمود ، والجمود على القديم سلب لإنسانية الإنسان ، لأن الجمود على آراء المتقدمين وحظهم في العلم والمعرفة ، وأسلوبهم في البحث والنظر جناية على الفطرة البشرية ، وسلب لمزية العقل التي امتاز بها الإنسان وإهدار لحجة الله على عباده .

فالحياة في حالة تجدد أمام الإنسان وسنة الحياة هي التغيير والتجدد ، فإنك لا تستطيع أن تنزل نهرا واحدا مرتين وكل شيء يتغير إلا قانون التغيير ، والعصر الراهن الذي نعيشه الآن في حالة تغيير مستمر فلابد أن نفلت من الماضي غير المفيد فالاستمرار فيه والاستغراق هو نكوص لا يجلب فائدة

والعقل هو الأساس الذي يعتمد عله القرآن في خطاب الناس والمحور الذي تدور عليه تكاليف الشرع أمرا ونهيا ، وقد ذكر القرآن العقل كثيرا هذا بالإضافة إلى لفت الأنظار إلى تكرار كل وظائف القوة العاقلة ، وعبر عنها بألفاظ شتى مثل :" يعقلون ويتدبرون ويفكرون وينظرون ويسمعون ويفقهون ، هذا فضلا عن التفرقة الرائعة بين رتبة " العلم" و "اليقين" من جانب ومراتب الشك والظن من جانب آخر

فحفاوة القرآن بالعقل الذي هو أساس الاستنارة ، وتحذيره من مناهج الظنون والشكوك هو أمر طبيعي بالنسبة لدين جاء للناس كافة فقد اتجه الخطاب إلى الإنسان العاقل الحر طليقا من كل سلطان يحول بينه وبين الفهم القويم والتفكير السلم .

الإسلام والحداثة :

الدين يعلو ولا يعلو عليه ، وتلك هي طبيعة الإيمان عند الناس جميعا ، وكل ما يقع خارج الدين لابد أن يلتمس المشروعية داخله وليس خارجه ، حيث يتطلب ذلك حكم الشرع ، وأحكام الشرع في الإسلام تشمل : الواجب والممنوع والمندوب إليه والمكروه والمباح .

ولما كنا نعيش في عالم يتجه بقوة حاسمة نحو التفوق المعرفي والتكنولوجي والابتكار والإبداع ، فإننا نحن العرب المسلمين لابد وأن تكون نظرتنا لما يحدث حولنا في العالم نظرة حقيقية مع ذاتنا ، فالمشهد الفكري الثقافي العربي يظهر أن التشبث بقيم الماضي التي جاوزها الزمن ما زالت قائمة في المشهد العربي رغم ما يحدث حولنا في العالم ، ورؤية العالم تتطلب النظرة للكون والمجتمع والإنسان وتختلف الثقافات المختلفة في رؤاها السائدة في العالم ، وقد تسربت هذه الرؤية إلى عقول البشر من خلال برامج تعليم عقيمة وإعلام فاشل ، وتنشئة اجتماعية تركز على تقديس التقاليد حتى ولو كانت قد تجاوزها الزمن .

ويقودنا ذلك إلى موقف الإسلام من الحداثة أو الديمقراطية ، فالشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها ، والإسلام في ضوء ذلك يقبل الحداثة ومقتضياتها من ديمقراطية وعقلانية وحقوق إنسان إلخ .

فالعقلانية مثلا واجبة ، لأن الشرع أوجب النظر العقلي في الموجودات واعتبارها كما أن الديمقراطية وحقوق الإنسان ، يلتمس لها الوجوب بتوظيف مفاهيم (الشورى) ، وتكريم الإنسان ، والدعوة إلي العدل ، وغيرها من المفاهيم الواردة في القرآن الكريم والحديث الشريف بصيغه فعل الأمر ، كما يمكن الرجوع بقضايا الحداثة المعاصرة إلي أصل واحد هو المصلحة العامة ، فما كان منها يحقق المصلحة ، مصلحة الإنسان كفرد ومصلحة المجموع فهو واجب أو علي الأقل مندوب إليه ، فعلي سبيل المثال : أيهما يحقق المصلحة العامة حكم الفرد ، أم الحكم الذي يقوم علي الانتخاب الحر وعلي المراقبة الفعلية ؟

والجواب : أن الشرع مع الانتخاب والمراقبة لأنهما أقرب إلي الشورى من أي شيء آخر ويتطلب ذلك معرفة بالتراث للدفاع عن الحداثة وتأصيلها ، كما أن تطبيق الشريعة في الزمن المعاصر يتطلب المعرفة بما يشكل قوامه ومعاصرته .

كما أكد الإسلام علي ضرورة دراسة ما اخترعه الإنسان وابتكره وأبدعه من أجل الصالح العام للاستفادة منها.

الإسلام والحوار مع الأخر :

هناك رؤية مسيطرة على أذهان صناع القرار في الغرب هي الرؤية الاستعمارية سواء كانت عسكرية أو اقتصادية ، أو ثقافية ، أو فكرية .. الخ .

و هذه الرؤية تضع الحضارة الغربية في مرتبة السيادة على الحضارات الأخرى ولا تقنع بغير هذا ، بل تتجه إلى ضرورة فرض النموذج الحضاري الغربي على العالم بأسره ويرى الغرب في الحضارة الغربية حتى و هي في أزمتها حضارة التقدم و الحضارات الأخرى حضارات التخلف و التبعية ،إنها نفس العقلية الاستعمارية القديمة التي أقامت العلاقة مع الأخر على أساس من مبادئ القوة والهيمنة و العنصرية ، و لا ترى فائدة من الالتقاء الحضاري أو التفاعل بين الحضارات لأنها ذهنية استعمارية وضعت الحضارة الغربية في كفة وكل الحضارات الأخرى في الكفة الثانية ،لترجح الكفة الأولى .

وتلك الرؤية الغربية تحمل مفارقة غريبة ، إذ هي تربط بين ضرورة العولمة الاقتصادية و حتمية صدام الحضارات ، و ما ينجز عنها من ردود فعل ، كالغزو، والهيمنة من جهة و التمركز المضاد من جهة أخرى ، فهو منطق لعولمة تقصى الأخر، و تفرق دون توحد ، وبذلك يصبح الإنسان المعاصر تحت تأثير الصدمات المتتالية .

وبتأمل نظرية صدام الحضارات نجد أنها تسير في الاتجاه المضاد لمسيرة التاريخ ، وترى في الحضارة الغربية القاعدة الأساسية لوجهة العالم الحضاري ، وتنكر حق الآخرين الحضاري في الاختلاف ، و لا ترضى بالتقاء الحضارات ، ولا بالتوافق الحضاري بين الشعوب إنها العنصرية الحضارية في ذروتها ، و في زمن ينتصر أهله على العنصرية في معركة تلو الأخرى .

وعلى هذا الأساس فإن الغرب لا يؤمن بالتعددية الثقافية ، ولا بالهويات المستقلة عن الهوية الثقافية الغربية ، و يعتبر الثقافة الإسلامية على وجه التحديد منافسة ومعادية للثقافة الغربية .

كما أن الغرب لا يؤمن بحق الاختلاف الثقافي ، ولا يؤمن بوجود ثقافات كونية بخلاف الثقافة الغربية ، ولذلك فهو يرفض ادعاء الحضارة الإسلامية بالعالمية ، و يعتبره سببا للصراع مع الحضارة الغربية .

وبتلك الرؤية فإن كل صراع مهما صغر يفسر بأنه دليل على استمرارية الصراع ، و أن الحرب حرب حضارية أزلية لا تنتهي إلا بنهاية التاريخ .

ولكن الإسلام يدعو للتفاعل مع الأخر لصالح لأن الإنسان في منهج الإسلام لا يستغنى عن الإنسان، الناس يحتاجون إلى بعضهم البعض ، ولا توجد حضارة أكبر من أن تحتاج إلى غيرها . والإسلام يدعو إلى طلب الحكمة لأن الحكمة والعدل والرشد ليس لهم نطاق تاريخي ولا نطاق عنصري ولا نطاق جغرافي .

وبذلك فإن رؤية الغرب تكون خاطئة إذا استمرت على هذا الشكل ، ومن ثم فإن ذلك يتطلب حوارا أكثر منه صراعا يقوم على تغيير الوعي و تصحيح الصورة الإعلامية التي يقدمها الإعلام الغربي عن العالم الإسلامي ويتم ذلك من خلال البحث عن أخلاقية حضارية مشتركة تبنى على أساسها العلاقات بين الحضارات و تمنع من إمكانية تصادمها و تدفعها إلى الالتقاء و التعاون.

ونحن العرب مطالبون بتكوين وعى عربي بهذه القضايا المهمة في الفكر الإنساني المعاصر وبخاصة في عصر العولمة والثورة الإعلامية والانترنت التي جعلت من العالم قرية صغيرة ، وأنهت حياة العزلة و فتحت الطريق أمام الشعوب والحضارات لكي تتفاعل مع بعضها البعض من خلال عمليات التأثير والتأثر والأخذ والعطاء الذي سينتج عنه في المستقبل تقارب حضاري بين الغرب و الشرق وبين الحضارتين الغربية والإسلامية على وجه الخصوص ، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بالحوار الجاد المستنير مع الأخر .

الإسلام والعلم

العلم يجلي حقيقة الدين ، والعلم لا يكون علما نافعا ونورا يهدي إلا إذا أشرق عليه الدين بجلاله ، فالدين يستند إلي العلم ، والعلم يستظل بالدين ، وبذلك لا يقف الدين في سبيل العلم ، والقرآن الكريم وهو دستور الإسلام يضم بين دفتيه ألوان المعرفة الرفيعة والثقافة العالية ، ويلفت نظرنا أن كتاب الرسالة الإسلامية عنوانه" القرآن والكتاب "، فهو قرآن وهو كتاب ، وتلك إشارة بليغة إلي قدر القراءة والكتابة وتحريض قوي عليهما ، وعلي أن يكون المتدين بهذا الدين قارئا .. كاتبا ، ولفظ القرآن و"الكتاب " يتردد في كثير من الآيات عشرات المرات وهذا التكرار تحريض علي القراءة والكتابة .

ومهما بلغ الإنسان من علم ، فإن وراء علمه علماء ، والمجهول وراء ناظريه أكثر مما يكشف له حيث إغراء للإقبال علي دراسة العلم ، حتى يظل العقل الإنساني متحركا ومستمرا في البحث ، وكلما اكتشف شيئا أدرك أن هناك شيئا آخر لم يتم اكتشافه بعد فيدرك أن علمه قليل وأن الله سبحانه لا ينتهي علمه . وبالعلم نستطيع أن نحقق التقدم ونصنع الحضارة ، ونظرا لأننا لم نأخذ بأطراف العلم ظننا أن العلم ضد الدين ، فقد ترتب علي ذلك أن تخلفنا عن ركب العلم الذي نستخدم أدواته وإبداعاته الحالية في كل نواحي الحياة رغم أننا لم نسهم فيه خلال العقود الأخيرة إلا أننا نقبل علي ما أبدعه العلم وحققه ، ومرد ذلك أننا قبلنا بتنحية العقل جانبا نتيجة لبنيات معرفية ساكنة وثابتة لا تقبل الحركة

وقد أشار إلي ذلك المفكر العربي محمد عابد الجابري بوجود بنية معرفية ثابتة تهيمن علي العقل العربي هذه البنة المعرفية تتجاذبها ثلاثة أمور:

الأول : سلطة اللفظ .

الثاني : قياس الغائب علي الشاهد .

الثالث : سلطة اللاسببية (التجويز) .

والمسلمون هم ناس من الناس جميعا أبناء عصرهم ، وعصرهم الآن هو عصر العلم بكل منجزاته التكنولوجية والمعرفية والمعلوماتية والاتصالية سواء قبلوا ذلك أو رفضوا وأن مشاكل تلك الشعوب بسبب انهيار الحواجر أصبحت ضمن مشاكلهم فالعالم يسعي لحل مشاكله عن طريق العلم لذلك علينا نحن أن نسعى لحل مشاكلنا عن طريق العلم ، فالعلم يوفر الحياة السعيدة للإنسان والدين يوفر له الحب والطمأنينة والسلام والعدل والكرام. إلخ . فالإسلام دين عالمي أبوابه مفتوحة للجميع ، ودعوته إلي الخير موجهة لكل الناس لأنه دين علم ضد التطرف والتعصب فجوهر الإسلام " لا إكراه في الدين، كما أن خطاب الله سبحانه وتعالي لنبيه محمد : " أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " .

أليس ذلك علما تفوق به الدين الإسلامي عن بقية الأديان كونه هو الدين الخاتم والجامع وكان دعمه للعلم والدعوة له ينطلق من عالميته ، فالإسلام لكل الناس وليس للمسلمين فقط .

الإسلام والغرب

منذ عقدين طرح المفكر روجيه جارودي المتنقل بين اتجاهات عصر الأيديولوجيات مشروعه "حوار الحضارات "داعيا إلى تأسيس أرضية للتفاهم بين شعوب الأرض ، وكان مشروعه يتسم بسمة أساسية هي نقد الهيمنة الغربية على عالم اليوم ، واعتبر الغرب عرضا ألم بمسيرة البشرية وبشر بزواله .

وقد روج الغرب لتصورات تؤكد حق الغرب بالوصاية على بقية الشعوب ثم جاءت نظرية نهاية التاريخ التي أطلقها "فوكوياما "تلك النظرية التي انتشرت سريعا ثم تهاوت سريعا .

وفي صيف عام ١٩٩٣ نشر الأمريكي "صموئيل هنتنجتون"مقالا في صحيفة *foreign affairs*)‎. بعنوان صراع الحضارات محاولا قراءة مستقبل العالم من خلال صراع بين الحضارة الإسلامية ،والغربية والكونفوشيوسية وقد أثار ذلك جدلا كبيرا في العالم حتى يجعلوا من الإسلام عدوا خوفا من اجتياحه العالم بقيمة السمحة وعدالته التي شهد لها العالم ، فقد ضم الإسلام تحت لوائه جنسيات وعرقيات كثيرة عرفت فيه السماحة والعدل والحب فانتشر نوره في كل مكان حاملا الخير للعالم أجمع ،والإسلام دين سماوي صحي الكلية لا يمكن أن نقارنه بحضارة بشرية صنعها الإنسان فلا يحق أن نتحدث عما يسمى بصراع الحضارات ونضع الحضارة الإسلامية في ميزان مع الحضارة الغربية أو غيرها ، فقد كانت قوة الإسلام في توحيده العظيم لذلك فهو يشكل حالة أرق مزمنة للغرب ،بل إن الذهنية الغربية تربط سلامة مجتمعاتها وشعوبها ودولها وقيمها ببقاء الإسلام أسيرا لحالة التبعية والضعف والانكسار ، وهذه الفكرة يغذيها التاريخ الطويل من الجراح المتبادلة يمتد أربعة عشر قرنا .

لذلك فإن الصعود الإسلامي في العالم يستند إلى عالمية الإسلام التي كان القرآن أساسها فقد اختار الله سبحانه وتعالى من بين كل اللغات والألسنة اللغة العربية لتكون الوعاء الأمين الذي يحمل الحقيقة الإلهية الكونية القرآنية إلى الإنسانية كلها .

فقد جاء القرآن الكريم بحكم الاندماج العضوي بين حقيقته الإلهية ، وصفته العربية قرآنا "غير ذي عوج " ،بل "قرآنا عربيا غير ذي عوج" بحيث جاءت صفته العربية وكأنها طبيعة ثانية له بعد طبيعته الإلهية المطلقة وأصبح وصفه بالكمال "غير ذي عوج" مقترنا بوصفه العربي . أرأيت أعظم من ذلك ؟ .

الإسلام والفجوة المعرفة

تواجدت الفجوة المعرفية في عصرنا الراهن بسبب استمرار صيغة (الآنا)، و(الآخر) أو (نحن) و(هم) لتكون هي الصيغة الحاكمة في حياتنا المعرفية ، فالتواصل والتأثير يحتاج التقارب بين (نحن) و(هم) فقد أثر العرب المسلمون علي أوربا حضاريا في العصور الوسطي ، فقد كانت حركة الفتوح الإسلامية ، قد حولت البحر المتوسط الذي كان الرومان يسمونا (بحرنا) إلي بحيرة عربية إسلامية عندما فتحوا الشواطئ الشرقية والجنوبية لهذا البحر ، وقد عبرت تلك الفتوحات مضيق جبل طارق إلي شبه جزيرة إيبيريا وفرضوا سيادتهم علي جزر البحر المتوسط لكن الأمر لم يكن مجرد غزو عسكري وإنما كان استقرارا وبناء ، ومن ناحية أخري لم يكن البحر المتوسط عامل فصل بقدر ما كان عامل وصل وتواصل بين المنطقة العربية وأوربا .

فقد حققت الحضارة العربية إنجازا معرفيا هائلا سواء من حيث التراكم المعرفي الذي كان بمنزلة طفرة معرفية في تاريخ العلم ، أومن حيث نقل العلم من المرحلة الوصفية التي وقف عندها اليونان وغيرهم من القدماء إلي المرحلة التجريبية والتطبيقية .

فقد أفلح خصوم العقل في عصرنا الراهن في عالمنا العربي الإسلامي في إعادة مستوي الجدل المعرفي والثقافي إلي الوراء عقودا من الزمن ، رغم أن الدين الإسلامي يتيح للأفراد والجماعات مجالا واسعا وأفقا رحبا لاكتساب المعرفة وللتفسير ، فلا توجد في الإسلام سلطة عليا لتقرير ما هي المعرفة ؟ وما هو التفسير الصحيح ؟ فليس فيه (بابا) ولا (دالاي لاما) ، ولا مجمع كنسي ، والمؤمنون يتمتعون بحرية واسعة في حرية التفسير واكتساب المعرفة ، وما دام هناك سعيا صادقا وأمينا للوصول إلي الحقيقة ، لذلك كان من الممكن التوصل إلي استنتاجات مختلفة عن الموقف الصحيح في قضية معينة .

ولكي نقضي علي الفجوة المعرفية بنينا وبين الوضع العالمي الراهن علينا القفز فوق التخلف المزدوج ، وهو التخلف عن وضعنا المتقدم الذي تم في الماضي قبل انحسار دورات الحضارة بعيدا عنا، والتخلف المرير في الحاضر الذي يدفعنا إلي غياهب العجز والتبعية ، وأيضا مقاومة التسطيح المخل الذي ينجم عن عدم التمكين أو فقر الإمكانات ، أو ضعف الوعي الجاد بأهمية الدراسات العلمية المتعمقة ، والدفع باتجاه التوجه الإنساني المتسم بالانفتاح الحضاري لاستشراف رؤى المستقبل .

وقد أمرنا القرآن الكريم بأن ننظر في الكون ونتأمل فيه مع التفكير العقلي حتى ينتهي الإنسان إلي درجة من العلم لتحقيق المعرفة ، فكل شئ ذكره القرآن الكريم مطلوب تأمله بالعقل والنظر فيه ، وليس مجرد قراءة القرآن وحفظه يكفيان لاكتمال إيماننا بالدين ،فكل الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن الظواهر الكونية والكائنات المختلفة تنتهي بالدعوة إلي حث القوى الفكرية لدي الإنسان لتكوين معرفة حقيقية وتأسيس علم يقوم في مجمله علي خدمة الإنسان لصيانة كرامته ونفسه .

الإسلام و تكريم المرأة

لم تحظ المرأة بتكريم في أي دين من الأديان مثلما حظيت بتكريم الإسلام لها تكريما يفوق أي تكريم آخر فقد يرى البعض أن المرأة بمقتضى الخلق والتكوين أنها ضعيفة التفكير ، ومفتقدة إلى سداد الرأي وتلك أخطاء شائعة، لأن الطبيعة الإنسانية واحدة بين الرجل والمرأة فوضع المرأة التاريخي كوضع الرجل التاريخي ، وكما اصطفي الله من الرجال فقد اصطفي من النساء

كما تقبل الله تعالى المرأة فيما يتصل بشئون العبادة والقيام بخدمة أماكنها المقدسة كما يتقبل الرجل

وكما أوحي الله سبحانه وتعالي إلي الرجل فقد أوحي إلي المرأة حيث أوحي إلي أم موسي ثم كانت أخت موسي كما أنبأنا القرآن الكريم.

كما نجد امرأة فرعون التي أنقذت موسي عليه السلام من القتل :

وقد زاد من تكريم المرأة في الإسلام أن جعل لها كافة الحقوق التي يتمتع بها الرجل فقد أعطاها حرية اختيار وقبول الزوج كما أعطاها حرية العمل والفكر والتعليم ، والعلاقة بين الرجل والمرأة في شتي صورها بدءا من الأمومة والزوجية ، والبنوة ومروا بالأخوة والقرابة هي علاقة أراد الله لها البقاء أبد الدهر حتى تبقى الحياة الإنسانية ذاتها ، كما نجد أن المرأة قد بايعت الرسول خ ، وقال لهن الرسول "فيما استطعتن وأطقتن " رحمة منه ورفقا بالمرأة ، وردت عليه النساء وقلن للرسول خ:"الله ورسوله أرحم بنا منا بأنفسنا"رواه البخاري عن عائشة ك كما جاء في حجة الوداع قول الرسول الكريم خ " ألا واستوصوا بالنساء خيرا " .

لقد كرم الإسلام المرأة بتكريمها في القرآن وفي الحياة وصية الرسول لنا ألا يدل ذلك علي قيمة المرأة ومكانتها في الإسلام .

الإسلام وتكريم المرأة :

كان المجتمع الذي سبق ظهور الإسلام لا يقيم للمرأة وزنا ولا يعرف لها حقا، وعندما جاء الاسم ضمن التشريع الإسلامي حقوق الرجل وحقوق المرأة ، وحقوق الأبناء داخل الأسرة ، فلا استعلاء لمجتمع الرجال على مجتمع النساء ، كما كان الأمر في حضارة الرومان وحضارة الإغريق .

وبالنظر لحياة النبي خ نجد موقعا كريما للمرأة مع إشراق فجر الإسلام فحين فاجأ الوحي الرسول وهو في غار حراء ذهب إلى بيته وقد دخله الروع ، فلما رأته زوجته خديجة وعرفت الأمر قالت للنبي خ تهدئه وتخفف عنه وتخفف عنه " كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقي الضعيف ، وتعين على نوائب الحق " ، وقد كانت أول الخلق إسلاما .

والولاية بمعني القرب والاتصال والتعاون والتكافل :

والنساء كما ورد في الحديث الشريف : " شقائق الرجال " ولم يعهد هذا من قبل في الكتب السماوية السابقة ولا في الحضارات السابقة علي الإسلام ، والإسلام جعل المرأة تملك أمر عقيدتها بنفسها وتبايع بنفسها النبي خ علي الإيمان وهو الذي جعل امرأة عربية ترد عمر بن الخطاب حين بدأ له أن يدعو إلي تقليل المهور للنساء ، فيرجع عمر بن الخطاب عن رأيه وهو الذي كانت تهتز لكلمته عروش الأباطرة ويقول :" أصابت امرأة وأخطاء عمر" .

كما نجد أن الرسول كان يستشير المرأة في بعض أمور المسلمين وذلك عندما أخذ رأي زوجته أم سلمه في مسألة عمرته التي حل منها في الحديبية ، وتردد المسلمين في الحلق فقد أشارت عليه أن يبدأ هو بالحلق حتى يقتدي به المسلمون.

وقد حملت النساء أيضا أمانة العلم الديني وهو ما لم يكن متصورا في الأديان السابقة فقد روت أحاديث النبي خ أزواجه الطاهرات ، وكثيرات من النساء كأسماء بنت أبي بكر وأم هاني بنت أبي طالب ، ونفيسة بنت حسن الأنور ، واشتهرت بين النساء شاعرات مثل الخنساء ورابعة العدوية ، كما اشتهرت بعضهن بموهبة الأدب كالسيدة سكينة بنت الحسين ، وهكذا فإننا نجد تكريم الإسلام للمرأة كان بأوامر قرآنية وتوجيهات من الرسول خ ليضع المرأة في مكانها الصحيح الذي أراده لها الله سبحانه وتعالي .

الإسلام يؤكد روعته :

أعلن الإسلام منذ اللحظة الأولى أنه جاء رحمة للعالمين

كما جاء الإسلام ليقيم موازين الحق و العدل ويرسي دعائم الأخلاق ، وهذا أكده نبي الرحمة في قوله:"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (رواه البخاري). وللإسلام ثوابت لا يغفلها أحد وهى لا تتغير باختلاف المكان والزمان ومن هذه الثوابت :

أن حقيقة الإسلام هي حقيقة كل دين فالإسلام معناه إخلاص العبادة لله والإيمان بالله وملائكته و كتبه ورسله واليوم الآخر.

أن الله عز وجل أوجد الناس جميعا من أب واحد وأم واحدة أن من مقاصد الأديان التعارف

وهذا التعارف يستلزم الحوار وتبادل المنافع بين الناس وتبادل الأفكار ، وقد أورد لنا القرآن الكريم ألوانا من الحوارات بين الرسل و أقوامهم و بين أهل الجنة وأهل النار حتى بين الخالق عز وجل وبين ملائكته ، وبين مخلوقاته بصفة عامة.

كما إن الحضارة الإسلامية قد تواصلت في السابق مع كافة الحضارات ، الأمر الذي جعل أعظم الفلاسفة المسلمين وهو ابن رشد يجعل من الاطلاع على ثقافات الآخرين أحد الواجبات الدينية التي لا يجوز للمسلمين التخلي عنها ، فالإسلام يعترف بالآخر ويتجلى ذلك في اعترافه بالأديان السماوية السابقة عليه ، وهو خاتم الرسالات السماوية وهى كلها خرجت من مشكاة واحدة، وهذا ما أكده القرآن الكريم.

هذه هي روعة وجمال وسماحة وحرية الدين الإسلامي وقد دفعت روعة الإسلام الأديب الألماني جوته (٧٤٩هـ - ١٨٣٢م) أن يشيد بالأدب الإسلامي ويطلع على القرآن الكريم في بعض ترجماته فيقول:"من حماقة الإنسان في دنياه أن يتعصب كل منا لما يراه ، وإذا كان الإسلام معناه التسليم لله فإننا جميعا نحيا ونموت مسلمين."

فقد دخل الإسلام الشرق بسماحته وروعته إذ فتح المسلمون في ثمانين عاما أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون ، وكانت هذه الفتوحات الإسلامية تحريرا للشرق- الإنسان والأرض- من القهر الديني الذي مارسه الرومان والفرس ضد شعوب الشرق علي امتداد عشرة قرون من الإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد إلي الفتوحات الإسلامية .

الأصل هو" الاختلاف :

لقد خلق الله الناس جميعاً ليكونوا قابلين للتغيير المستمر والتجدد الدائم ، لأن في ذلك عبادة لله عز وجل فالتغيير والتجدد سنة كونية أرادها الله سبحانه وتعالى للناس

فعندما قال فيلسوف اليونان القديمة " هيراقليطس " مقولته الشهيرة " إنك لا تستطيع أن تنزل النهر مرتين " كان من الطبيعي أن يثور لدى الإنسان العادي تساؤل عما يمنع من نزول النهر مرة أخرى وكان الجواب أن مياه النهر تتغير باستمرار ، لذلك فإن المياه التي سوف تنزل فيها المرة الثانية لن تكون هى المياه الأولى فقد جرت في المجرى وحل مكانها الجديد من المياه .

فالمياه تتغير وتتجدد وتلك سنة كونية ، والتغيير والتجدد نتيجة حتمية للاختلاف الذي خلق الله الناس عليه ،

وهكذا شاءت الحكمة الإلهية أن يكون الناس مختلفين كي يتمكنوا من الوصول إلى

والاختلاف يعنى تعدد فهم الرؤية الواحدة ، و قديماً قال أحد الحكماء : إن الحق لم يصبه الناس من كل وجوهه ، و لم يخطئوه من كل وجوهه ، بل أصاب بعضهم جهة منه ، و أصاب آخرون جهة أخرى .

و قد جعل الله الإنسان مكلفاً أي صاحب مسئولية ، الأمر الذي أهله لكي يكون – بتدبير الله - خليفة في الأرض ليعمرها بالخير ، وقد كرم الله الإنسان وفضله على جميع الكائنات، وهذه الكرامة التي اختص بها الإنسان ، ذات أبعاد مختلفة .

فهي حماية إلهية للإنسان تنطوي على احترام عقله وحريته وإرادته ، وتنطوي أيضاً على حقه في الأمن على نفسه وعلى ماله و ذريته ، و من أجل ضمان تحقيق الحماية الإلهية للإنسان ، حددت الشريعة الإسلامية لنفسها مقاصد خمسة لتأكيد هذه الحماية ، و هذه المقاصد هي حفظ النفس والدين والعقل والمال والنسل .

كما أعطته الشريعة حق الاختلاق ، ومنحته الحرية في الفعل والترك حتى في قضية العقيدة الدينية نجد القرآن يؤكد هذه الحرية بكل وضوح

و لما كان حق الاختلاف منحة إلهية للإنسان ، فنجد الإنسان كونه مكلفاً ألقيت على عاتقه مسئولية لم تستطع الكائنات الأخرى تحملها و قبل الإنسان وحده تحمل هذه المسئولية بكل ما تعنيه من التزامات. و الأمانة المقصودة هي أمانة التكليف و هذا يؤكد حقه في الاختلاف الذي هو الأصل منذ أن كانت بداية الكون و الخليقة .

التربية بين الخطاب المعرفي المراوغ ودوال التفكيك

يقول المثل العربي القديم :

"خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين "

التربية والخطاب المعرفي المراوغ :

ساعدت الكثير من الوسائل المنهجية والنظرية على تربية قطاعات شبابية واسعة من المجتمع المصري اعتمدت على الخداع اللفظي وخداع الذات تزييفا لوعي الشباب ،وتجريفا لذاكرته ، وتبويرا لعقله ، ليتم تأصليهم على فكرة شيطانة الآخر ،وتربيتهم على حالة الإنكار المتعمد المقترنة بقلب الحقائق وتغييرها وطمس كل ما يتصل بالصواب ، وقد تجلت سوسيولوجيا فعل هذه القطاعات كطرح مناقض لحقائق الوجود الحقيقي حيث كان العنف وظواهره القاتلة يعلن عن وجود خطاب معرفي مراوغ لا يقبل الإ نفسه ،ولا يعترف بالآخر ، طرح هذا الخطاب آليات تفكيك ثوابت أساسية راسخة في وجدان الشعب المصري كالانتماء والدولة الوطنية والحفاظ على حدود الوطن وسلامة أرضيه .

وقد ساعدت التربية الموجهة لتلك القطاعات من المجتمع المصري على تكوين معرفة مفارقة للمجتمع ،تطور من بنياتها وهياكلها المعرفية أجيالا ذات بعد واحد ،وفكر واحد لا يقبل الحوار ،إنما يقوم على الإقصاء والتهميش ،في ظل مجتمع به قطاعات متعاظمة تقوم على الجهل والتخلف فيتم غرس الخطاب المعرفي المراوغ بسهولة ويسر وبخاصة وجود انخفاض قاس في مستوى معيستهم فيكون تقبلهم لأي فكرة وبخاصة عندما تكون ممزوجة بالدين كستار لها ومدعمة بالعبث بوجدانهم ،جديرة بالتأصل والبقاء .

التكامل المعرفي وبناء الإنسان :

وقد شهد المجتمع العالمي في عقوده الأخيرة تحولا فارقا من المجتمع الصناعي إلى نموذج حضاري جديد هو مجتمع المعلومات العالمي الذي يتحول بثبات إلى مجتمع المعرفة والمعرفة ليست فقط مجرد وسائل لتحصيل العلوم واكتناز المعرفة ،بل هي وسيلة من وسائل معرفة الإنسان سعيا لبنائه ، كممثل لمجتمع كامل لقدرته ، وللتعرف على العالم من حوله ،وهى أيضا وسيلته الأساسية لكي يتعرف على الآخر فكلما ارتفعت قيمة المعرفة والإقبال عليها في مجتمع من المجتمعات وجدنا هذا المجتمع أكثر قدرة على فهم الآخر والتفاعل معه .

ويتطلب بناء الإنسان من خلال التكامل المعرفي ، المعرفة الحقيقية للسياق التاريخي الذي تمر به الإنسانية في الوقت الراهن ، وأبرز ملامح هذا السياق هو الانتقال من الحداثة إلى ما بعد الحداثة ، والتي تعبر عنها العولمة باعتبارها عملية تاريخية ، هي نتاج تراكم طويل في ميادين السياسة والعلاقات الدولية والاجتماع والثقافة والاتصال وينصب ذلك على معرفة الآخر من خلال قيم التسامح والتعددية التي تعبر عن ثقة الفرد والمجتمع في ذاته ، ويقينه في قوته التي ترتكز على العقلانية والموضوعية .

ويعني ذلك تربويا إنهاء نظرية البعد الواحد للرؤية ،لأن الواقع في عمقه يكشف عن رؤى متنوعة للوجود والحياة والعقل،يظهر في استخدامها للغة حيث تختزن اللغة سياقات تاريخية كاشفة ، وفي الخطاب المراوغ لا تتطابق اللغة مع ما يعبر عنه أبدا،بل تظهر في تفكك مستمر بين رغبتها في الحضور ،وآليات الحضور التي لا تحضر .

التربية والصراع المعرفي :

وقد أدت أزمة المجتمع المصري بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير إلى تفجير ثورة الشعب المصري الثانية في الثلاثين من يونيو، ثورة المطلب الواحد (عدم استخدام الدين لتزييف وعي الشعب تحت شعار يسقط حكم المرشد) .

حيث كان الشعب المصري صنيعة ألاعيب سياسية وفكرية ودينية ورمزية غير متعينة في اللغة والتاريخ ، وذلك يتطلب دورا فاعلا للتربية ،فالتربية مهمومة بتفجير وتثوير الواقع من خلال رؤية جدلية ترى أن الإنسان المصري لا يرى واقعه بشكل مباشر ، وإنما يراه عبر وسيط من النصوص الشفاهية والمدونة التي روجت لها السلطات عبر التاريخ فعطلت الحواس عن العمل . ولذلك فإن تثوير الواقع لا يتأتى بنقد الواقع مباشرة ،وإنما نقد العائق الوسيط الذي يحول دون نقد الواقع.

وتقف التربية الآن أمام صراع أبستمولوجي لثقافات متصارعة بوصفها تعبيرا عن الصراع الاجتماعي ،تحمل خطابات معرفية متعددة وعلى التربية أن تطرح صيغة تربوية تقوم على تفاعل كافة الفئات ،والثقافات بحيث لا تسيطر ثقافة واحدة بطبقة واحدة على مستقبل الشعب المصري حتى لا نقع في الرؤية الأحادية لواقعنا ونغفل جوانبه الأخرى ، فإن تفاعل الآراء وكافة الأطياف في القرار السياسي والحضاري والاجتماعي يفسح المجال لرؤية تركيبية ،تتجاوز أنانية الذات الضيقة ، التي تحاول تأكيد سيادة طبقة ترى في نفسها القدرة على قيادة المجتمع وهى في الحقيقة تقوده نحو مصالحها وتحالفاتها مع الآخر .

فالمشهد الثوري المصري يختبر كل مفاهيم علوم التربية التقليدية عن القوة والسلطة والنفوذ والسيادة ، ودور القوى والكيانات السياسية وعلى نحو تخطى وتجاوز كل ما تم تداوله خلال العقود السابقة من مرجعيات وبخاصة تحت تأثير العولمة في العقدين الآخرين، ومن ثم يقدم المشهد الثوري المصري نموذجا حضاريا شارحا ومختبرا منظورا حضاريا ينطلق من منظور معرفي قيمي إنساني، وهذا النموذج الحضاري ذو صيغة كلية شاملة متكاملة وحاضنة بين أبعاده ،حيث يضفر بين مجموعة من الثنائيات متجاوزا لكل منها إلى ما هو أرحب (الجزء/الكل ،الروح/العقل ،التنوع/التنميط إلخ)حيث تتكون شبكة تفاعلات عضوية سعيا لوحدة في إطار التعدد والتنوع .

ويقودنا ذلك إلى ضرورة التأكيد على عدم إقحام الدين بالسياسة لأن الدين عقيدة والسياسة عمليات سياسية وفكرية واقتصادية لم تتشكل بشكل نهائي ، كي تصبح نظرية أو خطابا معرفيا أو كونيا ، وهذا يوقع البعض في تحليل غير دقيق ،حيث يقع الخلط نتيجة لعدم التمييز بين الدين والممارسات التي يقدمها البشر ،فالدين معطى سماوي صحي الكلية ، والسياسة معطى بشري نسبي الكلية .

ويؤكد ابن المقفع على ذلك بقوله " الدين تسليم بالإيمان ، والرأي تسليم بالاختلاف فمن جعل الدين رأيا فقد جعله خلافا ، ومن جعل الرأي دينا فقد جعله شريعة " .

وقد استند فقهاء أهل السنة في تناولهم لكثير من أحكام الرسول (خ) السياسية أنها كانت على اجتهاد لأمور ثلاثة:

أن الرسول (خ) لم يبين الأحكام السياسية تفصيلا ، كما بين أحكام الدين .

أنه لم يستخلف.

أنه كان يستشير أصحابه ، بل قد أمره الله بذلك في قوله تعالى :

على ضوء ما سبق يمكن السير في البحث من خلال الخطوات التالية :

١ - التربية واستيعاب ما يقع خارج حدود التوجيه والتنميط والتلقين المعرفي .

٢ - التربية و إدراك الواقع في صوره المعرفية المتعددة من خلال تصورات النظرية الكامنة في الوعي .

٣ - التربية والانتصار للواقع على حساب النظرية من خلال المعيشة الوجودية الحية المباشرة بنقد أدوات المعرفة .

٤ - التربية وتعظيم تعدد الرؤى و التصورات لتكوين قيم معرفية كبرى .

العولمة والخطاب الديني

العولمة بمفهومها المعاصر تمثل الهيمنة والسيطرة على كل وسائل الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتربوية ، وقد ساعد على توسع العولمة التطور العلمي وقوة دول المركز المسيطرة على الأطراف و تزعم العولمة بمفهومها الحالي توحيد العالم .

والدين الإسلامي لا يرفض توحيد العالم بشرط أن يكون لكل شعب خصوصياته ومبادئه إنما يرفض توحيد العالم ،ووضعه في قالب واحد تحت سيطرة وهيمنة إحدى القوى الكبرى ، وتحت مظلة أحد المذاهب والفلسفات السائدة . لوحدة هي الأصل في الدين على أن تخضع هذه الوحدة لله تعالى ، والخطاب الديني في مواجهة العولمة يتطلب : خطابا دينيا بعيدا عن الجمود والتقليد لأن البناء على أساس عقلي يقتضي تنقية الرواسب والأكداس التي خلفتها القرون الماضية ، وأكسبتها طابع القداسة فهيمنت على العقول ، وحجبتها عن البحث والتأمل ، والتفكير ، والتنافس في العلم ، ورؤية الأخريين

وقد أنب القرآن الكريم المشركين على تمسكهم بآراء السابقين من الآباء والأجداد ، ولو كانوا على ضلال مبين ،على هذا الأساس فالخطاب الديني مطالب بالآتي :

مقاومة المكابرة والعناد ، والمعاندون هم الذين يرون الحقائق ماثلة أمام أعينهم ولكنهم يعاندون ويكابرون ويختلقون الأكاذيب لطمس الحقائق تحرر العقول من أغلال التقليد ، و المعتقدات الفاسدة ، ثم التأمل والاستنباط

أن تكون النتائج العلمية مؤيدة بالدليل الملموس وبالبراهين ، والمجتمع العربي تغير عبر الزمن وبالتالي تغيرت مكونات الخصوصية الثقافية فهناك قضايا أساسية وحيوية من بينها موضوع التنوع الخلاق فهذه مسألة أساسية ،و أن يكون الحوار بين الحضارات أساسا وليس الصراع ، فالحضارة كما هو معروف تنقسم إلى قسمين قسم مادي من علوم الكيمياء والطبيعة والفلك وغيرها وهذا القسم قابل للانتقال من مكان إلى مكان ، وقسم معنوي يخص كل حضارة من لغة وعادات وتقاليد وقوانين ودين وهذا يخص كل شعب من الشعوب . والانفتاح على العالم الخارجي لا يعني النقل الأعمى عنه ، بل يعني أن نتفهم ونتخير ما يتفق مع أصول حضارتنا فنأخذه ، وما يتعارض مع أصول حضارتنا نرفضه .

الخطاب الديني وصيرورة الوجود

تواجه الأمتان الإسلامية و العربية هيمنة ثقافية تجلت في سيطرة قوة أتيح لها من التمكن العسكري والسياسي ، ما يدفعها إلى ادعاء أن حضارتها هي الحضارة الأعلى ، ومن ثم فإن من حقهم التدخل في ثقافة الآخرين وفرض نموذجها على الدول الأخرى.

وفي مقابل ما يحدث الآن في العالم من هيمنة دول المركز على دول الأطراف فإن ذلك يتطلب منا تجديدا في خطابنا الديني المعاصر، و بخاصة أن مسألة التجديد في الخطاب الديني ليست قضية موسمية ، وإنما هي قضية إسلامية متواصلة تتجدد بتجدد الزمان والمكان ، وقد قال النبي (خ) في ذلك "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" (أخرجه أبو داود في سننه).

والفكر الإسلامي يختلف عن الفكر الغربي بشقيه الشيوعي والفردي ، فالفكر الشيوعي يقوم على التفسير المادي للتاريخ ، ويعادي الدين ويجعل من المادة إلها والمذاهب الفردية الغربية تقف موقفا محايدا من الدين ، وكلاهما يجعل الإنسان أسيرا للدنيا.

وهناك بعض المفاهيم متعلقة بالفكر الإسلامي ومنها مسألتان متعلقتان بالخطاب الديني :

المسألة الأولى : أن الإسلام ليس دينا جديدا ، وإنما هو كما وصف القرآن الكريم مهمة النبي(خ) أنه رسول الله وخاتم الأنبياء ، وجاء كتاب الإسلام مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه.

المسألة الثانية : وهذا شيء مهم لوجدان الأمة الإسلامية ، فالمسلم لا ينزع نفسه من الحياة بل عليه أن يشارك ويعيش ولا يحرم نفسه

والخطاب الديني بهذا المفهوم هو منتج عقلي لتوصيل صحيح الدين بحيث يتم فتح باب الاجتهاد بأدوات وآليات مناسبة نستطيع من خلالها تجديد صياغة الخطاب الديني الذي يصدر من العلماء والدعاة والمفتين إلى جماهير المسلمين وكذلك العالم الخارجي ، وعلى ذلك يكون الخطاب الديني في حاجة إلى الآتي:

١- تراجع الدعوات المغلوطة و التفسيرات المنحرفة ، والتأثير السلب الذي يمارسه بعض الدعاة ، ولا يعرفون ما يدور حولهم في العالم .

٢- ضرورة وجود الفهم الصحيح لكثير من جوانب الإسلام عقيدة وشريعة وتصورا للكون و الطبيعة ، فلم تعد المسألة مسألة القدرة الدعوية أو الخطابية، وإنما لا بد تصحيح فهم الدعاة بأمور العقيدة والشريعة ، وهذا يكتسب بالتعلم و البحث ، ومتابعة ما يحدث في العالم من تحولات علمية وتقنية متسارعة الخطى مما أوجب علينا ضرورة النظر فحصا وتدقيقا والمشاركة الفاعلة في الأخذ بالعلوم المفيدة .

٣- الارتباط بواقع الناس وواقع الدنيا ، وعدم الانحصار في رؤية محلية ضيقة .

٤- عدم الغفلة عن أثر تغير الزمان والمكان ، وعدم التشديد على الناس لأننا في عصر يحتاج إلى التخفيف والتيسير ، وأن يكون إدخال الناس في التدين من باب الترغيب دون الترهيب .

٥- ضرورة ابتعاد الدعاة عن تحقير الإنسان لنفسه وعدم ترهيبه حتى لا يعيش مخلوع القلب ، لأنه بذلك لا يستطيع أن يصنع حضارة في عالم صار الكون فيه قرية صغيره .

الفصل السابع : تعميد الذات بين الهويات المغلقة والمتنافرة في التعليم الجامعي

"لا يتبدل ما في الأعيان إلا إذا تبدل ما في الأذهان"

مدارات تربوية في التعليم الجامعي .

الجامعة هي قاطرة المجتمع المصري نحو التقدم والازدهار ، ولا ينبغي أن يكون الهدف من التعليم الجامعي تقديم معرفة من أجل المعرفة ، ولكنه ينبغي أن ينتج معرفة جديدة ترتبط بنمو القوى البشرية كعملية اقتصادية ، يحتاجها المجتمع المصري ومن ثم تكون مخرجاته وإسهاماته في إطار التنمية البشرية والقومية .

فالتعليم الجامعي منوط به تحقيق أمان نفسي واجتماعي ، ويرتبط ذلك بقدرات مؤسسات التعليم العالي على الاستجابة لاحتياجات المجتمع في ظل التحولات العالمية والمتغيرات المتسارعة في عالم اللحظة ، لذلك يجد التعليم الجامعي نفسه أمام تحديات عديدة ومستمرة.

وقد قدم التعليم الجامعي من خلال أدواره في مجالي التدريس والبحث العلمي العديد من النتائج المهمة إلا أنها لم تحظ بواقعية الوجود الفعلي، لوجود بعض نواحي القصور في مجالات دعم التعليم الجامعي وبخاصة عندما أضيف إليه دوره في خدمة المجتمع لتطوير بيئته ، في ظل انعكاس آليات العولمة الاقتصادية على السياسات المالية للدول الأمر الذي نتج عنه أزمات عميقة ساهمت وقادت إلى تخفيض الموزانات المالية للحكومات ، وانعدام دولة الرفاء الاجتماعي ، كما أدى ذلك إلى خصخصة الخدمات الاجتماعية ،كالتعليم والإسكان والصحة وغيرها، وبذلك صار المجتمع المصري أسير نقيضين :

الأول : نموذج التهميش الاجتماعي للذين لحق بهم الفقر .

الثاني: نموذج استحواذ اقتصادي لا يبغي سوى الربح ، وتحقيق المزيد فيه، وقد انعكس ذلك على التعليم الجامعي ، حتى صارت معادلة تحقيق الأمان النفسي والاجتماعي من خلاله صارت من المستحيلات، لأن السياسات التعليمية في التعليم الجامعي هي وجه من وجوه السياسات الاجتماعية .

والتعليم الجامعي بذلك يقف على مفترق الطرق ، فإذا استمر في أدائه بصورة عادية فإنه يعطي ظهره لما يحدث حوله عالميا وإقليميا ومحليا ، لذلك فإن التعليم الجامعي في مصر يجب أن يكون تعليما من أجل البقاء في عالم متحرك "تعليم وجود " .

فالعولمة تفرض امتلاك عقول مرنة غير ساكنة أو ثابتة ، فمواجهة المواقف الجديدة غير المألوفة للطالب الجامعي تتطلب أن يكون طالبا يتعلم ويعمل ويعيش في مجتمع كوني تحكمه علاقة خصوصية بين ثورته العلمية وثورته التكنولوجية ، حتى لا يشعر أنه يتعايش ويتعامل مع ثقافة اغترابية تفقده أمانه النفسي والاجتماعي .

والواقع يشير أن من أخطر الآفات التي صارت في تصادم ملحوظ مع كافة قضايا التعليم شيوع وتراكم العديد من التصورات المخلة بحيوية وصيرورة قضايا التعليم حيث البراجماتية التي تختزل الواقع المتعدد والذي يسير نحو التحول في بعض جوانبه فيفتقد الواقع بذلك النظرة الشمولية التي تحاول توصيف البدائل والحلول لبعض المشكلات التعليمية وبخاصة في التعليم الجامعي حيث صارت مخرجاته لا ترقى إلى المستوى المطلوب .

ويستدعي ذلك في مجال التعليم الجامعي تفعيل نشر وعي نقدي يطال كافة الماثل في واقع التعليم الجامعي يتم من خلاله تجاوز السائد والمألوف ليؤسس بذلك فهما عميقا ومعرفة مؤصلة .

لأن هذا الوعي النقدي سوف ينتشل التعليم الجامعي ، من عملية تجميد الواقع التعليمي ، لأن التعليم الحالي في فضائه الحالي أصبح أداة عزل حضاري ، يكرس لثقافة التصديق والتسليم بما هو قائم ، ومن ثم تغيب وتتلاشى ثقافة التساؤل والتحقق ، فالتغيير أمر حتمي وضروري وحقيقة لا تحتاج إلى تأكيد وها هو " هيراقليطس" (٥٠٠ ق.م) يؤكد هذا المبدأ: "كل شيء يتغير إلا قانون التغيير وأنت لا تنزل نهرا واحدا مرتين " .

البديل مع المبرر ضمن منظور الروابط المستجيبة مع الفهم:

وقد ضم التعليم الجامعي خلال العقود الأخيرة بين صفوفه أعدادا من الطلبة الذين تم تجريف ذاكرتهم ، وتبوير عقولهم وتزيف وعيهم من قبل الجماعات المتطرفة فكريا وعقديا ، ونظرا لانعدام التأسيس الفكري الواعي والمستنير لهم ، وفقدانهم عنصر الأمان الاجتماعي.

فقد أدى ذلك إلى انخراطهم في صفوف هذه الجماعات التي احتوتهم بغطاء الدين حيث ادعى قادتها ملكيتهم "للوحي" متجاوزين بذلك أصول العقيدة بانقطاع الوحي وقد زاد من ذلك تمادى بعض أعضاء هيئات التدريس في الجامعات المصرية مع تلك الجماعات المتطرفة وانعكس ذلك بوضوح في الأحداث الأخيرة التي وقعت بمصر عقب ثورة الثلاثين من يونيو عام ٢٠١٣ .

وقد كان تزييف وعى هؤلاء الطلبة هو محور هذه الإرادات التي انخرطت في صنع تاريخ يستمد شرعيته من الوحي المزيف ، الذي اخترعوه بصفته لغة لتوطين كينونة تتشخص عبر التمثل الديني .

وبما أن موت النبي (خ) شكل حدثا أساسيا ، يتمثل في انقطاع لغة الوحي فإن كل إرادة قوة محفزة الآن ، لتساهم في خلق موقعها داخل السلطة ، لتمثل استمرارا للنموذج النبوي الديني .

وهنا تبرز قوتان أساسيتان تطمحان إلى اكتساب شرعية داخل السلطة:

القوة الأولى:

هي التي وصلت إلى السلطة في مصر بعد أكثر من ثمانين عاما تنوع فيها تاريخها بين العنف تارة والمهادنة تارة أخرى حيث تعتبر نفسها العامل الأساسي الحاسم لانتصار سلطة الوحي التي تعده لنفسها وللعبها دورا آخر مع قوى خارجية كأداة لتفتيت مصر والمنطقة العربية وهدم كيان الدولة المصرية لصالح قوى الاستعمار الخارجية ، وهذه القوة ليست مؤهلة لتمارس دورها من موقع المباشرة الفعلية للسلطة وقد ثبت فشلها عندما تولت السلطة عاما كاملا لعدم اعترافهم بالوطن وحدوده بالإضافة لانتمائها للقوى الخارجية التي تمولها وتقوم بتوجيهها وقد أكد ذلك عدم انتمائها لمصر فصار الشعب المصري عليها في الثلاثين من يونيو وهى قوة تحمل وجهة نظر أحادية مفتقدة إلى أي إرهاصات ديمقراطية أولية ، تؤمن بالإقصاء التام للقوى الأخرى بقدر ما تدعو إلى انخراطها في تأسيس مشروع مشترك كما أنها لا تؤمن بمبدأ التناوب والتعايش وتقاسم السلطة.

القوة الثانية:

وهى قوة تتخذ الدين أيضا غطاء لمشروعها وتحمل أيضا وجهة نظر أحادية البعد وداخل هذه القوة تيارات عنف متباينة ، وتفهم السلطة على أنها نزوع ورائي ينتقل بين أبناء الجذر الواحد لا غيره ، ومن ثم وجب إقصاء القوى الأخرى ، وهذا امتثال واضح لمنطق الاستبداد الديني حيث شهوة السلطة تتقدم لتحرك دينامية العزل و الإقصاء وامتلاك الحقيقة المطلقة ، فلا أحد سواهم يفهم الدين إلا هم وصولا لشرعية السلطة المؤسسة على استخدام الدين كنقطة عبور لطلبة الجامعة ، وبما أن هذا الخط ميكيافيللى" يرى الغاية هدفا أسمى للمصلحة ، فإنه يلتجئ إلى كل الوسائل لتنفيذ هدفه.

إننا هنا بإزاء أنا متعال (ترتسندنتال) يتجاوز الأرضي ليلج ما بعده يتوحد بالغموض محتفظا بالسر في الوقت نفسه الذي يدمر فيه الزمان الحاضر لينفي لغة المستقبل ويستضئ بالمجاهيل ، إن كينونة هذه الأنا المتعالية تتقوم داخل قواها وأفعالها كل المعاني المحتملة لتؤول وجودها .

وهاتان القوتان اعتمدت "الأسمانية" وعاء لها (الأسمانية مذهب فلسفي يقول بأن المفهومات المجردة أو الكليات ليس لها وجود حقيقي ، وأنها مجرد أسماء ليس غير) فالحقيقة كلها في الاسم الذي يسميها .

إن الإبدال المحوري لهذه القوى سيتحقق من خلال محاولة الكشف عن رهانات الخطابات الخاصة للتعليم الجامعي نحو تحقيق الأمان النفسي والاجتماعي لطلبة الجامعة وهذا ما يستلزمه فعل الإبدال لتوجيه هؤلاء الطلبة عمليا و نظريا نحو التحقق والاستنارة الفكرية التي تجعلهم يرون المستقبل برؤى تقدمية مفارقة للثبات المقدس باعتبار ذلك مدخلا لتحقيق مادية الخطاب التعليمي والتربوي الموجه الذي يراد تحقيقه بعيدا عن توظيف مفهوم الدين واستغلاله في العمل السياسي ، فتتبدى بذلك الهويات المغلقة والمتنافرة ، خشية أن يفهم أحد حقيقتها هذا القوى التي لحق بها العديد من المحاذير التي ظلت تاريخيا عائقا أمام القدرة على التخلص منها ، و محاولة تعميد وتطهير الذات .

علاقة الذات بالآخر:

إن مسألة الهوية وطبيعة الذات بالآخر من المسائل الجوهرية التي رافقت الهويات المغلقة والمتنافرة ، كما تزايدت رهانيتها وحتمية تفكيك مقولتها مع الثورة الشعبية الناهضة في الثلاثين من يونيو التي أزاحتهم باعتبارها ثورة تحافظ على تماسك الأمة والوطن وسلامة أراضيه و تبرز هنا أهمية وقيمة التربية كونها المآل إلى تنشئة أجيال مستنيرة ذات قدرة ناقدة وحس وطني حريصة على مصلحة الوطن ، تزود عن دينها باستنارة وعلم وليس بالجهل والطاعة العمياء لمن استغلوا الدين غطاء وعباءة يتدثرون بها ، بهدف الوصول إلى الحكم ، وتنفيذ أجندات خارجية الهدف منها انهيار الدولة المصرية وتدمير كافة مؤسساتها .

وللتربية سلطة الفصل والوصل التي بها تتحقق الولادة المرتقبة ، بالاندماج في حركة الكون ، لأن الاندماج عامل من عوامل السمو والحركة العلائية ، وهذا الاندماج يغرى بالحفر في الذاكرة ، وفي الاندماج وسياقه يتم تعميد الذات بغية التطهر ، وبعد ذلك تمس عملية التطهر الواقع المحيط من أجل تجلية الصدأ ، ولحم عناصره ويتم التخلص من المفروض قسرا .

إن نتيجة الإرهاب والعنف الذي تمليه الهويات المغلقة والمتنافرة يؤدى إلى اكتشاف الآخر وتخطى اللحظة الحاضرة فكل شيء في وقتنا الراهن يدعو إلى التأمل ألاستشرافي ، وحتى في الحالة التي نعود إلى دراستها في الماضي في شموليته فإننا ننظر إليها بوصفها حقبة زمانية مرهونة بالمستقبل ضمن تطابق تزامنى .

ذلك لأن العقل مطالب في جميع تصوراته بتصيير الأحداث لكي تغدو متسقة مع إرادة الأزمنة الحديثة لذلك ليس في وسع باحث أن يحاول إخضاع ضرورة طبيعة الحياة في مستجداتها إلى الماضي التاريخي أو إلى انفصال التراث عن مسارنا الاجتماعي .

تحرى الوعي المصر لوجوده الحضاري:

إن ما حدث في ثورة الثلاثين من يونيو عام ٢٠١٣ تجاوز تماما وعى السلطة الحاكمة آنذاك ، ووعى المعارضة معا ، فقد تجاوزت تلك الثورة كافة المشاريع القومية والليبرالية والإسلامية وخلافها تلك التي طرحتها النخب في الوقت الذي كانت فيه الجماعات الطائفية تصعد من أعمالها لتفكيك الوطن وإسقاط مشروع الدولة

فقد ابتكرت ثورة الثلاثين من يونيو سلطة المشروعية العمومية وأنهت الاستقطاب الفكري والسياسي والديني كما أنهت تسيد الفكر الطائفي الحدي الذي رسخته جماعات الإسلام السياسي لتمزيق النسيج الوطني ، في الوقت نفسه التي كانت فيه الجامعات المصرية تمتلئ بأصوات المتطرفين بين طلابها فأنعدم بذلك الأمان النفسي والاجتماعي فأنت أمام عنف وإرهاب ليس له مبرر إلا المصلحة الضيقة لتيار يدعى الحقيقة المطلقة حتى صارت بعض الجامعات المصرية ساحة للعنف المنظم و المدفوع الأجر .

فالأزمة الآن هي أزمة في العقل والوعي وليس في الواقع ، الأزمة ارتهان لسيطرة جماعة منظمة على عقول طلبة الجامعات في توقيت غابت فيه عنهم أدوار الجامعة لنشر التنوير والوعي ، وتحصين هؤلاء الطلبة ضد العدمية و الظلامية والإرهاب التي أرستها طوائف العنف والإرهاب ذات الفكر الواحد المتسلط المغلوط لهذه الطوائف الذي يؤصل لانغلاق الأفق الثقافي .

ويصور لنا ذلك أزمة التعليم الجامعي الذي افتقد الهدف الثقافي الوطني المحدد ، والاتجاه الواضح نحو مخرجات جامعية تقضى على التناقض والالتباس الذين تعانى منهما بنية التعليم الجامعي وصارت شعارات مثل (الإسلام هو الحل ، والحاكمية ....إلخ) مفروضة على عقول شباب الجامعات ومقصور تفسيرها على فئة ادعت لنفسها ملكية النص الشرعي ، حتى طرح سؤال نفسه على الساحة لدى شباب الجامعات : من سيحكم في حالة قيام دولة إسلامية. هل البشر أم النص ؟.

فهذه المسألة قد حسمها على بن أبي طالب حين كان يخطب من على المنبر والخوارج يصيحون "لا حكم إلا لله" ، فقال: "كلمة حق أريد بها باطل".

وقد اختبر هذا التيار إمكاناته بين طلبة الجامعة من خلال الممارسة اليومية حتى صار بعض االطلبة طوعا لينا لقيادة هذا التيار فقد طرحوا كل ما لديهم داخل الجامعات المصرية مختبرين إمكانات ما يحملونه من حقيقة أو وهم ، حتى أدخلهم ذلك في "جدليات السلب الذاتي" فهو نفي وسلب مستمر للتوهم الواقعي ، حتى تم كشف القشرة الزائفة التحى يتسترون حولها .

فللأمة المصرية مجدها هو ماضيها المبدع ، فالمورث الثقافي له قيمته ، والنص المقدس ملزم للجميع ، ولكن الكثرين مما يقعون في الخلط في التراثي وجعله كله مقدسا حيث يأخذون بتراث التقليد والإتباع ويهجرون تراث العقل والإبداع ، فتكون المخرجات دون إبداع لا تعبر عند تعددية الرؤى وقيمة الاختلاف ، من أجل صالح الوطن والأمة

فنجد في توجههم هذا بعدا عن سماحة الرسول (خ) بقوله في مسألة "تأبير النخل" أنتم أعلم بأمور دنياكم ، فقد شرع شرعة للعقل موازية لشرعة الوحي، ومفهوم المخالفة هنا: (أنا أعلم بأمور دينكم ، وأنتم أعلم بأمور دنياكم).

لذلك علينا أن نتعامل في تصوراتنا داخل الجامعة من خلال وجود تحديات، وهذه التحديات يجب تشخيصها للبحث عن استجابات صحيحة لها ،

ومن بين تلك التحديات:

الاتجاه إلى تنشئة عقل مبدع ناقد .

تعزيز السير نحو الفكر العلمي.

الاعتصام بالاستنارة في الفكر الديني لمواجهة التطرف والعنف والإرهاب.

التأكيد على قيم الحرية التي لا تقود إلى الفوضى.

تأصيل فكر العدالة الاجتماعية ومقاومة التهميش والاستبعاد الاجتماعي.

نوستالجيا التربية

ونزوع الصيرورة المستقبلية

تؤسس ثورة الخامس والعشرين من يناير عام ٢٠١١ لعقد اجتماعي جديد، وفلسفة اجتماعية مغايرة للفلسفة الاجتماعية التي كانت قبلها ، مما يترتب عليه توجه تربوي برؤى قادرة على استيعاب مستجدات تلك الثورة من غياب طبقات كانت حاضرة في المشهد و تيارات سياسية كان موجودة ولكنها أزيحت بفعل فاعل ، غير أن ثورة الخامس والعشرين من يناير قد جعلتها في صدارة المشهد ، وأكدت على وجود فكر جديد وسياسات جديدة قد يتفق معها المجتمع وقد يختلف إلا أنها صعدت وأكدت تواجدها .

حدث هذا من خلال وسائل تكنولوجية ساعدت بشكل سريع على اشتعال الغليان بين شباب مصر وطوائفها الشعبية من خلال (الفيس بوك) وغيره في ظل ثورة معلوماتية وتكنولوجية لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية وكان على رأس ذلك ظهور تكنولوجيا المعلومات التي هزت علاقات الإنتاج الصناعي وخلخلت الركائز الأساسية لمنظومته الاقتصادية ، كما أنها ساعدت بشكل جاد في الكشف عن مدى الخلل في النظم السياسية ومن بينها النظام المصري الذي تهاوى سريعاً أمام المظاهرات السلمية عالية الأداء التي دعا لها الشباب المصري من خلال (الفيس بوك) من خلال تحديد الزمان والمكان ، حيث وفرت تلك التكنولوجيا المعلوماتية وسائل عملية للاتصال والتفاعل مع واقع تعقدت فيه ظواهر المجتمع ، ولم يعد أحد يعرف بالتحديد ماهية الأشياء والنظم لاضطراب الأمور حيث أصبح كل شيء غير قابل للتوقع وسط فوضى تراكمت في المجتمع المصري وتواكبت مع حرمان معظم الشعب المصري من خيرات وطنه ووصل الحال بتكريس مسألة الإفقار كنوع من التعمد حتى يظل الشعب المصري تحت خط الفقر ويقضى كل وقته في البحث عن رغيف الخبز ، وانصرافه بعيدا عن المشاركة في الحياة العامة بشكل إيجابي ليظل غائباً عن المشهد دون فاعلية ومشاركة ليتسنى للنخبة الحاكمة تمرير سياساتها وفلسفتها المسيطرة على المجتمع من خلال تجريف ذاكرة الشعب المصري وتبوير عقله وتزييف وعيه ، ولكن الشعب المصري وفي مقدمته الشباب المصري ثار على ذلك من خلال شعاره (عيش حرية عدالة اجتماعية) وسارت ثورة الخامس والعشرين من يناير إلى نقطة اللاعودة ، حيث تصاعدت حدة سقف المطالب لشباب الثورة والتي تمحورت حول إسقاط النظام بكل رموزه وأفكاره وفلسفته ليتم تقويض أركان نظام فاسد قضى على كل شيء في مصر ومن بين ما تم القضاء عليه بشكل متعمد كان التعليم الذي هو في الأصل أساس التقدم وصنع الحضارة .

لذلك كان لابد النظر بعين الجدة في واقع النظام التربوي المصري الذي يتطلب تغييراً يصنع تقدماً حضارياً وتفعيل رؤية تربوية جادة تعبر عن فلسفة اجتماعية جديدة في ظل تلك الثورة المصرية العظيمة .

والمتأمل في واقع مصر قبل ثورة ٢٥يناير يجد في كل شارع من شوارع مصر ما يدفع إلى التأكيد على أن هناك غلياناً يشتعل في بنية المجتمع المصري نتيجة لعدة عوامل منها سياسي ، اقتصادي ، اجتماعي ، وكان أهمها الإحساس بفقدان الكرامة الإنسانية التي هي غاية التربية في بنائها للإنسان المصري .

وقد كانت التربية في واد من خلال جهود باحثيها حيث لم يتلف صانعو سياسة التعليم في مصر لجهود هؤلاء الباحثين الجادين ، وذلك لتفعيل أبحاثهم في تنمية بشرية تقوم على الحرية والعدالة وتحقيق الكرامة الإنسانية .

فكانت ثورة الشعب المصري العظيم بقيادة شبابها ترفع شعاراً (عيش ـ حرية ـ عدالة اجتماعية) وهذا الشعار يتم تلخيصه في كلمة واحدة هي الكرامة.

ـ فلسفة جديدة للواقع التربوي بعد ثورة ٢٥ يناير :

بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ يشير الواقع الحضاري المصري في ظل ما يحدث من حولنا في العالم إلى ضرورة مساءلة الواقع التربوي ، والإصغاء إلى كافة الإجابات هذا بالإضافة إلى مساءلة التاريخ وتقبل حكمه لتجاوز هذا الحكم رغبة منا في تخطى واقع تربوي مؤلم يتطلب بلورة وعى تربوي يقوم على فلسفة جديدة وبخاصة أن الواقع المصري صار مفتوحاً على كل الاحتمالات .

وتشمل هذه الفلسفة في مضمونها عدة أبعاد منها .

(أ) عدم الخضوع لسلطة منطق تقليدي :

المنطق التقليدي لا يستطيع الإجابة عن أسئلة الحاضر والمستقبل ، لأنه لا يمكن أن ينتج بالتالي سوى إعادة إنتاج لما هو مألوف ومطروح دون نقد مبدع وخاصة مع القرب من تحليل الأبنية المعرفية بغرض تجديد تربوي حقيقي فإن ذلك يعنى إجمالاً إدخال بعض العناصر الجديدة نظرياً ومنهجياً للاستفادة منها في أعادة البناء والهيكلة لبعض الأساليب والطرق الفنية والممارسات بهدف إغناء وإبداع الخبرة التربوية .

إذا كان مفهوم التطوير التربوي يراد به في محل دلالاته إثراء الممارسة التربوية وذلك عبر التدخل المخطط في قطاعات أو مجالات معينة منها بغرض تنميتها وتفعيلها بشكل يجعلها منسجمة مع بعض الأهداف والغايات والمستجدات التربوية أو الاقتصادية أو التكنولوجية أو الثقافية والعلمية ومستجيبة أيضا لبعض الشروط والرهانات والتحديات التي تطرحها وضعية المجتمع بعد التعرف علمياً على مكونات ومشكلات هذه الوضعية عبر بحوث علمية موجهة ومحددة الأهداف والتي أصبحت تعرف ببحوث التدخل أو التطوير أو الانتماء [١]

لذلك يتبدى لنا ضرورة الإصلاح التربوي دون النظر إليه فقط في أبعاده التقنية وفي ظرفيته ومحدوديته ، بل ينظر إليه على أساس أنه إجراء شمولي يفترض فيه أن يشمل كل أنماط التربية والتعليم والتكوين بمختلف مكوناتها وصولاً إلى الحقل الاجتماعي ومجالاته ، وذلك بمرجعية تقدمية هي الأقرب إلى ملامسة الأوضاع التربوية والتعليمية في مصر .

(ب) تأصيل الوعي في مجرى الوجود الأنطولوجى:-

إن أزمة الفكر التربوي اليوم هي أزمة اغتراب الوعي وتشتت مؤشر الزمان والتاريخ فالإنسان المصري على صعيد الوعي يعيش مندمجاً في المنظومة التاريخية الغربية في تقسيم التاريخ إلى عصور قديمة ووسيطة وحديثة ناسياً أن ما كان عصور وسطى بالنسبة للغرب كان عصور حديثة بالنسبة إلينا وذلك على مستوى الإنسان العربي ككل وما هي عصور حديثة بالنسبة إليه هي عصور وسطى بالنسبة إلينا هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الإنسان العربي يعيش الحاضر ويعايشه بوعي الأزمنة الماضية بخلافاتها وصراعاتها أي يعيش الماضي في الحاضر .

وعلى هذا الأساس فإن منظومة الفكر التربوي تتطلب تحليل مساراته الصاعد ة والهابطة ، وتحديدها تحديداً فكرياً ومنهجياً دقيقاً وبنائه من جديد في وعى الأمة ووجدانها وذاكرتها الجماعية وهذا بدون اغتراب أو انفصال .

وتفرض الثورة الاتصالية الكبرى وعياً كونياً من خلال البث الفضائي التليفزيوني وشبكة الإنترنت وقد أتاحت هذه الثورة لملايين البشر في كل مكان مشاهدة الأحداث في الزمن الواقعي لحدوثها مما أتاح تبلور ثقافة كونية من بين مفرداتها الأساسية التسامح والاعتراف بالخصوصيات الثقافية للشعوب ونبذ وإدانة العنف على الحريات وبروز النضال ضد الفساد والقهر والفقر . أي أننا نعيش زمن العقلانية والانفتاح الكوني والتعاطف مع الآخر والأهم نضال الشعوب لاسترداد كرامتها كما حدث في ثورة ٢٥ينايرفي مصر ، على الجانب الآخر نعيش ارتدادا سلبياً إلى الطائفيات والمذهبيات بل وأكثر من ذلك تطور التقاليد القبلية لتصبح قبائلية جديدة ، ساعدت على نشوئها ثورة الاتصالات التي جعلت الجماعات المتعصبة سياسياً أو ثقافياً أو دينياً تنشئْ لنفسها مواقع على الإنترنت، وتحشد الأنصار في سباق إنتاج خطابات متعصبة تمجد الذات وتعادى الآخر المختلف سياسياً أو ثقافياً أو دينياً [٢]

في نفس الوقت الذي ظل فيه التعليم في مصر بدون توجه أو هدف لما يتطلبه تطوير نظم وتنمية المعلومات ومجتمع الاتصالات من طريقة منهجية جديدة تنطوي على تعريف جديد للمعرفة بصرف النظر عن جذورها وقد فتحت ثورة الخامس والعشرين من يناير نوافذ جديدة في مجال الفلسفة التربوية باتجاه العقلانية الجديدة التي لا تقوم على علاقة سببية ولا على تفسير للواقع الذي يفترض أن الواقع يصعب تغيره ويخضع إلى القوانين التي يمكن أن تعرف .

ويعتمد عصر المعرفة على معرفة مختلفة هي المعرفة التي لا تنظر إلى التغيير على أنه تمزيق للنظام الراسخ لكن على الأصح كتجديد مبشر ، وهى أيضاً المعرفة التحى لا يكون العلم فيها مجرد وصف للقوانين الطبيعية وتفسير الظواهر ، لكنها تنطوي بالإضافة إلى ذلك على تغيير الطبيعة . [٣]

ومن ثم تفسح مكاناً جديداً لإعلاء شأن الإنسان وبنائه بحيث لا يكون إنتاج المعرفة شيئاً و الأخلاق شيئاً آخر .

(ج) حدود الممكن و المستحيل والواقعي والاحتمالي في التجديد التربوي:

تتعثر خطة التجديد التربوي في مصر بشكل لا يخفي على منظري التربية ومرد ذلك التعثر يعود لأسباب كثيرة ومتشعبة إلا أن هناك بعض الأسباب هي بمثابة الأساس الأول لتعثر مسيرة التجديد التربوي ومنها :

(أ) خضعت قرارات التجديد التربوي في الثلاثين سنة الماضية في أسسها وتوجهاتها الفكرية لتعليمات وتوصيات بعض مراكز القرار في الغرب ومنها على سبيل المثال صندوق النقد الدولي وبالتالي فلا يرجى من وراء ذلك خدمة المصالح الاجتماعية لمصر أكثر من خدمة المتدخلين في صناعة القرار ، إما بشكل مباشر أو غير مباشر لأهداف ومصالح تلك الجهات ، كما قد نجد توجه هذه الإصلاحات نحو بذل مجهودات ترتفع تكلفتها الاقتصادية والاجتماعية وغالباً ما تكون يائسة وبدون جدوى وذلك حين مراهنتها على تحقيق أهداف تربوية وتنموية غامضة غير محددة وغير واضحة في توجهاتها الفكرية والمستقبلية ومغرقة في التعميمات وفي الشعارات السياسية مثل تعميم التعليم ، ومقراطته ، وتنمية التمدرس .

(ب) كما تغرق هذه التجديدات بين بينات اقتصادية واجتماعية تم تشويهها بفعل التبعية أو أنها ما تزل في أوضاع التخلف مخترقة بالكثير من الممارسات اللاعقلانية معتمدة في أوضاعها على العلاقات الزبونية ، والقرابية ، والولاءات السياسية والاجتماعية المتعددة المنافية لكل قيم العلم والعقلانية والتنظيم والتخطيط واحترام الاستحقاقية والكفاءة ووضع الإنسان في المكان المناسب إلى غير ذلك من قيم الترشيد والتحديث التي تقوم عليها النظم الاجتماعية العصرية والمتقدمة .

وعلى هذا الأساس يمكن للتوجه التربوي الصاعد بعد ثورة ٢٥ يناير النظر بعين الفحص والنقد لإحلال قيم جديدة صاعدة تتوخى في صعودها تلافي ما سبق في إطار من الشرعية الوطنية حتى تنتهي التعثرات التي يمكن أن تفوق جهود المهتمين بإقامة نظام تربوي يستجيب لقوانين الجدة والحركة وصنع حضارة بحوامل معرفية يكون الأصل فيها نظام تربوي قادر على تخطى المألوف وتجاوزه لأفاق أكثر قدرة على النمو والاستمرار في التقدم .

ـ الحاجة إلى فلسفة القوفعل (تطابق القول والفعل)

إن أهم ما يميز الفكر الفلسفي المعاصر هو تجاوز الميتافزيقيا ، ومراجعة مفهوم الحقيقة ، ففي تاريخ الفلسفة يمكن أن نميز بين ثلاث لحظات فلسفية كبرى أسست للأنساق الميتافيزيقية ونصت على الحقيقة وهى :

لحظة أفلاطون ، ولحظة ديكارت ١٥٩٧ ـ ١٦٥٠ ولحظة هيجل ١٧٧٠ ـ ١٨٣١ فالوجود كله عند أفلاطون يؤول إلى عالم المثل الذي يمثل عالم الوجود الحق ، وأصبح معيار الحقيقة هو التطابق بين الشيء وصورته ، أو بعده تأتى لحظة ديكارت حيث يصبح الأنا منذ ديكارت الموضوع المتميز والمفضل للميتافيزيقيا وتصبح الحقيقة تتحدد كموضوع للتمثل، كيقين للتمثل [٤] أى أنه مع ديكارت أصبحت الذات هي أساس كل حقيقة وتحددت الحقيقة كمرادف لليقين .ومع هيجل ظلت الحقيقة ترتبط بالحضور والتطابق الذي يتأسس على العقل الكلى ، وهذا ما دفع ميشال فوكو إلى القول:مع هيجل اكتملت الميتفافيزيقيا[٥]أى تم تحديدها تحديداً دوجمائياً وهو التحديد التقليدي للحقيقة الذي يقوم على أنها هي الشعور بالتطابق التام بين القول والفعل أو بين العبارة المقولة والشىء الخارجي المحسوس الذي يشير إليه ، أو بشكل عام بين اللغة العادلة والتجربة أو المعرفة العملية التي يشكلها كل شخص عن الواقع

وتأسيساً على ما سبق فإن واقع التربية في مصر لابد أن ينطلق نحو آفاقه الرحبة بتطابق القول والفعل في كافة الخطابات الفكرية والسياسية والاقتصادية وغيرها ويتطلب ذلك الآتى :

أ ــ العقل النقدي :

الحاجة إلى عقل نقدي في سياق ثورة المعلومات التي أدت إلى تدفقها في كل المجالات المعرفية مما يستدعى ضرورة وجود عقل نقدي قادر على تصنيف وتحليل هذه المعلومات ، وهو الوسيلة الوحيدة لتحويل المعلومات إلى معرفة لأن المعلومات بذاتها ليست معرفة . (٦)

ب ــ تأصيل الخصوصية :

النظر إلى الخصوصية باعتبارها قضية وطنية بعيداً عن تضخم الذات والتغني بهوية الماضي والابتعاد عن خلق إشكالية جدلية بين الكونية والخصوصية ومد الطرف إلى التثاقف بين حضارات الشعوب بعيدا عن الهيمنة على أن يكون التثاقف بناءً باعتباره يمثل مرجعية ثقافية كونية .

ج ــ العدالة الأجتماعية :

أن يحتوى الخطاب التربوي في تجلياته محوراً هاماً في حياة الأفراد وهو العدالة الاجتماعية بحيث يتم إيجاد فرص تعليمية ووظيفية لمن يطلبها وتوزيع ثمار التنمية بشكل عادل يرفع من مستوى المعيشة في الريف والحضر ويعطى تكافؤاً في الفرص ، ويعمل في الوقت نفسه على إنصاف الأجيال بحيث لا يجوز رفع مستوى معيشة جيل على حساب جيل آخر.

د ــ الديمقراطية الحقيقية :

اعتماد الديمقراطية وسيلة وغاية لتحقيق تعليم متقدم يتيح الفرصة أمام الناشئة في شق طريقهم نحو الإبداع والابتكار تمهيداً لخلق جيل من العلماء في شتى نواحي الحياة من خلال تنمية بشرية مستدامة .فالأسلوب الديمقراطي يفرض علينا طرح كل الأفكار أمام الجميع وأمام أوسع الدوائر انتشار في الرأي العام والمتخصصين للإدلاء بآرائهم في ملامح الإصلاح التربوي وجوهره وأهدافه ، حتى يكون هذا الإصلاح انعكاساً حقيقياً لرغبات الشعب المصري واحتياجاته الفعلية ومبادئه وكل القيم التي آمن بها

هـ ــ التربية السياسية :

أن يتم تسليط الضوء على بعض جوانب القصور في مؤسسات ومناهج وأنشطة التعليم المصري والتأكيد على قيم المواطنة والتربية السياسية التي تعنى المشاركة الجادة والتعبير عن الرأي بحرية وربط الفرد بالمجتمع ووطنه انتماءً وعملاً، مع التركيز الجاد على الأنشطة التربوية وبعدها عن الورقية .

ع ــ تكافؤ الفرص التعليمية :

التأكيد على مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية على أن يكون مرتبطاً بالاستعدادات والقدرات العقلية والمعرفية بعيداً عن التمايز الاجتماعي والمادي والاستمرار في مكتب تنسيق القبول بالجامعات كونه الضامن الرئيسي لوصول أبناء الطبقات الفقيرة إلى مواقعهم التى يستحقونها .

و ــ الالتحام بمستجدات العصر :

الالتحام بثورات العصر الثلاث والتي تبدت في الثورة التكنولوجية واعتمادهاً على المعرفة العلمية المتقدمة ، والدفع باستخدام أمثل للمعلومات المتسارعة والمتدفقة ، مع الالتحام الجاد بثورة التكتلات الاقتصادية التي اجتاحت العالم في السنوات الأخيرة لاستيعاب كافة المستجدات وتطويرها ، والسير على طريق الثورة الديمقراطية والتحرر من الحكام الطغاة حيث مجتمعات شرق أوربا وشرق آسيا وثورات الربيع العربي في تونس ، مصر ، ليبيا ، اليمن ، سوريا ... الخ .

فتنمية القدرات البشرية لابد وأن يتم من خلال تجديد تربوي قادر على الاستفادة من كافة التجارب الناجحة . لأن من أهم الإشكاليات التي تواجه التجديد التربوي تنمية الطاقات البشرية الكامنة والمهدرة والمهشمة وتوسيع وترسيخ وتطوير مقومات الثقافة الوطنية والقومية المشتركة ، وعقلانية التعدد والتنوع في الرؤى بما يوفر التماسك الاجتماعي ، والتفاعل في إيجابية ناقدة ومتعلمة مع الحضارات الغربية حتى نتقصى الأساليب المجتمعية والجهود البشرية التي استثمرتها في انجاز ما حققته من منجزات إنسانية نكتسب منها معارف ومناهج جديدة لا حلولا جاهزة ،نستوعبها بصورة ناقدة ثم تعيد صياغتها في ضوء ما يتطلبه واقعنا من حلول المشكلات . (٧)

وفي إطار ذلك فقد بات من الضروري أن تعتمد التربية في توجهاتها المستقبلية على ثقافة المقاومة وأن تكون تربية من أجل حرية الإنسان وتنوع ثقافته وأن تكون تربية للإبداع لا للنقل والمحاكاة تحمل في طياتها رفض المستهلك والتمرد على الثابت والجاهز والمعد لأن ذلك سوف يؤدى إلى نهضة عقلية وحرية فكرية قادرة على مد جذور التواصل الحضاري تحقيقاً لنهضة تخلق وجوداً ثقافياً وحضارياً في عصر التحديات الكبرى . وسوف يقودنا ذلك إلى ضرورة تبنى علم اجتماع معرفة يقوم على أطر وضوابط لابد من توافرها لنتمكن من تجاوز عقدة الأصالة والحداثة، أو التراث والتجديد أو غير ذلك من ثنائيات مثل الدين والعلمانية وتلك أزمة منهجية تحتاج تحديد بعض الضوابط في البحث عن الهيكل النظري للتعميم والخصوصية في علم اجتماع المعرفة ، ويتطلب ذلك :

ـ الحاجة إلى علم اجتماع معرفة جديد :

(أ) ـ اعتماد جملة أنساق فكرية مترابطة عضوياً لخلق ذهنية مصرية تستطيع توليد رؤى وأفكار خروجاً من أسر الثنائية والمراوحة في المكان .

(ب) ـ إيجاد صيغة قيمة يتم إنتاجها من تفاعل الرؤى والأفكار ، لأن القيمة معنى و رمز وذلك في أنماط العمل الاجتماعي .

(ج) ـ صياغة جيدة لنظام العلاقات بين الأنساق الفكرية والقيم من جانب وقوى الإنتاج في المجتمع من الجانب الثاني .

(د) ـ الانفتاح على كافة الأشكال المعرفية بالاكتشاف أو بالإضافة لإثراء المعرفة المجتمعية من خلال ثقافة نقدية لتحقيق تقدم ممكن .

وعلى ضوء ما سبق وفي ظل استمرار ثورة ٢٥ يناير والإصرار على تحقيق أهدافها فقد وضعت ثورة ٢٥ يناير المفكرين والتربويين في أزمة معرفية ومنهجية ومنطقية أمام دورهم الذي يتطلب إعادة النظر في النظام المعرفي والإيدلوجى للعقل المصري لأنه الأساس الفكري المحرك للواقع والشعب ، فقد غيرت الثورة من فقه الأولويات المجتمعية ، وأكدت أن العقل ليس أداة تفكير فحسب كما تصور معظم المثقفين ، إنما هو مضمون التفكير . فثورة ٢٥ يناير قامت منذ بدايتها على التفكير، فقدمت التنمية الثقافية والاجتماعية والوجدانية والقيمية على التنمية الاقتصادية والسياسية.

الهوامش

١ ـ مصطفي محسن : الخطاب الإصلاحي التربوي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ١٩٩٩ ص ٥٨ .

٢ ـ السيد يسن : آفاق المعرفة في عصر العولمة ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ٢٠١١ ص ١٩٢

٣ ـ إبنى أجور وندو : تغير الواقع ، ترجمة زين العابدين سيد محمد ، مجلة مستقبليات العدد ١٤٥ مركز مطبوعات اليونسكو القاهرة ٢٠٠٨ ص ٨٦ .

٤ ـ سالم يفوت : المناحي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر ، دار الطليعة بيروت ١٩٩٩ ص ١٠ .

٥ ـ عبد السلام بن عبد العالي : أسس الفكر الفلسفي المعاصر دار تويفال ٢٠٠٠ ص ٩ .

٦ ـ السيد يسن : أفاق المعرفة مرجع سابق ص ٢٠٤ .

٧ ـ حسن شحاتة : نحو تطوير التعليم في الوطن العربي ، بين الواقع والمستقبل الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ٢٠٠٣ ص ٢٥

إشكاليات أزمة التعليم في مصر

مقاربة نقدية

تستهدف هذه الورقة البحثية تحقيق مجموعة من الأهداف المعرفية والاجتماعية والتربوية ، نجمل أهمها وأعمها فيما يلي :

التأكيد على الطابع الإشكالي لأزمة الإصلاح التعليمي والتربوي ، ومحاوله إبراز بعض أبعادها ودلالاتها وارتباطاتها المعقدة بمجمل التحولات الفكرية والاجتماعية والحضارية التي يجتازها المجتمع المصري .

توجيه النظر في البحث والتحليل نحو محاولة الكشف عن المنطق المتحكم في الخطابات المنتجة حول أوضاع الأزمة ، واستشرافات وتوجهات الإصلاح التربوي والاجتماعي ، وما يؤسس هذا المنطق – ضمنيا أو علنيا – من مرجعيات ومراهنات وركائز فكرية واجتماعية ، ومن حقائق وأوهام ...

التركيز على أن تكتسي تلك المقاربة طابعا نوعيا لا يتطلب التوصيف التفصيلي والمراكمة المعلوماتية – رغم أهميتها وإنما يستهدف التفكيك النقدي لتلك الأزمة أقوالا وتيمات محورية ، وأوهاما ، ومفاهيم ، وتوجيهات نظرية ومنهجية مرشدة ...كما أن في هذا النمط النوعي من المقاربة دعما رافدا للتراكم المتوفر في هذا المجال التربوي .

الحرص على أن تشكل هذه الدراسة – ضمن حدودها – مساهمة متواضعة في بلورة بعض مكونات المشروع النقدي الذي يطمح إلى بناء منظور سوسيولوجى نقدي تكاملي ومتعدد الأبعاد لأوضاعنا وقضايانا الفكرية والحضارية ، وذلك إلى جانب المشاريع الفكرية ، التي تسير في نفس الاتجاه المنهجي ، مساءلة ، بوعيها النقدي العميق ، واقعنا الفكري والاجتماعي المتأزم .

الطموح أيضا إلى أن ندفع بهذه المحاولة نحو تكريس نشر وعى نقدي بمختلف المشكلات والخطابات. التي تعج بها الساحة الفكرية والتربوية في مجتمعنا المصري وعى نقدي حذر يتجاوز الأطروحات والمنظورات التبسيطية والتقنوية، ويؤسس لفهم عميق ومعرفة مؤصلة . إنه الهدف المعرفي الإستراتيجي الذي يجب أن محور الارتكاز في مشروعنا الفكري، وفي كل أعمالنا العلمية المندرجة فيه ،.، وأن يفهم مقاصدها وأبعادها في سياقها الفكري العام ، لا في خصوصيتها وحدودها الآنية فحسب .

هكذا إذن يبدو ، من خلال الأهداف المذكورة أعلاه ، أننا لا نطمح إلى أكثر من أننا نريد أن نضع المهتمين – عبر هذه الدراسة المتواضعة – أمام مجموعة من المقدمات السوسيولوجية النقدية التي يمكن أن تشكل منطلقا للحفر ، والتساؤل ، والتفكيك ، والنظر ، والتحاور. حول بعض أهم المشكلات والرؤى والأقوال المرتبطة بإشكالية إصلاح نظامنا التعليمي ، من جهة ، كما يمكن أن تشكل ، من جهة أخرى ، أداة للمراجعة النقدية ، وللفهم ، وبالتالي للمساهمة في إنتاج معرفة بواقعنا التربوي والاجتماعي متملكة لقدر لا يستهان به من الدقة والعمق والتكامل والانفتاح . خاصة ونحن نعيش في الظروف الراهنة في إطار " نظام كوني جديد " يحاول أن يؤسس شروط استنبات " ثقافة كونية جديدة " مكرسة لقيم ومفاهيم العولمة والشراكة والانفتاح والتحاور والمنافسة والتفاهم والتفهم واحتضان التمايز اللغوي والاختلاف بين الثقافات والأعراق والحضارات

إن هذا التوجه الفكري والمنهجي المنفتح على قيم ثقافة الاختلاف والتعدد هو الذي تراهن هذه الورقة على المساهمة في بلورته . وذلك بكل ما تفترضه شروط الممارسة العلمية من تواضع وأعراف وأخلاقيات وتقاليد ، ومن اعتراف واع بالحدود والإمكانات والقابلية للنقد والتحاور والتبادل ، بل وللتجاوز أيضا .

إن الهدف المنهجي الذي تتأسس عليه هذه الورقة في تناول راهن مسألة الواقع التربوي والتعليمي والثقافي والاجتماعي خطابات وبنيات وتوجهات فكرية في مصر تحديدا ، ومن زاوية العلاقة بين واقع الأزمة وشروط الإصلاح ، يستهدف محاولة التفكيك النقدي لبعض الخطابات الرائجة حول هذه المسألة . وذلك بغرض إرجاعها إلى ما يؤسسها من خلفيات إبستمولوجية واجتماعية متداخلة ، والوقوف على ما يمكن أن يترتب على رؤيتها لهذه المسألة من نتائج وتوابعها قد يكون لها تأثير ما – إيجابي أو سلبي – على مستوى تأطير وتوجيه الممارسة الفكرية والعملية في آن .

أزمة العقل في مجتمع مأزوم

"كل وصف هو نصف الرؤية وكل موصوف هو نسيج الكمال بين العمى والبصر" .

استطاع خصوم العقل في العالم العربي في إعادة مستوى الجدل إلى الوراء قرنا من الزمان بالنسبة للعرب ، حيث يركز العقل العربي في ارتكازه الثقافي على إجترار نتاجنا الماضي من كتب مختلفة الأنواع والمعارف والبطء الشديد فيما ينشر حاليا بما يتيح المجال للعقل لطرح ثقافة للتساؤل فهل يمكن أن نصرف العقل العربي المعاصر إلى ما يفيد بدلا من إعادة المضغ وإعادة إنتاج واستهلاك لتناقضات ما يتم استهلاكه ،العقل والنقل ، العلم والدين ، الذات والآخر لنشر ثقافة مضللة لتزييف الوعي ، من خلال جعل ثقافة الماضي لا إبداع فيها ، فعلى العقل العربي أن يعي قدرة الثقافة أن عندها القدرة على الابتكار من هذا الماضي ، فالثقافة الماضية يجب أن تصبح معطيات معرفية لإنتاج ثقافة حاضرة حاليا ومستقبلا، وإلا تكون في سبيل الزوال ، إذا لم تتأقلم مع الحاضر .

وأزمة العقل العربي أنه لا يعتبر أن العقل هو عملية استدلال دائمة وذلك منطق الأزمة لأن العقل في جوهره هو عملية استدلال دائمة ،والاستدلال معناه أن يكون عندي نقطة جاهزة معدة ،ثم أتخذها مرتكزا للقفز إلى النتائج والأهداف ،والعقل انتقالي في طبيعته ، وكل معرفة تأتي في لحظة سكونية منوط بها العقل لذلك فإن الإدراك العقلي للمعرفة استدلال من مقدمة جاهزة . لذلك اتخذه ابن رشد دليلا في مجال العلاقة بين الشريعة والحكمة فهو يحدد هذه العلاقة في ضوء نظريته عن المعرفة إذ هو يفرق بين ثلاثة أنواع من المعرفة :خطابية وجدلية وبرهانيه وأدقها البرهانية لأنها تبدأ من المبادئ الأولية للعقل ،ويقرر ديكارت أن العقل واحد عند بني البشر أجمعين كما دفع التعصب الديني في أوربا إلى دفع فلاسفة التنوير لإعلاء سلطان العقل .

كما أن من بعض أسباب أزمة العقل العربي أن بعض العوامل قد أسهمت في تمجيد الماضي فالثقافة الميثولوجية للشعوب رسمت صورا خيالية مثالية للأزمان الماضية ،كما أن "الذكريات والأساطير في معظم الحضارات تفسده وتشوه التسلسل الزمني الدقيق ،فهي تسلم لما لديها من شواهد دون نقد أو تمحيص أو استخدام العقل ، كما أنها تخلط الأسطورة بالتاريخ ، والبشر بالألهة والأبطال والواقع بالخيال ، والحقيقة بالمأثور الأدبي" (بورترروي : فكرة الزمان عبر التاريخ عالم المعرفة ،١٩٩٢ ص٢٢).

وواقع العقل العربي ما زال مرتبطا ببعض صور الميثولوجية ،وقد أدى ذلك إلى استقرار ما يمكن أن يسمى ب " التخلف المزدوج" وهو التخلف عن وضعنا الذي تم في الماضي قبل انحسار دورات الحضارة بعيدا عنا ،والتخلف المرير في الحاضر الذي يدفعنا إلى غياهب العجز والتبعية ،كما يتطلب منا مقاومة التسطيح المخل هذا التسطيح الذي ينجم عن عدم التمكن أو فقر الإمكانات أو ضعف الوعي الجاد بأهمية الدراسات العلمية المتعمقة .

ذلك يتطلب أن يكون للعقل دور مهم في الدفع باتجاه التوجه الإنساني المتسم بالانفتاح الحضاري لاستشراف رؤى المستقبل . وعلى سبيل المثال فإن إعطاء التفكير العقلي إجازة وتعطيل الرؤية النقدية على المستوى السياسي، أنجزت الأنظمة العربية خلال أكثر من ثلاثين عاما إلغاء كليا أو شبه كلي للفضاء السياسي محتكرة القول والفعل والقرار ،ومستعيدة الأنظمة الأبوية في أكثر أشكالها تخلفا ، حيث الأب هو العاقل الوحيد وما على الرعية إلا القبول والخنوع ، تحولت السياسة وهي شأن مجتمعي إلى طقس كهنوتي مغلق ، يرى ما في خارجه عدوا ينبغي القضاء عليه ، لأن طقس الأقلية لا يستقيم إلا بتدمير الأكثرية في ظل عدم الاحتكام إلى العقل لذلك أدت السياسات السلطوية في مستوياتها المختلفة إلى مجتمع عربي بدون عقل صفته الأولى : الأزمة العضوية المغلقة التي يفتحها طول عهد المجتمع على التفكك والانحلال لذلك يبدو المجتمع العربي اليوم مجتمعا لا أزمة فيه علما بأنه مجتمع مأزوم منذ زمن بامتياز ،لأن الاستنقاع الذي يعيشه ألغى فيه معنى الأزمة ودفعه إلى تخوم الموت .

وما العقل العربي المعاصر بهذا المعنى إلا ترجمة لمجتمع مأزوم نسى أزمته لأن الصحوة العقلية المفترضة لم تقم خلال أكثر ثلاثين عاما من الزمن إلا بالانتقام المتأخر من عصر التنوير العربي ومن المنتمين إليه ، دون أن تقدم أية بدائل اقتصادية وسياسية وثقافية باستثناء قمع الفكرة ، وتنشيط الطائفية التي لا تحتاج إلى التنشيط .

ومرجع ذلك أنه عندما تعرف الفكر العربي على منظومات الفلسفة العقلانية وتيارات الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي المستند إليها في لحظة تاريخية كان فيها الغرب الأوربي قد انتقل إلى عتبة الإمبريالية فحدث صدام عنيف داخل المجتمعات العربية بين الغرب المندفع تحت تأثير تطور نظامه الاقتصادي الرأسمالي وبين المجتمعات العربية التي كانت تعيش في مستوى من التأخر التاريخي ، الذي سهل إمكانية اغتصاب جغرافيتها واختراق أنظمة المجتمع والثقافة السائدة فيها .

لذلك" دفع عبد العروي" إلى ضرورة الدفاع عن لزوم القطيعة مع تاريخ التقليد المتمركز حول ذات هامشية ومهمشة في الحاضر الكوني حتى يمكن الانخراط في تمثل مكاسب الأزمنة المعاصرة ،بهدف إعادة إبداع التاريخ الذاتي الذي لا يمكن فصله عن تاريخ العالم بمختلف تناقضاته وتطلعاته .

كما يشير" محمد عابد الجابري" في نقده لتجليات العقل العربي في عصورنا الوسطى أن علاقة مشروعه بالنقد بالتحرر من قيود الماضي التي فقدت وظيفتها اليوم في عالم نجح في تركيبات مقدمات جديدة في موضوع تعقله في ذاته ،وللتحولات التي حدثت في التاريخ وفي تاريخ الأفكار الدينية وآلياتها النظرية على وجه الخصوص .(كمال عبد اللطيف ،تيارات العقلانية والتنوير في الفكر العربي ، المستقبل العربي ،٥ /٢٠٠٥ ص ١٣٦، ١٣٧).

ويرى" سعيد إسماعيل علي "ضرورة وجود العقل في حياتنا حيث يؤكد أن أهم غاية من غايات التعليم والتربية والثقافة تتمثل في إعداد الفرد للحياة في حاضرها ومستقبلها وتنمية قدراته على مواجهة مشكلاتها ، ويرى أن تحقق ذلك الهدف أو تلك الغاية في انصرافه عن قراءة الخرافة أكثر مما يقرأ عن العلم وعن العقل .(سعيد إسماعيل علي مكانة العقل في حياتنا الفكرية ،مجلة العربي ،٢٠١٥/٢ ص٣٣).

التربية والعقل والدين

أغفل المسلمون أن في الإسلام جانبا روحيا غالبا متميزا عن العهدين القديم والجديد وهو الجانب الغالب على رسالة سيد الخلق النبي محمد خ ، وإذا كان الدين الحنيف قد احتوى على جانب قانوني يتمثل في قواعد المعاملات فهو جانب مهم ، أما الأغلب الأعم من الآيات فإنه يتعلق بصياغة العقل والضمير ، وقد أهمل المسلمون نتيجة اهتمامهم بالجانب القانوني الذي قتل بحثا أهملوا الجانب التربوي الذي يقوم على بناء الإنسان ، وقاد ذلك إلى تقليص دور العقل في التعامل مع الرسالة المقدسة .

إن ما شهده تاريخنا من حجر على البحث في السياسة على سبيل المثال إلا لتأييد حاكم قائم أو تشويه حاكم مضى ، وما مارسه المسلمون من تكفير لبعضهم البعض من قطع بعضهم رقاب بعض ، يعود في المقام الأول إلى أنهم لم يستوعبوا درس الإسلام ولم يفهموه على أنه رسالة تربوية عقلية ، لذلك أمكن لأي من أصحاب المصالح أن يجد في تعاليم الدين المجملة تأويلا يسعفه لتأييد موقفه ، ووجهة النظر التي تناسبه واستخرج البعض من الدين تبريرات للجريمة وتسويغا للظلم ، بل انصرف البعض إلى تسخير الدين لخدمة الخرافة ، فعالج بالأدعية الأمراض ، واحترف كشف الغيب وقراءة الطالع ومطاردة الجن بعيدا عن أية عقلانية على نحو ما نشاهده في الفضائيات مرارا وتكرارا في الفترات الأخيرة.

إن التربية والعقل والدين هم تجليات الارتقاء في الممارسات المجتمعية، تتحقق عندما ينشط النسق المعرفي والفكري والثقافي للمجتمع ويتسع ، بوصفه أهم الدوائر المؤثرة في استمرار المجتمعات وتطورها واستقرارها ، حتى لا يصبح المجتمع أسير أجوبة متخشبة جاهزة متوارثة في مواجهة ضغوط احتياجاته باجترار ثوابت معرفية تجاوزتها فتوحات الزمن المعرفي الراهن ، بتنوعات إنجازاته المتجددة ، في حين أن المجتمع لتحقيق تجدده تتطلب ليس فقط أن يعرف المجتمع نفسه ، بل أن يصنع نفسه ويؤسس ذاته في سياق إدراك دائم أن المجتمع لا يمكن أن يكون إلا بتحرير العقل العام ، ليقرأ ويتمعن ويستوعب ويدرك ويعرف وتتحول مقروءاته ومعارفه إلى شبكة ممارسات يومية تسود كل مظاهر وآليات البنيات الاجتماعية والفردية وعلاقاتها ، التي تواجه الصدوع اللامعقولة وحالات التسلط المغلق التي تغلف وعي الناس بشطحات الارتداد للخلف والعزلة وانعدام العقلانية . لأن الإنسان أكثر ثراء من الواقع وأيضا أن لا شيء يتأبد في الحياة الاجتماعية.ليمنع العقل من بناء المعرفة الجديدة .

وعلى سبيل المثال فبعد ثورة الخامس والعشرين من يناير تغير العقل المصري وتغيرت أفكارنا وانكشف الغطاء عن حقائق مظلمة ومؤلمة لم تكن جلية وقتها وأظهر العقل الجمعي سؤالا مشروعا : هل كان الربيع العربي حقا هو مجرد حالة انفجار داخلي أم حصيلة تفاعلات محلية وإقليمية أم هو نتاج لسياسات دولية ؟ وهل كانت ثورة يناير ثورة شعبية مطلبيه أم كانت ثورة خلاقة في المنطقة التي بشرت بها " كوندليزا رايس" عن قدرة أمريكا على إحداث ثورة خلاقة في المنطقة ، كانت بشرة مدروسة موجهة لكل الأطراف التي تعاونت مع أمريكا من ناشطين سياسين ونخب تربحت على جثث الأوطان وشباب تم الزج بهم لإحداث فوضى .

التربية الإسلامية و تأصيل البناء الفكري لدى الإنسان المصري على ضوء ثورة التقدم العلمي و التكنولوجي:

يعد الإسلام دينا للحياة بجميع أبعادها المختلفة ، وقد جاء لمصلحة المجتمع ولسعادة الإنسان في دنياه وأخراه . فالإسلام رسالة ومنهاج حياة تتطلب تلك الحياة أسسا تربوية تقوم على ركائز تربية إسلامية ، فالرسالة من منظور إسلامي تعنى العطاء الإلهي المتجدد الذي يوفر للأمة قيمها الروحية والأخلاقية والإنسانية باعتبار أن القيم هي المنارات التي توضح للأمة معالم طريقها واستقامة حياتها.

والتربية الإسلامية تقوم في الأساس على تأصيل البناء الفكري للإنسان في مختلف مراحل نموه وبخاصة مرحلة الشباب، حيث يقوم البناء الفكري في جوهره على تنمية العقل البشرى ورعايته وتحريره من كل ما يعوق حركته وانطلاقه ،ثم دعوته إلى التأمل في صنع مخلوقات الله، والحث على طلب العلم والاستزادة منه (رضوان،٢٠٠٦، ٦٥)فالتربية الإسلامية لا تعمل على قهر النفس الإنسانية بل تترك للإنسان مجالا واسعا أمام حياته الشخصية والاجتماعية حتى يمكن للخصائص النفسية والاجتماعية والوجدانية والعقلية أن تجد طريقها نحو التطور الإيجابي الذي يتلاءم واستعدادها الذاتي وذلك في ضوء توجيهات عقيدة الإسلام ومبادئها سعيا لتأصيل بناء فكرى للإنسان،ليعرف نفسه في ضوء رؤية منهج الإسلام فيعرف مكانته وعقيدته وتراثه في وضوح وجلاء وليعرف أيضا الآخرين من أبناء الأـمم الأخرى لتحقق لديه قيمة الوظيفة التي نيطت به ومعنى استخلافه في الأرض، وجلال الرسالة التي حمل إياها

وذلك في ظل المتغيرات المتسارعة في عصرنا الحالي والتي لا يمكن اللحاق بها إلا من خلال تأصيل هذا البناء الفكري الذي يفرز بوضوح بين ما يتفق مع ديننا الإسلامي، وما يخالف عقيدتنا، فالتربية الإسلامية تسعى سعيا حثيثا إلى ربط الإنسان بخالقه وبعالمه وبكونه .

والبناء الفكري للإنسان مرتبط بتحرير العقل من كل صور الوهم والخرافة والدعوة إلى التأمل والتفكير فالتربية الإسلامية تدعم العلاقة الوثيقة بين قاعدة العقيدة والفكر بين الإيمان والمعرفة ، بين الإيمان والتقدم العلمي ، إنها تفتح أبواب المعرفة و تحث على التزود بها ، تدعو إلى الأخذ بأسباب العلم و التقدم العلمي . (رضوان ،٢٠٠٦، ٦٩).

ويعيش الإنسان المصري الآن سمات ثقافة عصر الإنترنت ، وهذه الثقافة تعنى أن نشيد حولنا أسوارا عالية تحول بيننا وبين ماضينا وتراثنا بدلا من أن نبنى الجسور إليهما حتى نفهم تأثيراتهما ،وكيف أسهمت هذه التأثيرات في تكييفنا ؟ إن أصوب تعريف للثقافة هو (الإلمام بالماضي الحي) والإلمام بالماضي الحي ليس من المشاغل الرئيسية لعصر الإنترنت ، هو عصر أهم ما يتسم به التجزؤ *frag mentation* تجزؤ الفكر ،وتجزؤ الاهتمامات ،وتجزؤ العلاقات الاجتماعية ،و تجزؤ المعرفة ،و تجزؤ روح الفرد منا . (أمين ٢٠٠٥ ، ١٠٥) .

و لكي نؤصل بناء فكريا لدى الإنسان المصري من خلال التربية الإسلامية ، فإن ذلك يتطلب قبل كل شيء إعادة النظر المستمرة في مضامين الفكر الإسلامي وصيغه بهدف تجديدها و تفعيل العناصر الساكنة فيها ، لأن استشعار هذه الأهمية من قبل أصحاب الفكر و الاختصاص بات من البديهيات التي لا تحتاج إلى دليل ، فإن الواقع المتغير من حولنا و الحوادث المستجدة و سرعة التطور التي نعيشها بشكل يومي تجعلنا في مواجهة دائمة مباشرة مع ضرورة التجديد في الفكر الإسلامي التسخيرى ٢٠٠١ ، ١٧١

و يحتاج ذلك إلى ضرورة بناء وعى نقدي ، لأن ذلك الوعي يخلق حالة من الحركة و التغيير و التجديد تدفع باتجاه تحريك الجمود الفكري و بخاصة الفكر التربوي . هذا الفكر الذي يعانى من إشكالية إنتاج عنصر الأزمة التي يعانى منها الفكر العربي و الثقافة العربية بسبب الافتقار إلى فلسفة تربوية واضحة المعالم والأهداف

و من ثم لا يتم تفعيل الواقع تربوياً ، حيث لا يتم تفعيل التربية لذاتها ، مثلما يحدث للفكر ذاته ، فتفعيل الواقع فكريا ، لا يتم إلا عبر تفعيل الفكر لذاته ، وتفعيل الفكر لذاته يخرجه من أزماته و عثراته التي يمكن أن تخضعه لعوامل الزوال و الاندثار ، و الفكر السائد في الوطن العربي بشكل عام يغلب عليه الطابع الإيديولوجى الخالص ، إنه يتسم بالهشاشة النظرية ، التي لا تتيح الاحتكاك المعرفي لحقائق الواقع و ضروراته و احتياجاته ، و حركته المستقبلية و لهذا فهو أقرب إلى تكريس الواقع القائم و إعادة إنتاجه (التركمانى ٢٠٠٨ ، ٢٨) .

و مرد ذلك إلى انعدام الوعي بالشيء ، و الوعي يتشكل نتيجة لتفاعل الناس مع عالمهم ، لما في هذا العالم من فكر ، فإذا حكمنا على الوعي في فترة من الفترات بأنه وعى متخلف ، فإن هذا الحكم يكون على البشر أنفسهم بالتخلف ، لأنهم أخفقوا في إقامة حوار مع واقعهم بالنقد و التحليل ، لكي يشكلوا العالم بما يناسبهم (سيد أحمد ، ١٩٩٣، ٢١٤) .

و لما كان الفكر العربي قد اتسم بالهشاشة ، فقد تجلى ذلك في كونه قضى مئات السنين يعيش ثنائية دائمة ، لا يرى نفسه إلا من خلالها ، ثنائية القديم ، والحديث ، و الأصالة والمعاصرة . . إلخ وهكذا لم يقم الفكر النظري العربي في العقود الماضية ، و بقدر تبنيه هذه الثنائية كواقع ثابت و طبيعي إلا بإعادة إنتاجها (غليون . د . ت . ٩) .

و كان من نتيجة ذلك أن الفكر العربي المعاصر لم ينجز بعد النقلة الكيفية الضرورية للدخول في العصر و الاشتراك في إنتاج علوم اجتماعية عالمية الأفاق وعلى مستوى التحدي التاريخي ، الأمر الذي ترتب عليه خطر جسيم هو خطر " تهميش العرب في إنتاج المستقبل الإنساني " (أمين ، ١٩٩١ ، ١٥٩) .

فنحن نعيش زمنا غير الزمن وحالا غير الحال ، بعد أن اتسعت الفجوة الحضارية والثقافية بين دول العالم ووقوع أحداث أظهرت حتمية التقارب وليس التباعد .

فعالم اليوم فريد في نوعه فهو عالم الاتصالات الآنية والمعرفة الممتدة إلي ما وراء الأفق والمتاحة لمن يريد أن ينهل منها، عالم شبكات المعلومات والأقمار الصناعية والمحطات التلفزيونية والإذاعات المتقدمة التي تكاد تغطي كل متر من الكرة الأرضية ، وتكشف معظم المستور (الجمال ٢٠٠٤ ، ٩٠) .

وفي إطار ما يحدث في عالمنا الحاضر الآن وسعينا نحو بناء فكري للإنسان المصري من خلال التربية الإسلامية فإننا نجد أن الاجتهاد لصيق بعملية التجديد والبناء الفكري، فالاجتهاد هو أداة التجديد والمولد الذي ينتج مواد التجديد . وبرغم أن الاجتهاد يعني اصطلاحا علي وفق الفهم الموروث القابلية لاستنباط الحكم الشرعي من مصادر التشريع الإسلامي ، إلا أن تعميمه ليشمل كل مجالات الحياة ، أو بالأحرى كل مجالات الفكر الإسلامي التي تتدخل في كل زوايا الحياة ، وبذلك يكون الاجتهاد منسجما مع أهداف الشريعة نفسها ، والتي هي قانون الحياة ، فالاجتهاد إذن هو أداة التجديد في فقه الأفراد ، وأداة التجديد في فقه المجتمع ، وفي الفكر الاقتصادي ، والفكر السياسي والفكر الاجتماعي وغيرها . (التسخيري ، ٢٠٠١ ، ١٧٣).

وهنا تبرز أهمية التربية الإسلامية في تأصيل البناء الفكري لدي الإنسان المصري وفي بناء فكر جديد ومتجدد في مواجهة التقليد والموروث السلبي ، أي للأفكار القديمة والمتوارثة والراسخة في الوجدان والتي توجه سلوك الناس وتفكيرهم فالإسلام دين عالمي اهتم بعقل الإنسان وحثه علي التفكير البناء والخلاق ، فالاهتمام بالعقل البشري وإمكاناته وأساليب نموه وتطويره ، وبعده عن التقليد والجمود والسكون ، يبرز لنا ملامح المنظومة التربوية المميزة للألفية الثالثة .

فهي ألفية تراهن علي تفتيح عقول الشباب والمتعلمين ورعايتها ، وتلعب دورا فعالا في مجتمع ما بعد الصناعة ، ذلك يتطلب من الفرد أسلوبا عاليا من التكيف المعرفي الذي يعلي من شأن التفكير الجيد والقيم التربوية الرشيدة في عصر استطاع العالم فيه أن يحقق نوعا من التزاوج بين الكمبيوتر ، والعقل البشري علي أجهزة كمبيوتر متطورة وإذا ما دخلنا في هده العملية من التفاعل بين التنمية الهائلة والشاملة لإمكانات العقل البشري ، فضلا عن التطور الهائل في الهندسة الوراثية ، والتقدم المذهل في تطوير الإنسان الآلي والتحكم عن بعد ، والتقدم الكبير في التكنولوجيا فائقة السرعة فنحن في إطار منظومة جديدة تشكل نقلة في قدرات الجنس البشري

ومن هنا تبرز أهمية تأصيل بناء فكري جديد لدي الإنسان المصري يخرج بالعقل من البنية المعرفية الثابتة إلي تأصيل فكري ومعرفي متجدد من خلال تربية إسلامية تؤكد أن العقل هي القوة الكبرى التي يجب أن يمتلكها شباب القرن الحادي والعشرين وبخاصة مع وجود المحك الثقافي الذي يحول أنوار المعرفة إلي معارف مشتركة .

فالعرب كانوا منفتحين علي الآخر في لحظات قوتهم ، فالترجمة كانت سائدة ، وانفتاح ابن سينا علي فلسفة أرسطو ، والفارابي علي فلسفة أفلاطون خير مثال ، وكان الخطاب العربي في أوقات القوة يطالب بالانفتاح علي . أما في الخطاب الضعيف فإن الحوار يتمحور حول الحفاظ علي وليس أمامنا إلا أن نعترف بأننا جزء من هذا الكوكب مع الاحتفاظ بقيمنا الأصيلة ، وتفعيل التفكير النقدي للوافد الحديث ، والتراثي الأصيل من أجل المحافظة علي هويتنا من جهة وتجديدها وعصريتها من جهة أخري (عبد الحميد وآخرون ، ٢٠٠٤ ، ٥٥) .

ويتطلب البناء الفكري للإنسان المصري مواصلة التجديد الذي لم ينقطع في تاريخ الفكر الإسلامي ، و الدليل على ذلك أن الإمام الشافعي كانت له أراء فقهية في العراق وحينما انتقل إلى مصر بدأ يعيد النظر في فتاواه لأنه وجد في مصر أعرافا مختلفة عما وجده في العراق الأمر الذي دعاه إلى ضرورة مراعاة ذلك، ومنذ بدأ النقل عنه حتى يومنا هذا يقال : مذهبه في القديم ، أي عندما كان في العراق ، مذهبه في الجديد، أي بعد أن انتقل إلى مصر .(زقزوق،٢٠٠٥، ٥٢، ٥٣).

والزمن العربي الحالي ومن خلال رؤى التربية فيه بحكم شرطه التاريخي هو زمن يجمع بين أزمنة متعددة ، وهو زمن تتقاطع فيه الأزمنة ، وتتصارع دون أن يكون أقربها إلى القرن الحادي والعشرين أكثرها تأثرا أو حضورا أوقوه فهو زمن يجاور مابين أقص مظاهر التقدم وأقص درجات الجمود زمن المتعارضات المتصادمة أفقيا ورأسيا من أبنية الثقافة والمجتمع والاقتصاد (عصفور ١٩٩٨ ، ١٠٩)

و يدفعنا ذلك إلى ضرورة التحلي بوعي نقدي ، و تجاوز التلقائية ، والانغلاق الفكري إلى نظرة إنسانية شمولية ، تكون فاتحة لعهد جديد ، يتميز بالحوار الفعال، و الحقيقي مع الآخر ، بعيدا عن النظرة الاحتقارية للذات و الانبهار الأجوف بالآخر

و يمر ذلك من خلال إعمال العقل الذي حفزه الدين الإسلامي على ضرورة إعمال الفكر ، ويبدأ تفعيل العقل مع بداية التمدرس ، فجوهر المدرسة هو التوعية الفكروية ، و تتركز وظيفتها كمعبر أساسي للأشياء الخاصة بالعقل ، فمعظم ما يتلقاه الإنسان مع مراحل تكوينهم المختلفة تتم داخل المدرسة ، فالمدرسة تعطى الاهتمام الكبير للوسط الأساسي الذي يعمل العقل من خلاله ، هذا الوسط هو الرموز ليس فقط في مضمار اللغة و لكن في الرياضيات و غيرها أيضا .

ويمكن للتربية الإسلامية أن تؤصل لبناء فكرى واع لدى الإنسان المصري من خلال الإبداع الذي يخلقه العقل ،فالإبداع حركة لا سكون والحركة تتطلب وعيا نقديا ناظرا للمستقبل لا غائبا عن الحاضر.

وبالنظر إلى المادة التعليمية التي يتلقاها الناشئون نجد أنها تطغى على أساليب التفكير. فالمناهج تكتظ بمادة تعليمية ضخمة على حساب تنمية مهارات التفكير ، وتوقف دورة التعليم عند اكتساب المعرفة دون توظيفها والانتفاع بها ، وهذا يعرضها للتبدد والضياع ويعانى معظم الطلاب من عدم التمكن من مهارات البحث عن المعرفة ومن طرق تمثيلها منهجيا ومن عرضها وتسويقها وتوظيفها

وإذا كان منهج الإسلام قد حث على الإقبال على طلب العلم الذي يقوم على الحجة القوية والبرهان المقنع ، فإنه أيضا قد أعلى من قدر العلماء والمتعلمين وأثنى على دورهم في خدمة قضايا العلم والدين.

ويقودنا ذلك علي التأكيد علي ضرورة تنمية المهارات الذهنية الباعثة علي الفكر الجيد . فغياب مفهوم تنمية المهارات الذهنية ، هو نتيجة منطقية لأسلوب الحفظ والتلقين في كل مراحل العملية التعليمية من رياض الأطفال حتى الجامعة، فتنمية المهارات الذهنية الأساسية كالاستنتاج ، والاستنباط ، والاستقراء ، والتحليل ، والتركيب وترشيد استثمار موارد الذاكرة البشرية ، ومهارات التواصل مثل القراءة ، والكتابة ، والاستماع وهذه البينة التحتية التي يقام عليها مجتمع المعرفة (السمالوطي ٢٠٠٤ ، ١٠٤) .كلها تساهم في تأصيل البناء الفكري ومن أجل ذلك يجب أن نتعلم فالتنامي المتصاعد للخيال البشري أصبح أمرا حتميا حتي يمكننا استيعاب متغيرات العالم من حولنا ، وحتى يمكننا تطويع إمكانات لغتنا وقدرتها الكامنة للتعبير عن عصر يموج بتقلبات مذهلة ، وثورات حادة في مجال التقدم العلمي وثورة المعلوماتية الحيوية التي أثرت معرفة الإنسان واستكشافه لآفاق ومناطق لم تكن مألوفة من فبل ، وثورة البيوتكس" (تعني إدماج العلوم الإلكترونية مع علوم الحياة ، وتتجلي في الهندسة الوراثية التي أثمرت مشروع الجينوم البشري). وثورة " الربوتكس " (المقصود بها استحداث أدوات تنافس الكائن البشري في إنجاز أعمال معقدة) كل هذا يدعونا إلى التأمل المبدع لما حققه الإنسان في هذا العصر .

فقد قاد العقل الإنسان إلي تلك الثورة ويتفق ذلك مع منهج التربية الإسلامية والفكر الإسلامي في تحرير العقل ، وذلك لتحرير الإنسانية من أغلال الحجر العقلي ، وسيطرة التبعية العمياء وتربيته علي حرية الفكر واستقلال الإرادة ليكمل ذلك عقله ويستقيم تفكيره وتكمل له شخصيته وإنسانيته، فإن كمال العقل ، واستقامة التفكير واستقلال الإرادة هي أساس صحة العقيدة ، ومعرفة الحق الذي يجب أن يتبع

وعلي ضوء ما سبق يمكن للتربية الإسلامية أن تؤصل بناء فكريا لدي الإنسان المصري من خلال تحصينهم بسلاح الاختلاف الواعي مع الآخر ، الذي من شروطه إعادة نظر نقدية للعلاقة التي تربط الثقافة العربية الحديثة بأصولها الموروثة من جهة بالثقافة الغربية من جهة أخري ، في ضوء هذه النظرية النقدية الواعية تعلن الثقافة العربية والفكر العربي عن أسئلتهم الخاصة مستجيبة لما تمليه الظروف ، وما يفرضه واقع الإنسان العربي ، لا استجابة لسياقات وأنساق ثقافية بعيدة عن المعطيات الراهنة ، سواء كانت من الماضي أم من حاضر الثقافات الأخرى .

والنظرة الناقدة للفكر ضرورة حياة سواء أصابت أو أخفقت ، لأنه لا ينشأ فكر من فراغ ، ولا يكتب له البقاء والاستمرار إذا لم يعارضه فكر آخر ، لأن الفكر ينشأ مبشرا بشئ ما ومهاجما لشئ ما ، وتلك طبيعته ، ومن نقد الفكر ، ومن نقد النقد ومن تبادل الأفكار للهجوم والدفاع تتجدد الحياة الفكرية ، وتنشا التكوينات العقلية المتطورة ، وتنزوي التكوينات الساذجة في عالم النسيان (سيد أحمد ، ١٩٩٣، ٢٠٥)

ويقتضي ذلك حضورا لفكر واع قوامه العقل كي تتوافر فرص النقد الواعي والتعبير ، وتناول القضايا بواقعية بعيدا عن أجواء التسلط والعنف المادي أو المعنوي ، وذلك بالاستناد الحقيقي علي سماحة الروح الإسلامية ،ومنظومة الإيمان والعقيدة التي تقوم على أركان الإسلام حتى لا تضيع خصوصيتنا وتتلاشى هويتنا وذلك بإعمال الفكر الذي يجب أن يتم تأصيله إسلاميا،

فالإسلام يستنهض العقل البشري الفكر والمعرفة في كل الميادين ،ثم يوظفها لصالح الناس والمجتمعات وللانتفاع بالمسخرات الكونية التي سخرها الله للإنسان.

قائمة المراجع

التركماني :عبد الله ،٢٠٠٢ ، مقاربة حول أزمة المشروع القومي العربي وآفاقه المستقبلية المستقبل العربي العدد ٢٨١بيروت مركز دراسات الوحدة العربية.

التسخيري:محمد على ،١ ٠٠ ٢ ،التجديد في الفكر الإسلامي القاهرة ،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

الجمال :أحمد مختار ٢٠٠٤ ،الأسس الفكرية لحوار حضاري بين العرب والغرب شئوون عربية ع ١١٨ ،القاهرة ،الأمانة العامة لجامعة الدول العربية .

السايح :أحمد عبد الرحمن ،٢٠٠٥الخطاب الديني والواقع المعاصر ،القاهرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

السمالوطي:نبيل ،٢٠٠٤ التنمية ومجتمع المعلومات في العالم العربي ،القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

العروي :عبد الله ،١٩٩٠ ،الإيديولوجيا العربية المعاصرة ط٢ ،الدار البيضاء ، منشورات المركز الثقافي العربي .

الصعيدي: سلمى ،٢٠٠٧ ،التنمية الذهنية الغائبة ،مجلة العربي ع ،الكويت ، وزارة الإعلام ..

أمين :حسين أحمد،٢٠٠٥ ،الشباب العربي بين فكر التراث وعقلية الإنترنت شئون عربية ،ع١٢١ ،القاهرة ،الأمانة العامة لجامعة الدول العربية .

أمين :سمير ،١٩٩١ ،بعض قضايا المستقبل ،تأملات حول تحديات العالم المعاصر القاهرة مكتبة مدبولي .

تركي :عبد الفتاح ، ٢٠٠٢،المنهج النقدي في البحوث التربوية ،كفر الشيخ ، المؤتمر العلمي الخامس ،كلية التربية بكفر السيخ .

حنوش ،زكي ، ٢٠٠٠ نحو تربية أفضل لأجيالن في القرن الجديد ،شئون عربية ١٠٤ القاهرة ،الأمانة العامة لجامعة الدول العربية .

رضوان :عبد التواب إبراهيم ،٢٠٠٦ ،الإسلام والبناء الروحي والعقلي للإنسان، القاهرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

زقزوق ،محمود حمدي ،٢٠٠٥ ،الفكر الديني وقضايا الأمة الإسلامية ،القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

سيد أحمد :عبد السميع ،١٩٩٣ ،علم الاجتماع التربوي ،الإسكندرية ،دار المعرفة الجامعية .